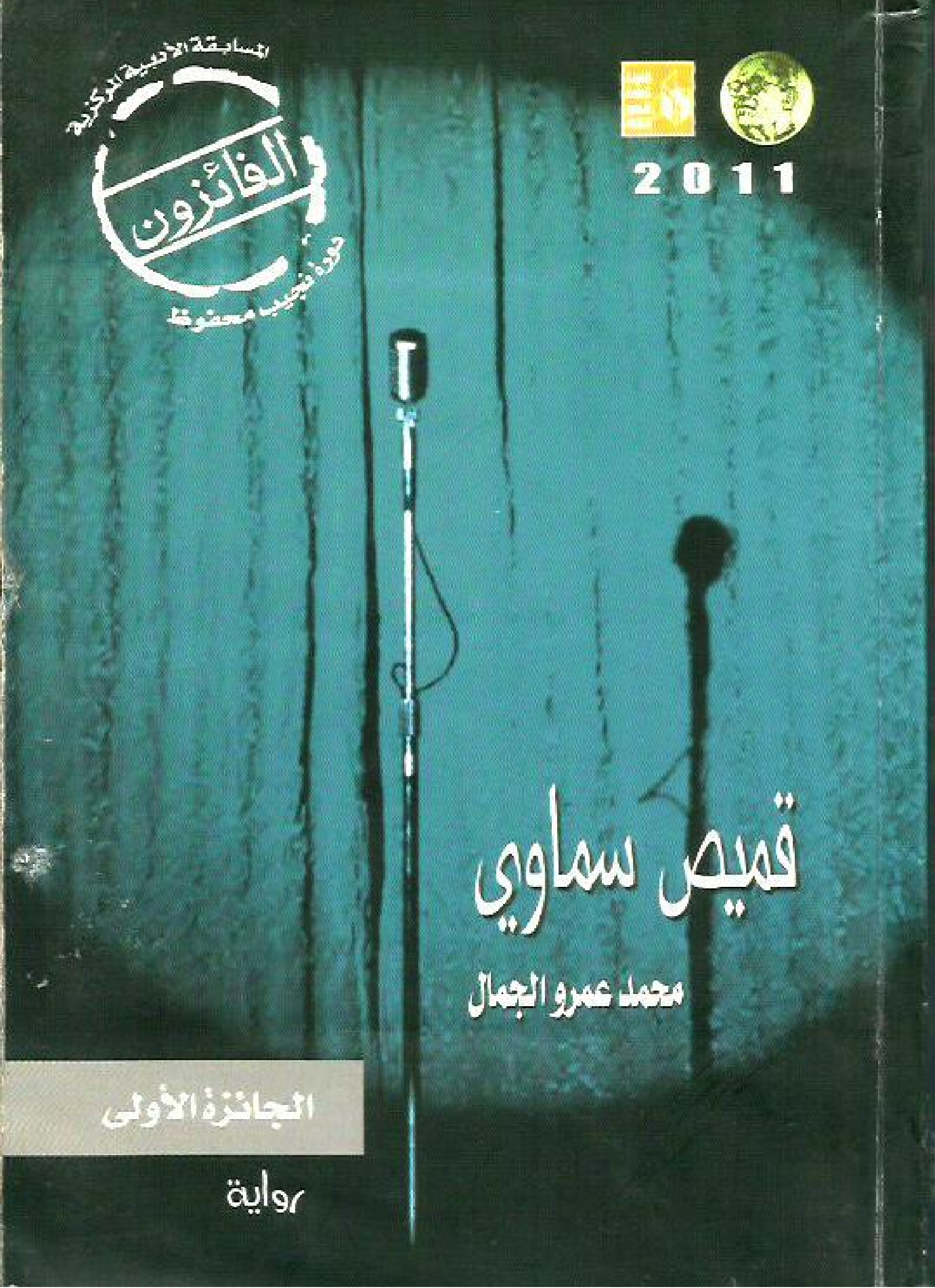
المسابقة الأدبية المركزية
الفائزون
دورة نجيب محفوظ
2011
قميص سماوي
محمد عمرو الجمال
الجائزة الأولى
رواية

قميص سماوى

رواية

محمد عمرو الجمال

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الفائزون

المسابقة الأدبية المركزية ٢٠١١م

(دورة نجيب محفوظ)

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

المؤلف: محمد عمرو الجمال

العمل: قميص سماوي

المركز: الجائزة الأولى

فرع: الرواية

• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور

• المراجعة اللغوية: سعيد شحاته
سعاد عبد الحليم

الطبعة الأولى ٢٠١١
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• رقم الإيداع: ١٢٤٠٧/ ٢٠١١

• الترقيم الدولي: 978-977-704-689-3

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

«فى كل صباحٍ يقف العندليبُ
على باب الحانةِ وينادى..
النبيذ.. النبيذ... النبيذ
الأحمرْ»

(عمر الخيام.. بتصرف)

الفصل الأول

اترك هذا القميص السماوى.

- أنا أحبه يا شيماء.

- ستقابل الدكتور مصطفى ورجالاً مهمين، البس البدلة الجديدة.

- مالك ساكت؟ هل تعرف عنوان الشركة؟

- اطمئنى، أنا أعرف شبين جيدا

بدلة وكرافت و(لاب توب)، شعر ناعم يلمع، عطر فاخر وسيارة (بى إم دبليو)، ترقية فى العمل. تُرى هل ستعرفنى شبين الكوم؟ جاءت الترقية بعد عناء خمس سنوات فى السعودية لم

أحصل فيها على أكثر من درجة (Senior Medical rep مندوب أول دعاية طبية) ، وهي درجة كان ليحصل عليها بلا عناء عيِّل في الخامسة والعشرين من عمره، ولكن لماذا أبكى على الوقت؟ يبكى على الوقت من كان يتوقع الأفضل. أما أنا فما وصلتُ إليه أفضل بكثير مما تطلعتُ إليه يوما بعد أن رفض رؤسائى ترقيتى لدرجة (سوبر فايزور) أصبح وضعى محرجا بالنسبة لهم؛ فهم فى حيرة شديدة بين رفتى بما يعنى التحدى المباشر للدكتور مصطفى - خال زوجتى- وبين ترقيتى، ما يجعلهم يضعون خاملا مثلى فى الواجهة. فكانت الترقية بمفازة منهم، وضعونى فى طائرة ثم رمونى من الشباك فسقطت فى شبين الكوم، شبين ثانية.

الدكتور مصطفى أوصانى بك، لكن الشغل شغل.

- شبين مدينة هادئة.
- أعرف.
- صدِّقنى لن تشفع لك هذه المرة قرابتك من الدكتور مصطفى.
- اطمئن، أنا أعرف شبين جيدا

أنا أعرفُ شبين جيدا؛ كل شبر، كل لافتة، كل مقهى، أعرف أين تباع البيرة والبانجو وأعرف المكتبات والجناين، أعرف الغجر بأسمائهم الحقيقية والطبالين، أين تفك البنات قمصانهن وأين

يقرأون لابن الفارض حتى الفجر، مواعيد القطارات وثمن التذكرة، محلات القماش، اللوكاندات الفقيرة، الورد فى مصنع الغزل والحب فى شارع الغزل، قصر الثقافة، الاسم الرباعى لكل طبيب وصيدلانى وحكايات عنهم وعن غيرهم. أعرف متى تبتسم شبين، شبين كانت تجمع لى عشائى فى ورقة جرنال لحين عودتى وأنا منهك من اللف فى شوارعها. أعرف أننى لست موهوبا فى أى شيء، ولا طويلا ولا وسيما ولا ذا أهل ولا ذا مال، لا أشارك أبداً فى نقل الأحداث ولا فى صنعها، لكنى جربت ما لا يخطر بوهم المغامرين وتعرَّت على يدى شريفات وغجريات لا يحلم أحدٌ بالتقرب منهن. فقط عليك الصمت وانذر لشبين عمرك وهى التى ستقشر اللوز وتصب الخمر لك، بل ومن أجلك تقتل، وصدقنى حين أقول تقتل، فأنا أعرف شبين جيدا كادت أن تقتل أم عصام صاحبة السكن؛ جن جنونها حين علمت من أخى أنه أصبح غير مسئول عن إجارتى، لأنه يربى بناته وحرام على فاسد مثلى، ضيع سنوات فى كلية العلوم، كل مليم يصرف عليه. لم تنتظر أم عصام لتسألنى ماذا أفعل، وضعت سماعة التليفون وفضتْ قفل حجرتى، وقفتْ هى وابناها على سلم البيت فى انتظارى. ضربونى وعبثوا بجسدى. أسْقَطَتها شبين مثل الجوال من على السلم الذى وقفت من فوقه تقول (ما اشوفش خلقة أمك تانى)، ولمّا تكسرت عظامها جاءنى عصام وأخوه يطلبان منى الصفح وعدت لحجرتى فى منزلهم فى البر الشرقى بعد النهر بل وقتلت شبين أخى عبد الملك، كنت وقتها

أعمل في محل (مانيفاتورة)، أذهب بعد العصر إلى محل الأستاذ عاطف الموظف بمحكمة شبين الكوم، وشيخ الفرقة القومية بثقافة شبين الكوم، أساعده في النظافة والجرد. الله يرحمه كان في غاية الشياكة والطيبة. كنا أنا وسناء نجلس في المحل لساعات وليس هناك زبون واحد، والأرفف كانت شبه خالية. أشارت علينا سناء أن نقف أمام المحل (بنصبةٍ) نعرض عليها العباءات الحريمي والقمصان كما هي الحال في شارع عمر أفندي. كنت مكسوفًا في البداية أن يراني أحد من زملائي ولكن سناء هي التي شجعتني، فوقفت أرفع صوتي بثمن العباءة في يدي وسناء تفعل، تنادي زبائن القمصان الرجالي وملابس الأطفال. أخذتني الجلالة وأنا أرفع يدي وصوتي بثمن العباءة الحريمي في تجاوب مع الموسيقى الداخلية لشارع عمر أفندي أو شارع السوق كما يسمونه الذين يعرفون شبين مثلي. صفعةٌ على قفاي، ذاك أخي عبد الملك (آدي اللي أنت فالح فيه يا بن الكلب) وظل، سامحه الله، يكيل لي اللطمات إلى أن برَقت عيني وصفرت أذني. اعتاد عبد الملك أن يضربني على وجهي، ما سبب لي رجفةً لا إرادية كلما رأيت أحدهم يرفع يديه، وكثيرا ما كان يسخر مني زملائي بسببها لماذا ضربني عبد الملك؟ كان قد عرض على خمسمائة جنيه نصيبي في مترين من بيت أمي لكني رفضت فأكله الغيظ واتصل بأم عصام، ثم جاء يضربني في السوق. أمسكه الأستاذ عاطف من طوق جلابيته وضربه في حنجرته (أما إنك ابن كلب ناقص، هو يا تسرقه يا تضربه، غور يا بن القحبة بدل ما تروح

على ظهرك) ثم شيعه بركلة في عجيزته، ولم تكتف شبين بذلك ؛ شبكت عباءته في باب القطار فظل يتشبث به، بينما القطار أمامه يسرع حتى فارق الرصيف وهو معلَّقٌ زاحف يستنجد الناس، ثم فرمه قطار (شبين الكوم- منوف) . جمعوا كومة من عظامه في العباءة وجاءوا بها إلي. في البداية كانت أم عصام تشعر بوخز الضمير لأنها طردتني لكنها بعد أن سمعت بحادثة عبد الملك باتت تشعر بالخوف، لا أذكر أني دفعت أجرة السكن بعد ذلك، بل على العكس كانوا يتحفونني كل حين بطبق كسكسي وملوخية وفطير بخميرة وعسل أسود. أحيانا كنت أسهر مع أم عصام أمام التليفزيون، وبرغم شيبتها كان ابنها الطالب في هندسة أسيوط يغار على أمه مني ؛ حين عاد ليلة الجمعة من أسيوط كانت هي تشخر على سريرها، وأنا كنت قد غلبني النعاس على كنبة الأنتريه القديمة، بفانلتي الحمالات وبنطلون (الترنج) ، كان ليقتلني لولا أم عصام بنظرة حازمة صرفته عني. أنا لم أكن ملاكا بحيث أعتبر كلامه إهانة لي، ففي ذلك الوقت كنت قد اقتربتُ من الثلاثين ولم أكنْ قد لمستُ أنثى إلا بالمواصلات وأمام المخابز، ولكن أم عصام كانت عجوزا عند السبعين تشخر وتضرط، ولم تكن تلك بدايةٌ معوضة. ربما كانت هناك بدايةٌ أشهى، فأنا أعرف شبين جيدا ؛ حين يقفز الفقير فوق تلَّة الثلاثين عاما تبحثُ له عن بداية، فقط عليك أن تمشي في الشوارع في عز الحر، جائعا تتوسل لجمالها الذي فر منه الجميع، تشربُ من أي (كولدير) يصادفك أو من قلل المطافئ

عند ميدان الشهداء، وهى التى ستأخذك من يدك وتقلبُ الدنيا من أجلك.

* * *

أنا وسناء فأران فى منزل فقير نأكل ما فاض إن فاض. والأستاذ عاطف يتركُ لى عن قصد علبة سجائر (بلمونت) بها خمس أو ست سجائر، ويترك لى نصف ساندويتش (حواوشى) و(٢٥) جنيها عصر كل جمعة. سناء كانت تأخذ المائة جنيه مصححة أول كلِ شهر ودستةَ أكواب أو قميص نوم أو (جونلة) من المحل تساعدُ فى جهازها، كان يحضنها كأب حنون ويبوس على رأسها، يلاكمنى هازلاً ويدور حولى مثل محمد على كلاى وأنا أضحك، لكن حين أتمكن من يده السخية كنت أبوس عليها، فيطلبُ لى كركديه ويطلب لنفسه يانسون وسناء تشرب (سبرايت). فكرة النصبة التى وضعناها خارج المحل كانت فكرة عال؛ عرَفَنا الناس وراجت الأحوال، كنت ألهف عشرة جنيهات كل ليلة وسناء خمسة عشر جنيها اقتربنا أكثر من بعضنا. أمستْ عادتى أن أمشى معها إلى محطة القطار يوميا، وعزمتها مرات على (كبدة) وقطعتُ لها التذكرة، وهى أهدتنى كشكول محاضرات عليه قلوبٌ كثيرة. نبهتُها ونحن ندخل البضاعة إلى المحل ألا ترقص وهى تنادى على البضاعة فى السوق، فغاظتنى وهزَّت صدرها ووسطها أحسن من سهير زكى، لم أملك نفسى فرفعتها عن الأرض أعضها وتعضنى.

* * *

كانت أياما، لم أشعر فى حياتى براحة البال إلا فى تلك الفترة؛ لبست القمصان الجديدة واحمر وجهى، كنت آكل وأعمل وأذاكر وأشرب من سناء يوميا، لم يكن ليعكر صفوى سوى تأخر صحة الأستاذ عاطف وذهوله عن الدنيا. لم يعد يأتى إلى المحل إلا فيما ندر، وأنا بعد أن تركب سناء القطار كنت أذهب إليه فى قصر الثقافة أو (مقهى السنترال) أسلِّمه مفاتيح المحل والفلوس، فيسحب لى منها عشرة جنيهات دون أن يحاسبنى أو يسألنى شيئا، تلازمه فى كل مكان نسخة من مسرحية (الحسين شهيدا) وأخرى (الحسين ثائرا) لعبد الرحمن الشرقاوى، لأنه كان يريد أن يخرج عملا لكلية الزراعة يجمع بين المسرحيتين. وهكذا مرَّت أيام، لكن شبين تكره الرتابة وأحب ما إليها أن تعبث بمصابيح الشوارع. فجأة تغيبت سناء ولم أرها بعد ذلك سوى مرة واحدة؛ تلك وأنا عائد بالصدفة من الكلية لأجد الأستاذ عاطف يبوس على رأسها بود أكثر من كل مرَّة فأسرعت إليها، لكن خبَّأت رأسها فى الأرض لَما رأتنى. قال الأستاذ عاطف (بارك لأختك) ثم انسحبت يشيعها الباعة فى (شارع عمر) بالدموع لفراقها والفرح لزفافها القريب، جمعتْ سناء كومةً من الهدايا من كل محل بما فيه، ذلك بالطبع غير الخمسمائة جنيه التى نفحها بها الأستاذ عاطف. ذهبت البركةُ وبقيت النصبةُ كالمقبرة فى عرض الطريق. الزبائن لا يستظرفوننى، والباعة فى الشارع كانوا بالكاد يسألوننى عن صحة الأستاذ عاطف. لَممنا النصبة وانكمشنا إلى داخل المحل، وغاض البحر بعد أن ذهب القمر

* * *

الأستاذ عاطف لم يكن ممثلا جيداً ودائماً ما كان يحاكى (عبد الله غيث)، لكنه شيخ الفرقة القومية وعميدها، أسس الكثير من الفرق المسرحية فى جامعة شبين الكوم. ظهر بعده من هم يفوقونه فى الموهبة وجاء أصحاب المدارس الجديدة من خريجى المعهد، لكنه ظل محتفظًا بمكانته بينهم كمؤسس للنوع. كان يلعب فى المسرحيات دور الجراند (الرجل كبير السن) كواحد من الأدوار الرئيسة ولم يهمش أبدا أهملنا المحل، واليوم كله كنا نقضيه بين كلية الزراعة وقصر الثقافة، وأنا معه كمخرج منفذ، أجمع الطلاب وألقنهم الحركة التى أحفظها عن ظهر قلب وأصحح اللغة إلى أن يستأذن هو من زملائه فى محكمة شبين ساعة أو ساعتين ليراجع ما تم إنجازه، ثم ينفذ أجزاء جديدة. وبالليل أنا معه أيضا فى الفرقة القومية، لكنى لم أكن ممثلا كبيرا مثله، إنما واحدٌ من أفراد الجوقة؛ نردد جملا جماعية تعليقا على الأحداث، ونقوم ببعض الحركات الاستعراضية، نمثل الملائكة والشياطين وعازف الربابة والنظَّارة، وكل ما يخدم الموضوع ولا يؤثر أبدا حذفه من العمل. أيام العروض فى قصر الثقافة كنت أتقاضى عشرة جنيهات عن الليلة الواحدة، ووعدنى الأستاذ عاطف بثلث أجره كمخرج فى كلية الزراعة. بعض الطلاب كان ينظر إلى وكأننى (يعقوب صنوع) مؤسس المسرح المصرى ويلازموننى، يلقبوننى بالأستاذ ويمتد بنا الحديث عن المسرح واتجاهاته إلى مطعم (المشد) فى الحى القبلى، والشاى فى (نادى الموظفين)، وبعضهم كان يتحمس للفن أكثر فيصر على

أن أبيت عنده لنتابع تحسين الأداء والنطق. حين علم الأستاذ عاطف بذلك قال لى (العيال غلابة، لا تقس عليهم فى التدريب) فامتنعت عن الأكل على حسابهم، ولكنى كنت أبيت معهم منذ أن اختفت أم عصام ووضعت على المنزل لافتة للبيع. سمعت أنها اشترت منزلاً فى برج العرب أو العجمى، تسكن فى الطابق السفلى وتؤجر باقى البيت بالغرفة.

إظلامٌ تام فوق خشبة المسرح إلا من بقعة ضوئية سُلِّطت عليه. الحلاج يفسر الهوى بالهوى والمعلوم بالغيب. حلاج طهر نفسه من الرسوم وطرح صوفته. ساحة عشقه شوكٌ ومشقة وأحبابُه هم جلادوه، ينظر إلى بغداد وناسها فى وضوء أخير هنا يتلاشى البرزخ بين العذب والمالح، العافية والسقم، ونحن وقوف فى صالة المسرح كتماثيل من ماء، إذا نظرت من صدرى ترى الواقف خلفى. ارتفعنا فوق مستوى اللحظة فلا إيهام ولا حقيقة، ولا حلاج ولا الأستاذ عاطف. كان مختلفا عن نفسه شديد الالتصاق بروحه، لأول مرة لم ألمح ظل ممثل آخر فى انفعالاته، ولكن كان يمثل الحلاج كما كان الأستاذ عاطف يمشى فى الأسواق ويداعب الجميع ويحنو ويغضب. أنهى (منولوجه) بطريقة كلاسيكية تنتهى بالسقوط على الأرض بعد تكرار الجملة ثلاث مرات. اشتعلت صالة المسرح بالتصفيق وقام (عبد الرحمن أبو زهرة)، وهو أحد أعضاء لجنة تحكيم كانت تتشكل منه و(فردوس عبد الحميد) و(د. أحمد

حلاوة)، بتصوير المشهد الأخير بكاميرته الشخصية. لكن حين أمسكوا بيد الحلاج لتحية جمهوره. كان قد مات.

* * *

بعد أن مات الأستاذ عاطف وجدت نفسى مركزاً لتساؤلات كثيرة، لماذا لا يعود هذا الولد لقريته التى جاء منها؟ خاصة وفنانو قصر الثقافة لم يعتبرونى أبدا واحدا منهم حتى برغم حضورى الكثيف فى ظل الرجل الطيب، واختاروا لى لقبا يدعوننى به (خشبة الجوقة)، ذلك يعنى أننى بلا موهبة، كان فى مقدورى أن أجيب على تساؤلاتهم بهدوء أننى لن أترك هذه المدينة التى أحبها ولن أترك قصر الثقافة حتى وإن بقيت أردد جملا تافهة مع الجوقة، كنت صغيرا على هذه البساطة، وبدلاً من ذلك أرهقت نفسى بالبحث عن شيء أبرع فيه ليبرر وجودى بينهم، فشبين كما عرفتها كانت تحتفى بالموهوبين، وأنا كانت عينى على ذلك. تلك المحنة البادية على هى ما جعلت أخرين يستخدمون محنتى لصالحهم، لأخرج بعد كل تجربة وأنا عارٍ من الصفات التى ألصقوها بى ومنهكٌ لحد بعيد. حوّلتُ أوراقى من قسم الرياضيات البحتة إلى قسم الكيمياء، فالأخير يستوعب الموهوبين وغيرهم، ولم أحصل على تقدير أعلى من المقبول فى المواد التى حفظتها كما أحفظ ملامح وجهى ورائحة قمصانى وطرقات شبين الكوم. أنا أحفظ أشياء كثيرة منذ صغرى؛ القرآن حفظته وأنا صغير، ولكن حتى الآن أقرأ القرآن بالإمالة التى كان يفضِّلها شيخى (مصطفى المرص) ولم أتقن

سواها. حين مات كنت أقرأ في بيوت القرية لأذكرهم به ولم أرتق أبداً لأن أذكرهم بالله. حفظت معلقات الشعر العربي وألفيات النحو حين كان أخي عبد الملك طالبا في كلية دار العلوم يستظهر أبياتا منها، ظل هو يحاول حفظها لأسابيع، بينما كنت أغني بما لا يحفظه لأغيظه. حين أتيتُ إلى شبين الكوم وجدت عينيّ تلتهمها التهاما؛ أحفظ أدق التفاصيل من شوارعها وبيوتها والمحلات والمستشفيات وعادات الناس، وأعرف أنني إذا ذهبت الآن لأتمشى في شارع الغزل لوجدت الكافور مبتلا على الجانبين وغدائر بمحاذاة الرصيفين يتحاشاها المحبون وأستعذب أنا الوقوف عندها كل هذا الحفظ لم يخرج شيئا مهما ولا مختلفا، والأستاذ عاطف، رحمة الله عليه، كان يعرف عني ذلك فلم يحملني أكثر مما أطيق؛ هو وسناء يبتكران وأنا أحاكي، هو يصمم الحركة وأنا أحفظها وألقنها، لذلك حين سقط على المسرح كان أول شيء فعلته أن تحسستُ مفاتيح المحل في جيبي وذهبت لأسرق نسخ المسرحيات التي وضع لها خطة الحركة، سرقتها من رف البوفيه الصغير الذي كان يضع فوقه التليفزيون.

الفصل الثانى

كنا جلوسا فى حجرة (الصالون) أنا وشيماء زوجتى، فى ضيافتنا أبى وأمى وأخى عبد الملك. وضعت شيماء أمامهم فاكهة كثيرة لكنهم لا يأكلون. مدت أمي يدها تفتش بين البرتقال عن واحدة صغيرة، فلما وجدتها لفتها فى منديل وقرأت عليها قُرآنًا فاستحالت البرتقالة إلى رضيع جميل الوجه خدوده حمراء، ناولَتْه لأبى فضحك الرضيع ولأخي فضحك. مدت شيماء يدها فى لهفة تحمله فإذا بالرضيع البرتقالة يصبح بين يديها غرابا شديد السواد وضعوه على الطاولة فظل يبكى ويبكى. فتحت عينى من الكابوس لكن صوت البكاء ظل يدور حول رأسى. فى نصف يقظة تحسستُ موضع شيماء إلى جانبى فلم أجدها وكنت قد بدأت أعى مصدر البكاء. الصوت كان لطفل يقرأ من سورة ياسين ويبكى فى قوله يا

حسرة على العباد ، الولد مصرى لكنه كان يحاكى شيوخ السعودية ويحزق مثلهم. أطفأتُ الكاسيت ونزعتُ فيشته بعصبية.

- صاحى متأخر

- الساعة السادسة والنصف صباحا!

- لم تُصل الفجر مثل الناس الطيبين.

أدارت الغسالة ثم عادت ونزعت السيجارة من بين أصابعى وأطفأتْها بدأت شيماء الصباح كعادتها فى سرد مشاريعنا لليوم بطريقة سريعة كأننا دائما متفقون على كل شيء، أو بالأحرى أن موافقتى لن تحرك ساكنا فى إعراب الجمل الكثيرة التى تمضغها بلا توقف، وبنفس الطريقة أخبرتنى أن خالها، الدكتور مصطفى، ينوى زيارتنا اليوم وشرعت تخلع عنى ملابسى كالطفل وأنا لم أخرج تماما من سلطة النوم، فقلت وأنا أخلص ذراعى من كمى البيجامة

- هو قال احتمال.

- لا، هو أكد على، سنذهب لدكتور (عقم) شاطر فى الإسكندرية.

ستظل شيماء تتردد على دكاترة العقم برغم ما أخبروها كثيرا أنه لا فائدة من رحمها، نظرتُ إليها بحقد ثم بشفقة على حالنا ثم بيأس فبكت وبكت حتى تغير طعم الصباح فى حلقى، كانت تريد أن تعيد على حكايات عن ناس تعرفهم أنجبوا رغم يأس الأطباء من حالاتهم، لكننى أغلقت باب الحمام دونها وأشعلت سيجارة جديدة. حين انتهيت من ارتداء ملابسى وجدتُها جالسة أمام

التليفزيون فى حجرة نومنا، ورأيت الشيخ محمد حسان على قناة الرحمة يدعو الله ويبكى وزوجتى تُأَمِّن من ورائه وتبكى.

- أنا خارج.

شاهد معى البرنامج ستبكى من قلبك.

ما كل هذا البكاء قلبى تحمل غيمةً ثقيلةً فى أول النهار وضعت الشريط فى كاسيت السيارة فوجدت فيروز تسأل بود حقيقى "كيفك إنت

*

بمجرد أن نزلت من سيارتى أحسست بنعومة الثامنة صباحا تمسح وجهى كأنها يد امرأة تعرف كل شىء عن رجُلها، فعاد ذلك على بنزق غريب. أجمل البنات فى هندسة شبين الكوم، وكم من ساعات قضيتها وأنا أقشرهن بعينى كاللوزات وأحفظ تفاصيلهن مع شاى الثامنة صباحا عيون جميلة تحتفظ بأسرارها خلف نظارات طبية رقيقة الإطار، جيبات قصيرة، تايرات محتشمة، بلوزات تكشف الصدر، يتحركن بخفة وجمال أمام مبنى الكلية ما بين ماكينات النسخ والكافيتريات فى بهجة من صنعهن. كل هذه المكونات تصنع عطر الثامنة صباحا من فبراير أمام هندسة شبين الكوم. وضعتُ نظارتى الريبان على وجهى وعبرت الشارع إلى المكتبة المُتَاخمة لمبنى المدينة الجامعية

* * *

خالد علام هو واحد من أهم كتاب القصة القصيرة والرواية، وثائقى ممتاز، أنموذج صارخ لعدم الانتظام فى أى سلك (اجتماعيٍ، سياسى أو فنى) يُقْدم على كل الأشياء، يحبها ويزهدها ثم يبكى عليها كان شيوعيا طالبا وصحافيا ومدرسا، عضوا ناشطًا فى جماعة الإخوان المسلمين. كتب أكثر من خمس روايات لم تُنشر، ومجموعات قصصية لم تُبيض أصلا، كان يقرأها علينا من أوراقه المكتوبة بخط غاية فى الرداءة، والمملوءة بشخبطات لا يفك شفرتها إلا هو له بين كل عمل والذى يليه مباشرة طفرة عصيَّة على الإدراك، أسلوب فنى مغاير تماما عن عمله الأخير، وكُفْر بكل قناعته السابقة. من المعروف بين فئة الكتاب والشعراء أن الروائى يحتاج أكثر من الشاعر إلى الاستقرار والزوجة وساعات ثابتة كل يوم للقراءة والكتابة، لكنه طوح بهذه النظرية ووضعها على الرصيف حيث يقرأ ويبيع الكتب التى قرأها، وفى الليل كان يعيد مكتبته إلى الحجرة التى استأجرها ثم يأتى إلى قصر الثقافة حاملا أورقًا نسخها من جرائد كثيرة، هى بمثابة دراسات مختلفة عن واحد من كتاب أمريكا اللاتينية أو شاعر عربى أو مبحث تاريخى هام. ثمن المُذَكرة فى أول الليل جنيه وهى بالأجل أو بالمجان آخر الليل لمن لا يحتكم على الجنيه. كان ذلك فيما مضى أما الآن فهو يستأجر هذه المكتبة بجوار كلية الهندسة، هل سيعرفنى بعد هذه السنين التى غيرت فى شكلى وشكله؟ أحيانا أحس أن الزمن فى شبين قماشة بيضاء بحيث لا تبدو خمس سنوات فيها زمنا، أو تبدو كأنها عمر

طويل، ذلك لأن الذين يصنعون الأحداث هنا متشابهون لحدٍّ مربك، وأحيانا أسأل نفسى، مثلا، ما الفرق بين الأستاذ عاطف، رحمه الله، وبين الأستاذ هاشم العدوى، أو ما الفرق بين سليم الطبال وعادل المصرى أو بين غادة وجنيّة؟ صدقونى أى موجة عاتية لن تصنع من شبين إلا شبين أخرى مماثلة تماما وقفتُ أمام المكتبة ورأيته يسحب من ماكينة النسخ ورقة مكرمشة، ثم نزع الحبَّارة من مكانها وأخرج الجزء الذى انحشر من الورقة بين التروس، حاول أن يضع ورقة أخرى فكانت نفس النتيجة. ضرب خالد الماكينة بعصبية ثم طلب من الفتاة التى تعمل معه أن تأخذ الورق لتنسخه على الماكينة الأخرى. اسمها صباح، تناولت الكتيب بلا كلام ووضعته فوق أوراق أخرى حتى تنتهى من نسخ البطاقة الشخصية لأمين شرطة وقف أمامها يبتسم.صباح كانت سمراء وكانت مصرَّة أن تبدو غير مهتمة بما يقوله الأمين، ثم ناولته أوراقه بابتسامة محبطة. كان خالد لا يزال منكفئا على الماكينة يحاول إصلاحها فقلت لأجعله ينتبه

- ست سجائر لو سمحت.

نظر خالد إلى البدلة الأنيقة وعلبة السجائر الأجنبية فى يدى فشك المسكين فى سمعه هو

ماذا طلبت حضرتك؟

أعدت عليه طلبى بصوت أعلى فارتبك وفتش فى جيوبه عن علبة السجائر، ثم ناولنى ما طلبتُ.

- ولو أننى لا أبيع السجائر، هذه مكتبة.

أخذت منك قبل ذلك، هل أنا كذاب؟

لا سمح الله. هل أعرفك؟ أعنى صوتك..

أنزلت النظارة من على وجهى وابتسمت له بود، فتفحص وجهى بجدية سرعان ما أذابتها ابتسامته الطيبة ثم صرخ قائلا

- هو أنت. يا بن الكلب.

* *

استقبلنى مندوب من شركة (جلاسكو) فى مطار (جدة)، وركبت معه سيارة كنت لا أعرف نوعها حينئذ، ولكنها فخمة بما يكفى لجعل غلبان مثلى ينكمش فى مقعدها الخلفى بلا حراك. خفت من كل شيء، الشوارع الواسعة، البيوت المتباعدة، المولات الضخمة، الشمس فى جدة قاسية لأبعد الحدود فهى لا تسمح لك بالسير أكثر من أمتار معدودة ما بين باب سيارتك والمكان الذى تقصده لتحتمى منها فى المكيفات. وأنا فى الطائرة فكرتُ أن أتمشى يومين فى (جدة) لأكسر حاجز الغربة وأحاول أن أستغل موهبتى فى حفظ التفاصيل، قلت فى نفسى سأتعرف على المصريين فى المقاهى وعلى الشواطئ، لكن شمس جدة يا خالد تلسع الغريب والقريب، والمصريون على الشواطئ آخر ما يرغبون فيه التعرف على مصرى آخر أخذونا يا مبجل إلى فندق (نوفامبيك) وهو أفخم من (شيراتون القاهرة)، قضينا فيه أسبوعا للتدريب. بعد انتهاء فترة التدريب مثلنا مسرحية صغيرة شخصنا فيها أدوار أطباء

ومندوبين دعاية. بعد ذلك خيروا المتميزين منّا فى العمل فى أى منطقة نشاء داخل المملكة، وقالوا لى عن مدينة صغيرة وهادئة اسمها (تبوك)، أكثر ما تشبه شبين الكوم، فأخذت الكلمة من على لسان قائلها وتعلقتُ بها، فذهبت إلى هناك. خمس سنوات وعدت منها على الحال الذى ترى عليه أخاك. دعك منى، أنت ما أخبارك "كيفك إنت؟"

- لا جديد.

- لكن المكتبة، ما شاء الله، شغالة.

- إيجارها ألف جنيه فى الشهر، وأنا مديون بأكثر من نصف ما فيها، علاوة على إجازة الصيف المنطقة هنا تمسى صحراء. أحتاج لماكينات نسخ جديدة وكمبيوتر وطابعة، يااه موال.

سألته عن زوجته وعياله فسكت، وغمزت بعينى ناحية صباح فأمسك على يدى لأقفل الموضوع. لا شيء يتغير فى شبين، على العموم إن كنت تريد أية مساعدة فأنا أخوك. عاد خالد يتطلع لهيئتى الجديدة وابتسم لذاكرته، فلمحت فى فضاء ابتسامته شعرا خشنا وقميصا منسولاً من كثرة ما ارتديته بينهم أيام صعلكتى فى شبين، فبعفوية تحسست بذلتى وشعرى ثم أنهيت الموقف بحسم تعلمته.

- على العموم سنلتقى كثيراً

ربنا يسهِّل.

رن هاتفى المحمول فتحدثت فى تصنع لم يخف عليه، لكنى كنت أعنى ما أقول فى الهاتف للشاب الذى سألنى عن المكان الذى

سيلتقى فيه فريق العمل، فقلت له (مقهى السنترال). كان من الطبيعى أن يلتقى أمثالنا فى الأماكن الهادئة التى تتمتع بخصوصية، مثل نادى الغزل أو نادى التجارة أو كافتيريا نقابة الأطباء، لكنى أكَّدت حين أعاد السؤال.. مقهى السنترال.

* * *

قلت شيئا وسكت عن شيء، فعرف شيئا وأنكر شيئا قال سبحان من أعطى بلا مناسبة فقلت سبحان من جعل لكل شيء سببه. لم أخبره أننى تزوجت من أرملة تكبرنى بسنوات، سقطت فى كفَّى وأنا أدعو الله أن آكل ولا أجوع وأن ألبس فلا أعرى. عرفت منها فى الأيام القليلة التى سبقت الزواج أنها كانت متزوجة من مهندس أقل مقارنة بينه وبينى تجعل من الصعب عليها الرضا بى كزوج من بعده. أول كلمة قالتها عنه إنه من نسل النبى (ص) من ابنته فاطمة وعلى رضى الله عنهما، وأخرجت ورقة مطوية من حقيبة يدها بها شجرة فى أصلها نبى الله تتفرع عن الحسين إلى أن يمتد نور النسب الطاهر إلى صاحبها ثم أخرجت (كارنيه) نقابة الأشراف. كان وجه صاحبها كالقمر بعيون واسعة وشعر بنى ناعم وشارب، ذَكَّرتنى صورته بكمال الشناوى فى الأفلام القديمة، قلت لها ذلك فقالت إنه أجمل ولم أعرف ما الذى جعلنى أنتظر تحدثت عن رجولته وكيف تحدى أباه عضو مجلس الشعب، وأعمامه الأشراف، وإخوته الضباط ووكلاء النائب العام والأطباء حين تيقنوا من عقمها؛ قالت فى (لندن) أجرينا فحوصات لا حصر لها،

فسألتُها إن كانت تعنى (لندن) فلم تلتفت لسؤالى وتابعت. بعد أن تيقن من عقمها مزَّق الأوراق التى كلفته آلاف الجنيهات، احتضنها وهى تبكى ثم قرأ عليها من سورة مريم "قال ربى أَنَى يكون لى غلامٌ وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغتُ من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبلُ ولم تك شيئا ردتت معها الآيات الكريمة وأضفت أننى أحفظ القرآن عن ظهر قلب فلم تنتبه، قالت فى لندن قضينا شهر عسل جديد رأيت فيه حلاوة الدنيا وهو يضع ذراعه الفتية على كتفى وأنا ألف ذراعى على خاصرته. كانت تحكى وهى فى حال من النشوى جعلها من حين لأخر تقف وتشخص أحْدَاثًا بينهما، وأنا أتلصص إلى قوامها وأقول فى سرى (لا بأس لا بأس). كنت أيامها أعانى ارتباكا فى بطنى وخشيتُ أن تخوننى أمعائى أمامها فمشيت إلى الشباك أفتحه متعللا بالحر المسكينة كانت تعيش فى ذاكرتها أكثر ما تعيش فى الواقع، وكانت تتحدث عن زوجها الراحل كمن تنتظر عودته من الشغل بعد ساعة، فلما دخلت الشمس من الشباك صرخت وتشنجت على الكرسى، دخلت أم عصام وفى يدها صينية عليها عصير برتقال وكعك، فرأتنى إلى جانب الشباك وشيماء شبه ميتة على الكرسى، فسألتنى بفزع حقيقى.

ماذا فعلت؟

جعلت ترُش على وجهها الماء إلى أن أفاقت ونطقت باسمه رغم ذلك وقَّعت على عقد القِران وشيكات كثيرة، وعقد عمل فى

فرع السعودية لواحدة من أكبر شركات الأدوية فى العالم. خال شيماء(د. مصطفى)، يشغل منصبا كبيرا فيها طبعا لم نقم زفافًا وقتها لأن حالة شيماء كانت غير مضمونة، وأكدت عليَّ أم عصام أن لا أدعو أحدًا من الجرابيع زملائى من قصر الثقافة. ظلت شيماء ساكنة إلى أن انفردنا فى حجرة النوم من نفس الشقة التى كنت أشغل حجرة منها وأنا طالب، تم تجهيزها على نحو جيد لقضاء أسابيع العسل التى تسبق السفر حين اقتربت منها كما يدنو الزوج ونفخت فى رقبتها، التفتت إلى مذعورةً وجعلت تصرخ (قرد. قرد) لَفُّوها فى بطانية وأخذوها من فراشى إلى حيث لم أعلم، ومكثت وحدى أمضغ لحم الزفاف باردا نعم يا خالد لم أخبرك سوى نصف الحقيقة فلو علمت نصفها الذى ظل معى لدُسْت على صدغى بنعلك حتى ألفظ أنفاسى وأستريح من ضميرى المزعج. هل تذكر العقيد (فهد الكاشف) الذى كنت تراهن على أنه سيترك جهاز الشرطة ذات يوم ليتفرغ لكتابة القصة، أنت من عرَّفتنا به ثم انسحبت وحدك دون أن تنبهنا لشىء.

- مبروك يا عريس

كيف عرفت؟

- أنت نسيت أنا مين؟

أخرج من درج مكتبه ملفا به أوراق تخصنى، أولها شهادة فيروس (سى) مختومة من معامل الصحة المركزية، الشهادة تفيد أن المذكور مصاب بالفيروس (Clear + ve) موجب واضح. الورقة

الثانية، إيصال أمانة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه وعليه توقيع يشبه توقيعى، الورقة الثالثة صورة بلاغ مقدم من الآنسة / سلوى إبراهيم قطب، بأننى حاولت التحرش بها فى سوق سيدى خميس فى حضور الشهود

١- شعبان خليل السيد.

٢- أحمد أبو الفتح سلمان.

٣- سامح محمود الحصرى.

كل ورقة من الثلاث تمنعنى من السفر إلى أن يثبت العكس، وأنت لا تعلم يا خالد، كان لا بد أن أسافر، شبين كانت قد طردتنى بالفعل سقطت من طولى على الكرسى وتوجهت إليه بعيون غائمة متوسلة.

- لماذا يا باشا؟

- تفعل ما آمرك به.

وحين أخبرنى بما يريد حاولت أن أراوغ، أن أفقد الوعى، حاولت أن أموت لكنهم لم يتركونى لشىء من ذلك. قلت له إنكم أصدقاء عمرى وإن شبين لن تسامحنى، صدقنى يا باشا أنا أعرف شبين جيدا إنها لا تغفر الخيانة. قبيل سفرى بساعات قليلة كنت أركب معهم البوكس وأشير إلى البيوت التى تختبئون فيها، لن أنسى ما حييت صورتك يا خالد وأنت تفر من أمين الشرطة والخبز يساقط من يديك، لن أنسى. سافرت بعد ذلك بساعات، قضيتم أنتم أسبوعا قصيرا فى الحبس، ولو تعلمون. لقد قضيت بعدها أسابيع فى جهنم.

الفصل الثالث

تركنى الأستاذ عاطف مساء فأصبحت بلا عمل ولا مأوى. وجاء ابناه إلى المحل يجردانه بعد أيام من دفنه، فجعلا ينظران باستنقاص إلى البضاعة، وبشك مفضوح يحاسبانى على الفتيل والقطمير، كنت أسمعهما منفردين أمام المحل يتهمانى باستغلال فترة مرضه، فيقول أصغرهما وهو ينفخ (المال السايب يعلِّم السرقة) ويقول الأكبر (أبوك كان رجلا طيبا الله يرحمه) قطعت عليهما خلوتهما وألقيت بمفاتيح المحل فى صينية الشاى أمامهما فرَنَّت. كنت أريد أن أوبخهما، كنت أريد أن أحرقهما وكنت أريد أن آكل وكنت أريد أن أنام. بعد انتهاء بروفة الفرقة القومية مشيتُ أنا و(محمد الحفنى)، طالب كلية التربية والممثل الموهوب، هو أيضا من عشاق شبين الكوم؛ فبرغم أن ثمة قطاراً يتحرك من شبين فى

العاشرة مساء متوجها إلى (أشمون) بلده الأصلى، كان لا يركبه ويفضل المشى ليلا فى شوارع شبين، والمبيت كيفما اتفق. اشترى طعمية وسلطة وكيسى عصير قصب من (قبلى شبين)، وجلسنا نأكل فى الحديقة التى تتوسط ميدان عمر أفندى، ثم عبرنا الشارع لنشرب الشاى فى (مقهى اللواء) حين جلسنا كان لا يزال يتحدث عن انقسام أعضاء الفرقة القومية على أنفسهم. كان رأفت الشيات قد تقدم إلى الهيئة العامة لقصور الثقافة بطلب اعتماده كمخرج؛ بعد أن حصل عرضه على المركز الثالث فى مهرجان نوادى المسرح، ولقد تمت الموافقة على طلبه. اعتبر جيل الكبار، أمثال الأستاذ هاشم العدوى والأستاذ حمدى حافظ، ذلك تطاولاً وبعضهم رأى أن رأفت ممثل موهوب أكثر منه مخرجا ولا داعى للعجلة، خاصة أن طريقته فى الإخراج لم تخرج عن عباءة أستاذه هاشم العدوى، فلقد اعتمد نفس الطريقة فى توزيع الممثلين وتحريكهم على خشبة المسرح. أما الجيل الثانى من أقران رأفت فوجدوها شجاعة يحسد عليها وطمع كل منهم فى لقب (مخرج معتمد) خاصة أن الأمر لم يكن يخلو من فائدة، فالمخرج المعتمد يتعاقد سنويا مع وزارة الثقافة لإخراج عرض مسرحى فى أحد بيوت الثقافة المهمشة فى قرى ومراكز محافظة المنوفية، فالموضوع يخص الفلوس عند بعضهم أكثر مما يعنى بالفن. أما نحن تلاميذ التلاميذ كنا ننتظر ونتحدث عنهم على المقاهى. رحت فى غفوة من التعب أيقظنى منها محمد الحفنى وهو يدير الملعقة فى كوب الشاى

(هتبات فين الليلة ؟) هزرت له كتفى بمعنى لا أعلم فقال اشرب الشاى وسأتدبر أنا مكانا

عبرنا كوبرى عمر أفندى إلى ميدان جلهوم ثم دخلنا حارات البر الشرقى الضيقة إلى أن وصلنا إلى منزل الأستاذ (فوزى نصار) الإدارى فى ثقافة شبين الكوم. كان يعيش فى الطابق الثانى ويؤجر باقى منزله للمغتربين من الطلاب وأخرين لا يجدون سكنا نقر حفنى على شباك حجرة فى الطابق السفلى، وبعد نقرتين لمحنا من خلف الشباك نور الحجرة يطفأ، فقال لى حفنى (أنت سيئ الحظ). خرج لنا سليم الطبال وكانت تلك هى المرة الأولى التى أراه فيها، لكننى كنت قد سمعت عن مغامراته فى عالم النساء شيئا كثيرا؛ كان حليقا أكرت الشعر نحيفا كالمسلول، وفى صدغه ثلمة خلّفتها فى وجهه مغامرةٌ قديمة، الغريب أنه لم يبد لى دميما رغم ذلك الشق الجائر فى وجهه، بل على العكس وجدتُه وسيما حين يبتسم، كان يلبس جاكت بدلة (سيلفر) وبنطلون جينز أسود ويضع عطرا رخيصا سلَّم علينا وسب لحفنى، علمت بعد ذلك من عشرتى معه أن هذه طريقته فى الترحاب بالمقربين. لم ندخل حجرته لأن سليم كان فى طريقه لواحدة من تلك السهرات، وكان ليأخذنا معه لولا أنه لم يكن يعرفنى بعد. قبل أن ينصرف وضع حفنى يده بعشم فى جيب الجاكت الفضى الذى يلبسه سليم وأخرج من علبة السجائر سيجارتين مبطرختين عامرتين بالحشيشة ثم شيعه حفنى بسبه واتفقا على اللقاء من غدهما. سمعت فى طريق عودتنا أن سليم يعمل

طبالاً خلف راقصة من طنطا، يتحصل على مائة جنيه في الليلة لكنه غالبا ما يعجز عن دفع أجرة السكن لمصاريفه الزائدة في اللبس والبيرة والحشيشة. حين يعود إلى حجرته وجه الفجر ينتظره صاحب السكن ليطالبه بالإيجار المتأخر، فيغلبه سليم بصوته العالي ولسانه الزِّفر فيحتشم منه الرجل ويهرب إلى شقته قبل الفضيحة، يدخل سليم حجرته وعلى لسانه بقايا سباب ثم ينام إلى العصر، فإما زفاف بعدها أو سهرة ينفق فيها كل ما كسبه، ولكنه سخي ولا يبخل برقبته على أصدقائه. استندنا من التعب إلى رخام كوبري عمر، وخلال ما كان حفني يبحث في رأسه عن مكان نبيتُ فيه ظَلَّ يحدثني عن حلمه بالالتحاق بمعهد الفنون المسرحية بعد البكالوريوس ثم يطير بخياله إلى إيطاليا، كل أبناء عمومته سافروا إلى إيطاليا وهو ينتظر تأشيرة أو دعوة زيارة إلى واحد منهم. أخرج سيجارة من جيبه فأمسكت على يده قبل أن يشعلها وانتقلنا لنختبئ من البرد في واحدة من الأرائك المسقوفة في ميدان عمر أفندي. لعبت الحشيشة بدماغه فقرر حفني أن يدمج الحلمين معا، أن يسافر إلى إيطاليا يعمل هناك ويدرس المسرح في نفس الوقت. ياقة القميص كانت لا تغطي أذني من هواء منتصف الليل فجلست منكمشا على نفسي أتتبع الدخان بعينين مواربتين يطير إلى إيطاليا، أما أنا فلم يكن عندي حلم يحمله دخان الحشيشة إلى أي مكان، فقط لو تمددت على سرير في حجرة صغيرة حيطانها سماوية اللون وبها تليفزيون صغير وبوتاجاز واحد الشعلة، معلَّق على

حائط منها قميص نظيف وبنطلون نظيف وبلوفر صوف لزوم الشتاء. أطفأ حفنى السيجارة فخرجت للعراء، وسرت من خلفه مسطولاً من التعب وهو يرفع صوته بقصيدة لطاهر البربرى

وكنت أقول يا شبين كونى قبلة لنبى رشته امرأة العصيان

ثم أضاف فى سطَله (الدكتور طاهر يسمى المسرح العلبة الإيطالية، وأنا أريد أن أكون عفريت العلبة الإيطالية). ثم ضحك وسمعت ليل شبين معه يضحك كأنه كان مسطولاً هو الأخر دفع حفنى بيده بوابة مبنى قديمٍ، تقف على بوابتة لمبة صفراء لتضىء كتابة باهتة (لوكاندة عمر أفندى)، ثم أخذ بيدى وصعدنا متسللَين إلى حجرة واسعة خرِبة، بها أسرة متهالكة عليها فراش يخرج منه القطن أسود قديم، وبُقع صفراء لسوائل تشربتها المراتب منذ زمن. لم أعِ ذلك إلا فى الصباح لأننى أول ما دخلت مع حفنى سقطت على سرير منها دون أن أخلع حذائى. فى الصباح أيقظنى نباح كثير ففركت عينى وشاهدت العجب؛ ستة من الخرس يتشاورون ويتنابحون فى جلبة لم أعاينها من قبل، كان صدرى مكتوما من سجائر الأمس وأكثر من غبار القطن الذى دفنت فيه وجهى الليلة الفائتة فسعلت بشدة. حين أحسوا بيقظتى وتغبى أعادونى إلى السرير فجلست ألهث وحلقى متربا كأننى تعشَّيت بقماشة وسخة. جلس الخُرس ينظرون نحوى ثم يتساءلون بطريقتهم إن كان أى منهم يعرفنى - هذا ما خمنته لأنهم كانوا يعودون بأحداقهم ناحيتى ثم يهز كل منهم كتفيه ويعوى. طوقونى بأعينهم ساعة ثم

التفت خمسةٌ منهم إلى سادسهم الذى بدا لى أوجههم وتلمحت فيه رزانة القائد، تناول هو كيسا بلاستيكيا أبيض وأخرج منه إصبع عسلية محشواً بجوزة الهند ناولنيه فرددتُ يده فى خجل لكنه أصر، فأكلت منها حتى هدأ صدرى، بعد ذلك مدَّ سبابته إلى صدرى ثم عاد بها ولفَّ كفيه فى الهواء، ففهمت من إشارته البسيطة أنه يريد التعارف، لا بد أنهم مستأجرو الحجرة وحفنى ورطنى معهم ثم تركنى، أين ذهب حفنى الكلب؟ بعد قليل عاد حفنى من الحمام يغنى وعلى كتفيه منشفة لا أعرف من أين جاء بها، حين رأوه قاموا مسرعين يصافحونه بود يشى بمعرفة قديمة، وهو كان يضحك ويربت على رؤوسهم وينغزُ الواحد منهم فى خصره ليقفز من الضحك، ثم جلس بينهم على السرير وأشار ناحيتى، لصق سبابة الكف الأيمن لسبابة الأيسر وضمَّ كلتا كفيه إلى قلبه فقاموا كلهم يرحبون بى فى ودٍّ وطيبة. أخرجوا من أكياسهم حلوى وزجاجة (بيبسى) فى حجم اللتر بها ما يملأ كوبين على الأكثر، فأخذت وامتنع حفنى. أفهم حفنى سادسهم الوجيه أنه جائع ويريد أن يفطر طعمية وفولاً، فقام الشاب الطيب يرتدى قميصه على الفور ونزل يشترى. حين اطمأن حفنى إلى نزوله اقترب من أذنى وأسر إلىَّ كأن أحدهم سيسمع:

- صاحبة اللوكاندة تحت.

- والعمل؟

- امرأة بنت حرام ولن نفلت منها.

عرَّفَنى حفنى كيف أحبس الماء عن اللوكاندة كلها، وقال لى حين تعود سنتكلم أمامهم بالإشارة، فتردُ أنت على بإشارة معناها لا، هل فهمت؟ ولما فعلتُ فاجأنى حفنى بإشارة نابية استغربتُها أنا نفسى قبل الخرس، جمع أصابعه وثنى ذراعه إلى صدره وفَرده مرات كثيرة، خلال ذلك كان يضغط بأسنانه على شفته السفلى فى عُهرٍ واضح فتسمرتُ مكانى من الدهشة، أعاد على إشارته بغيظ واستعجال فاضطررت أن أجاريه وحركت رأسى وسبابتى بما يعنى لا حين استفسروا منه عن معنى الإشارة وهم متوجسون من كلينا، أفهمهم الشيطان أن هذه الإشارة تعنى أن الماء مقطوع عنهم، وإشارتى له بالنفى بعد عودتى من الحمام أكدت لهم أننا نتحدث عن الماء فعلا، فهدءوا من وجسهم، وبإشارات قليلة طلب منهم حفنى النزول جماعة لصاحبة اللوكاندة ليخبروها بشأن الماء مستخدمين عين الإشارة. حين سمعنا أنا وحفنى صراخ السيدة التى تستغيث من خمسة من الخرس يتحرشون بها، أمسكنى حفنى من يدى ونزلنا مهرولين نعبر الجموع التى التفت فى باحة الطابق السفلى حول الخمسة يصرخون فى وجوههم، والخمسة مذعورون يبحثون بأعينهم بين الناس عن معنى لهذا العنف. ولَّما وصلنا إلى الشارعٍ رأينا السادس الوجيه راجعا يحمل إلينا طعمية ساخنة وجرجيراً أخضر فاختبأنا منه. حفنى لم يكن مسرورا بما حدث، وبعد مشىٍ قليل كلمنى كأنما يحاول أن يسكت ضميره (ذلك أفضل لهم، دعهم يتخلصوا سريعا من براءة القرية، يا صاحبى تلك هى حياة

الصعاليك، الصعلوك فى عرف شبين هو فنان أو مثقف يتحايل ليأكل ويتحايل ليجد مكانا يبيت فيه، لكنه لا يسرق ولا يخون، يلازم الأخرين ويعرف أدق أسرارهم، من الضرورى جداً أن لا يكون عند الصعلوك ما يخجل منه أو يخبئه، فهو مشاع مثل هذه الشوارع، الصعلوك فى شبين هو كل الناس إذا جلسوا فى المقهى يتكلمون عن المعايش، لذلك فإنه بعد فترة من الزمن إذا قرر الصعلوك أن يفتش في ذاكرته لن يجد إلا الأخرين). ذلك كان مفهوم حفنى عن الصعلوك فى شبين الكوم، صحيح أننى بعد فترة تكون لدى مفهوم أخر، إلا أننى فرحت ساعتها بتفسير حفنى الذى فسر لى كيف كنت أعيش طوال السنين الفائتة فى شبين، وكأنما الكلمة أعجبتنى فجعلت أرددها وأنا أنظر للنهر، صعلوك صعلوك.

* *

عساكر فى صف واحد متشابكى الأيدى أمام مبنى بنك مصر، كذلك رأينا أمام مبنى كلية التربية. حين مررنا على بوابة الأمن طلبوا منا إظهار الكارنيهات فدخل حفنى ومنعونى لأننى لم أكن أحمل الكارنيه. أشار إلى حفنى من الداخل أن أنتظره ريثما يعود. كانت أصوات الطلاب تعلو بالتنديد بالحكومات العربية، ولمحت بعينى لافتات اعتدت على رؤية مثيلاتها؛ فبخبرتى كطالب عتيد فى الجامعة توقعت أن إسرائيل قامت بواحدة من فجراتها، ولقد صدق حدسى. خرج الطلاب من كلية التربية ووافاهم أخرون خرجوا من أبواب كلية الزراعة والاقتصاد المنزلى. الكل كان يحمل

لافتات ويرددون شعارات من أمثال (خيبر خيبر يا يهود)، وعلى الفور التحمت بهم قوات الأمن بالهراوات. كنت مرعوبا أحاذى سور كلية التربية وأقف مكتوفًا فوق الرصيف، أخاف أن يسيء أى عسكرى فهم أى حركة تصدر منى. بعد قليل جاء حفنى وأعطانى قروشا سقطت من يدى وهربنا كنت قد تحدثت مع أ.د.حامد بيومى، أستاذ علم الحيوان ورائد النشاط فى الكلية بخصوص تكوين فرقة مسرحية من طلبة وطالبات كلية العلوم تشارك فى مهرجان المسرح السنوى للجامعة الذى تبقى عليه خمسون يوما، ذلك كان يعنى لى أربعمائة جنيه عن عملى كمخرج للفرقة، أقبضهم بعد أقل من شهرين أستطيع أن أقترض على حسهم لأعيش وبعد ذلك يحلها الحلال. كان الرجل قد وعدنى بمناقشة الأمر اليوم فى اجتماع مجلس الكلية واجتماع مجلس اتحاد الطلاب، لكن قامت المظاهرات فى الجامعة كلها ولم تهدأ فتحرجت أن أكلمه بنفسى، لكنى ألفَيته يمشى مسرعا كعادته فى ردهة قسم الحيوان، ونادانى هو

كيف حالك يا فنان؟

- الحمد لله.

- أنا كلمتُ الناس والعميد يرحب بالفكرة.

قال إن العميد رأى بالفعل أن كليتنا فقيرة فى النشاط، ولأن يمثل الطلاب مسرحيات هادفة خير لهم من المشى فى التظاهرات والكلام الفارغ. أخبرته أننى محتاج لبعض الفلوس لأقضى بها بعض

المصالح، من نسخ وتجليد نصوص المسرحية التى سنمثلها، ومواصلات للاتفاق مع مهندس الديكور الذى سيحضر من القاهرة إلينا، وبعض النثريات البسيطة حسبة مائة جنيه.

تفكر قليلا ثم صعد بى إلى رعاية الشباب ووضع اسمى فى كشوف طلاب التكافل الاجتماعى، أخذت لفورى سبعة وأربعين جنيها، يا لغبائى كيف نسيت هذا الأمر؟ الآن سيطالبنى بإنفاق تلك الفلوس التى أنا أحق بها على المسرحية، ولكن لا بأس سيتبقى معى حسبة خمسة وثلاثين جنيها، وأنا جائع يا ما أنت كريم يا رب!

* *

حين دخل محافظ المنوفية اللواء. عمران ياسين إلى قصر ثقافة شبين الكوم فى حاشيته وحرسه استقبله الكابتن عونى مدرب فريق الفنون الشعبية الراقصة، فصافحه المحافظ بود والتُقطتْ لهما صورة أمام باب القصر من المعروف عن اللواء. عمران ياسين أنه من عشاق الرقص الشعبى، فأبدا لم يحضر إلى قصر الثقافة لمشاهدة عرض مسرحى أو أمسية شعرية، بل كان يعلن على الدوام أنه لا يحب الشعر ونفخ الرأس. الغريب فى الأمر أنه كان يعتبر نفسه مسئولاً عن فريق الرقص، الراقصات على وجه الخصوص، فلقد توسط لكثيرات منهن فى الحصول على وظائف بدوام كامل فى المؤسسات الحكومية، وسنويا يسافر فريق الرقص إلى تونس فى مهرجان عربى للفنون. كنا نرى السيد اللواء فى المناسبات التى كانت من وجهة نظر الدولة تستحق الاحتفال والرقص، مثل العيد القومى لمحافظة المنوفية فى ذكرى حادثة دنشواى التى قتل فيها

الإنجليز عشرات الفلاحين المصريين. فإذا ما رأيناه فى واحدة من هذى المناسبات المُخزِية كنا نتمثل قول أحمد الصعيدى شاعر المنوفية الأشهر (عَودا، وف كل عام، يتقام الصوان فدادين، للطبالين والرقاصينْ، وعواهر الوطنيهْ، وبياعين الوطن، والعفَن وسواقط الثوريه، وجنرالات الخُطَبْ، والرُتَب، والسُتر محنيه بالنياشين). لَمّا علم اللواء من الكابتن عونى أن إدارة القصر قررت إلغاء العرض الراقص لأن فريق المسرح سيعرض مسرحية عن فلسطين تواكبًا مع التظاهرات المشتعلة جن جنون المحافظ ودخل إلى قصر الثقافة هادرًا بعبارات غليظة، وطلب تفسيرًا فوريا من مدير القصر وقتئذ (أ فارس أبو النجا) الذى دخل علينا مذعورا فى الحجرة التى نلبس فيها ملابس الشخصيات، وكان الأستاذ هاشم العدوى، الذى بات عميدا للفرقة بعد موت الأستاذ عاطف، واقفا أمام المرآة يثبتُ لحية بيضاء على ذقنه، فبادره أ فارس قائلا

- قلت لك يا حاج هاشم.
- خير؟
- المحافظ رفض، ومصمم أن يشاهد عرض الفنون الشعبية.
- أنا أكلمه بنفسى.
- لا أبوس يدك.

قبل أن يكمل أ. فارس عبارته المتوسلة اتجه أ. هاشم بملابس الإحرام ولحيته البيضاء المستعارة إلى صالة المسرح ليجد المحافظ فى مقاعد الصف الأول، عن يمينه راقصتان كان يضاحكهما وعن شماله عقيد، ومن خلفهم كانت الصالة مملوءة بعساكر يلبسون الأسود.

نظر إليه المحافظ فى استنكار لهيئته ورفض أن يسمع له، وحين ألحف هاشم فى طلبه بعرض المسرحية احمر وجه السيد اللواء وقال

– من هذا الأراجوز؟

فى هذه اللحظة قام العقيد يصرخ فى وجه الأستاذ هاشم ويدفعه فى صدره غير واعٍ بالمكانة التى يتمتع بها هذا الأراجوز المُسن أمام خشبة المسرح، والتى نثر فوقها سنين عمره عن رضا واقتناع فأنبتت أجيالاً من المسرحيين والأدباء كلهم على استعداد للدفاع عنه برقابهم. كان أول من قفز ليتصدى للعقيد هو رأفت الشيات الذى كان على خلاف فكرى مع أستاذه، ثم اجتمع من خلفه عشرون أو يزيدون من المسرحيين، ورأيت العساكر يتقافزون من فوق مقاعدهم للأمام كأنهم فى سوادهم الكثيف دخان بلد تحترق، كان الموقف يتجه نحو كارثة لولا أن تداركته رحمةٌ من ربى، فأنهى الأستاذ هاشم الموقف بالاعتذار للعقيد والمحافظ وخرجنا من صالة المسرح وجلين نمشى بظهورنا

ركبنا أنا وحفنى والأستاذ هاشم فى سيارة الأستاذ سمير يوسف، واحد من الذين وقعوا فى غرام شبين ومسرح شبين فترك فرقته فى بلده الأصلى (طنطا) واشترك فى فرقة شبين الكوم، تلك الساحرة التى لا نعرف لسحرها طلّسما فنفُكّه ولا ندرى لعشقها سببا نذكره، فنحن الأربعة لم نكن من شبين الكوم ولكننا شبينيون أكثر من أولادها؛ فهى لا تهتم بشهادات المولد وإنما تنتقى فتحسن

الانتقاء، وتسرق من النساء أبناء وأزواجا تصطنعهم في شوارعها، يضيئون ليلها ويسمرون في نواديها ومقاهيها، يحولون صخب النهار العادى إلى أحداث هامة حتى تذوب شمعتهم فتأتى بغيرهم، لكنها لا تنسى وإنما تعلِّم من يأتيها الأسماء كما علم الله آدم. أنا وحفنى في المقعد الخلفى للسيارة طالعنا وجه الأستاذ هاشم في المرآة الأمامية مُنهكا وحزينا، تلتمع عيناه بالحزن كما ترى في الليل منزلاً يحترق، كانت اللحية البيضاء مازالت مثبتة على ذقنه وقد منعتنا هيبته أن نذكِّره بها بعد صمت طويل قال له الأستاذ سمير

وحدْ الله يا أستاذ.

لا إله إلا الله

المحافظ رجل غبى وسنعرض المسرحية، بإذن الله، في محْكى القلعة.

كانت شبين عندى أهم.

- صدقت ولكن.

فجأة التفت إلينا الأستاذ هاشم بابتسامة مسنة وسأل (أتحبون المسرح يا أولاد؟) كان السؤال ساذجا خرج في تعبير لينٍ لم نتعرف عليه بين هذى الملامح الصلبة، فهززنا رأسينا بالموافقة، وعجبتُ من كوننا نشعر بالشفقة نحو هذا الجبار، فأنا لم أختبر في وجوده أبداً شعورا غير الرهبة، بل كان أحدنا يدخن مع أبيه ولا يغامر بالدخول إلى صالة المسرح في يده سيجارة يراها الأستاذ، ذلك الذى كل ما

فيه قد أُعدَّ للرِفعة؛ طوله الفارع وقسماته الصريحة، فلا تحتمل الإشارة منه إلى تفسيرين، كلامه قليل ولم أشهد أحدًا يتأبط ذراعه أو يسر إليه. طالما أردت أن أعرف كيف يضحك الأستاذ، ففى نوبات الضحك المُعدية التى كانت تأخذ الفرقة بكاملها، ذلك حين يخطئ ممثل فى نطق عبارة ما أو تتعثر على لسانه كلمة أو غير ذلك من المواقف، كان الأستاذ يطرِق إلى أن ينتهى الجميع من ضحكهم ثم يرتفع برأسه فتكون تلك هى إشارة العودة للجد. من أجل ذلك كدت أرجوه ونحن فى السيارة ألا يتباسط معنا هكذا فإنه لا يحسن اللين، وأن يخلع هذا الانكسار وهذه اللحية، لكنه واصل كلامه إلينا

- لازم تحسنوا الاختيار، حتى لا تندموا (وبدأ يحكى عن نفسه).

"الاختيار لحظة تسنح لك بلا ضمانات مثل الأميرة فى مسرحية (تاجر البندقية) تعرض عليك ثلاثة صناديق فى واحد منها قلب الأميرة ومالها وفى الأخرين ندم لا يفارقك ما حييت، لتظل تسأل ماذا لو كنت اخترت الصندوق المعنى. كان والدى قاضيا شرعيا من عائلة ثرية وكان يكبرنى بستين عاما فربانى كجد حنون، لم يفرض على شيئا منذ عرفت الاختيار، بينما كانت كلمته سيفا على رقاب أهل قريتنا. كان ينظر إلى فى شفقة من يتمى المتوقع فى كل لحظة فترك لى حبل المودة على غاربه. التحقتُ بالكلية الحربية بوساطَة أبى والكثيرين من أهلى، وكنت قد رفضت الالتحاق بكلية العلوم

أو الطب البيطرى. فى الكلية الحربية كنت أقضى النهار بين زملائى فى التدريبات والمحاضرات لكنى لم أكن أنام جيداً، كنت أرجع إلى سريرى فأجد حزنا وصوت ناىٍ مُقيما فى رأسى وأُذُنَى. قلت يا أصحابى هل سمعتم بالأمس نايا يبكى قالوا سمعناك أنت تبكى، قلت لهم لست أنا إنه فى أذنى. فى إجازتى دخلت على أبى وهو يختم القرآن فصدَّق وقبَّلنى فى جبينى، وقال يا ولدى رأيتك تلبس ثوبا قصيرا ورأيت نخلة يسقط بلحها فى النهر، قلت له يا أبى إنى أسمع نايا يبكى فاستعاذ بالله وقال استعذ ورقانى. قال منذ الآن لا آمن عليك بعيدا عنى. انتظمتُ بعد ذلك فى كلية الحقوق أدرس وأنجح، وإن سمعت ذلك الناى أهرع إلى أبى ويفزع أبى لله فأنام على فخذه وهو يقرأ قصار السور فى إجازة السنة الثالثة سافر جار لنا يطلب الرزق وزميل لى يطلب العلم وسمعتُ أن عبد الحليم حافظ فى الخارج يطلب العلاج فقلت ما هذا؟ قالوا فى السفر فوائد، فدخلت على أبى وبين يديه رجلان يستفتيان، فقال للأول، إن كنت قد طلَّقتها فى حيضٍ فقد طَلقت لبدعة وإن كنت جامعتها فى طُهْرٍ فالطلاق مردودٌ عند أهل السنة. وقال للثانى، صدَق من أفتاك أن للرجل أيضا عدَّة؛ فلئن طلق الرابعة لا يحل له البناء بأختها حتى تستوفى المطلقة فتكون عدتها عدته. قبَّلا رأسه وانصرفا وقبلت أنا كفه وجلست، قال يا ولدى رأيتك من خشب سريرى تبنى قاربا، فقلت يا أبى سأسافر، قال ستفعل ولن يهنأ لى نومٌ حتى ترجع. سافرتُ إلى إيطاليا، كان ذلك متاحا للطلاب فى السبعينيات. نعم

رأيت الحضارة لكنها لم تخطفني كما خطفت أخرين، فأنا سافرت أبحث عن شيء لا أعرفه، ليس هو العمائر ولا تصنعه الآلات ولا هو معروض ليباع في المولات العملاقة، ولا هو شقراء تعلمني فنون الحب. أنا كنت حزينا رأيت أُنَاسا على الأرصفة وفي الحدائق يعزفون ويرسمون فقلت لهم ما حملكم على هذا؟ قالوا سمعنا شيئا يبكي. قلت إنه الناى. هؤلاء (الهيبز) عرَّفوني على الفنون والآداب عن قرب، وما عاصرته معهم يدرس الآن في الجامعات. تلبَّسني هناك عفريتٌ أفسحت له صدرى، المسرح، أنفقت عليه كل ما كان معي ثم جلست معهم على الأرصفة نتسول بالفن، كانوا أول من طَبَّق فكرة مسرح الشارع في العالم، مثَّلت معهم (عطيل) بتصرُف يناسب الشارع، وترجمت لهم عن العربية (يا طالع الشجرة) ومثَّلناها كان العالم في هذه الآونة يعج بالصراعات بين الرأسمالية والشيوعية والحفاظ على الكيانات القومية، وصعدت إلى السطح نظريات كثيرة، مثل العدمية والوجودية والحداثة. لكن الفن إذا ما حملته معنى إنسانيا نبيلا يبدو شيوعيا رغم أنفه، فبتنا في الحبس ليالٍ إلى أن تسلمتني السفارة المصرية. عدت من هناك شخصا أخر، يقرأ ويختلف ويناقش وينظِّر ويؤسس ويمثل مسرحيات، يتظاهر ويحبس. كان أعمامي يتوسلون إلى أن أرحم شيبة أبي وأن أُتم دراستي في الحقوق لأصبح قاضيا مثله، فأتممت السنة الرابعة بتفوق أدهش من نصحني. تسلم أبي جواب تعييني في النيابة وهو على فراش الموت فنظر في عيني وقال رأيتك تشرب

من بحر، ثم أشهد الله أنه يشهد أنه واحد وأن قضاءه نافذ. في معهد الفنون المسرحية سألني (كرم مطاوع) عن مهنتي فأخبرته انني وكيل للنائب العام ثم شخَّصتُ لهم أجزاء من نصوص عربية وإيطالية وإنجليزية، فأجمعت اللجنة على اختياري وكان اسمي هو أول اسم في كشوف المقبولين بالمعهد، تليه أسماء هي الآن في غاية الشهرة. ومنذ السنة الأولى إلى أن عملت معيدا في المعهد كنت أساعد في إخراج عروض في المسرح القومي. ولكن ظلَّت فكرة مسرح الشارع مسيطرة علي، كيف يمكن للفن أن يقتحم على الناس المقاهي والحدائق والميادين؟ فتركت ما تركت خلفي وعدت إلى المنوفية، مثَّلتُ للفلاحين في قراهم وغيطانهم بلا ديكورات ولا إكسسوارات. أنا أول من أخرج عرضًا تشاهده قريةٌ بأكملها، وفي ذكرى دنشواى كنت أنصب المشانق، وأعقد المحاكمات وأقول على لسان زهران بطل دنشواى «اسمعوا يا خلق هوه إيه الحكاية، من جماعة الفلاحين العرقانين الشقيانين الحرَّاتين المحروتين، قدروا أهم يقولوا لأ، من غير علام ولا فلسفة ولا فهم في أصول السياسة والكياسة، ولا عرفوا شغل الترتيبات والتكتيكات، هي لأ تهد أجدع برج صلب، هي قوة حق لو عز السلاح. السلاح! آه يا حسرة ع السلاح، طب قل لي بعقلك تعمل إيه وأنت ترسانة سلاحك شوم ودبش والقنابل كسر طوب، وإن حميت نفسك في دارك يعني في القلعة الحصينة، خبطتين من دبشة البندقة تجيب عاليها واطيها. من قلوب دنشواى من عروقها .. مش هياخد روحنا غير اللي خالقها».

الفصل الرابع

منزل المحافظ؛ كذلك يسمى ذلك الجزء من شبين الكوم الذى يحوطُه سور عال كأسوار السجون، وأمامه ينحصر جزء من النهر قبل أن يهرب من نفق تحت الشارع الرئيس إلى الترعة التى تمد الطرف الأخر من شبين بماء الزراعة، حيث تجلس خلف المبانى الجامعية والعمائر أرض خصبة بين شارع الغزل والمصنع وطريق محطة القطار الذى يولى ظهره لمنزل المحافظ، ليفر إلى العمق حيث يلتحم بالمدينة عند بداية شارع عبد المنعم رياض. عجيب هذا المنزل، فعلى الرغم من المساحة التى يشغلها يبدو مفصولاً عن المدينة مثل كلمة مشطوبة فى رسالة من حبيبتك، تقف عندها لتسأل ماذا كانت تريد أن تقول فخانها التعبير شبين التى أعرفها تبدأ فعليا من كلية الهندسة وتمر حذرةً من أمام المنزل كما أفعل الآن ثم تبدأ

من بعده عند مبنى نقابة الأطباء. الآن ينظر إلى الحارس بارتياب فى مقصورته أمام بوابة المنزل فأتركه لأعبر إلى الجهة المقابلة وأصعد الطوار الممتد أمام مبنى الرى، إنها أواخر فبراير والياسمين سيصعد على سياج الحديقة، فعلتُ خيراً أن تركت سيارتى عند كلية الهندسة، أنا على موعد مع هذا الصباح منذ خمسة أعوام لأتهجى شبين، ولو كانت شيماء أنجبت لى طفلا لكان الآن فى الرابعة من عمره، آخذه فى يدى وأعلمه أبجدية شبين الكوم، قل معى يا بنى بعد الرى نادى الجمهورية، النجدة، قصر الثقافة، الإستاد، الرمد، مسجد الغفار ومدرسة المساعى ثم مبنى لَمحلَجٍ مهجور أسفل الكوبرى العلوى، هكذا تقرأ سطرها الأول من اليمين.

* * *

فى (مقهى السنترال)، كان الأربعة يجلسون فى انتظارى، يلبسون بدلاتهم الكاملة وفى غاية الأناقة والسخافة والعجرفة، يبدو للناظر من أول وهلة أنهم لا يستظرفون المكان، وأى عيِّلٍ صغير سيخمن أنهم ينتظرون شخصا هم الأربعة من مندوبى الدعاية الطبية يعملون تحت إشرافى؛ منهم اثنان يشغلان درجة (مندوب أول دعاية طبية)، وكل واحد منهما يعمل تحت إشرافه (مندوب دعاية خاضع لتدريب ميدانى)، وكلهم وأنا معهم نعمل على تسويق الدواء لشركة (جلاسكو) فى محافظة المنوفية. كان أقدمهم وأكثرهم خبرة شاب أصلع وسيم يصغرنى بخمسة أعوام على الأكثر، حين تعارفنا فى مقر الشركة بالقاهرة أخبرنى أن ابن

خالته هو (ممدوح غنيم) الذى كان زميلى ثم أصبح سريعا رئيسى أثناء فترة عملى بالسعودية، وابتسم الأصلع ابتسامة أكدتْ لى أنه عرف من ابن خالته تاريخى الأسود هناك، وعرف أيضا أن ابن خالته ممدوح هو سبب طردى من السعودية، حين أعلَنها بصراحة إما أنا أو هو فاختاروه. دخلتُ المقهى فرحبوا بى ولم نبدأ كلامنا حتى استأذننا القهوجى أن يكنس الأرضية تحت الطاولة التى نجلس حولها فقاموا متململين وحدجنى الأصلع بنظرة معناها (قلنا لك يا حمار أن مكانا كهذا غير مناسب للاجتماع)، لم تعجبنى النظرة فرمقته بتحد يخبره أن (سنة أمك سوداء إن لم تلزم حدودك) فتراجع فى دهاء وانشغل فى الحديث مع الأخرين. أشرتُ إلى القهوجى وطلبت منه أن يضم طاولتين إلى بعضهما ثم جلسنا قال واحد منهم كان محشورا فى بذلته، وقميصه مشدود على لحم بطنه من السمنة.

- يا دكتور، عندنا مشكلة فى مستشفى منوف العام (هززت له رأسى ليواصل كلامه وانشغلنا ساعة نتكلم فى الدواء والأرقام والتسويق، وعن العروض التى سنقدمها للأطباء ليُضمنوا منتج الشركة فى روشتاتهم).

دخل إلى المقهى رجل عجوز يحمل الجريدة، ثم انزوى فى ركن يقرأ ويشرب اليانسون، قلت فى نفسى إنه هو ولكن طرأت عليه نحافة وازداد شيبا، فاستأذنت من معى وقمت إليه.

- الأستاذ عزت؟! (لم يكن ليتعرف على بسهولة فأعفيته من الإحراج).

يا رجل يا طيب، صيدلية الدكتور صالح.

هب الرجل يصافحني فاستحلفته أن لا يقوم من مكانه وجلست معه. سألني الرجل بود

- أين كنت؟

- في الدنيا الواسعة.

كلنا تايهين في الدنيا

عرفت الرجل حين كنت أعمل في صيدلية (الدكتور صالح) قبل سفري، كان يحتاج إلى تركيبة يدوية أعدها له أنا أو الدكتور، ولَّما أصبح دائم التردد لشراء التركيبة، قمت بتجهيز عبوتين من المركب حتى لا يضطر للانتظار في المرات القادمة، بل وطلبتُ منه عنوان بيته، فكنت أمر عليه كل أسبوع بالدواء لنشرب سويا الشاي بالنعناع في الشرفة ويحدثني عن شبين القديمة. الأربعة ينظرون إلينا بفتور تتخلله ابتسامة من حين لأخر، أما الأستاذ عزت فقد تنهز فرصة للكلام فحكى وحكى، عن زيجات بناته، ابنه مهندس البترول، عن الزمن الذى فقد خيره وقَلَّت بركته وعن المرض، فاستفسرت منه عن علاج الضغط، ومن أين يحصل عليه وماذا كتب له الطبيب، فأخرج الروشتة المطبقة بعناية من حافظته. حين رآني الأربعة أقرأ الروشتة تابعونا بقليل اهتمام، وسألت الرجل إن كان مستريحا على العلاج، فأخبرني أن الطبيب الذى يتابع حالته يملأ الروشتة بأدوية كثيرة لدرجة أنه يخلط بين أسمائها ومواعيد تناولها، كان اسم الطبيب مطبوعا أعلى الروشتة ولاحظتُ أن اسم

المنتج الذى نسوق له ليس فى قائمة الأدوية الموصوفة فاستأذنته أن أنسخ الروشتة بخط يدى فى ورقة بيضاء فلم يمانع، وكتبت أيضا رقم الهاتف المحمول للطبيب وكذلك تليفون العيادة. أخرجت من حقيبتى علبة لأحد منتجاتنا وأشرت عليه أن يجربها بدلاً عن الاسم الذى وضعت تحته خطًا فى الروشتة، سألنى الرجل إن كنت أثق فى هذا الدواء فأخبرته، ولم أكذب، أن زوجتى تحسنت عليه.

بعد أن انصرف الرجل عدت لأجلس معهم فبادَأنى الأصلع بالنظر إلى ساعته. كان لزاما علىّ أن أكسر ثقته بنفسه أمامى وأمهد للطريقة التى سأعمل بها فى شبين. وجهتُ كلامى إليه مباشرة

تعرف صيدلية المنوفية؟

- طبعا، أكبر صيدلية فى شبين والمنوفية كلها
- ومع ذلك، لم أجد فيها علبة واحدة تخصنا.
- هناك محاولات لتمرير المنتج.
- لا تحاول ولا تناول، أنا اتفقت معهم.
- مستحيل!

قالها بثقة غبية فأخرجت له من جيب قميصى طلب شراء من صيدلية المنوفية ممهورا بتوقيع صاحب الصيدلية ومختوم بخاتم الصيدلية، كان يقرأها ويغوص فى كرسيه بينما التفت إلى الثلاثة الأخرون بكامل انتباههم. كنت متأكداً أنه حكى لهم كل ما يعرفه عنى أثناء ما كنت جالسًا مع الأستاذ عزت. ولكن المفاجأة التى

فجرتها بينهم أكدتْ لهم أن الأصلع وابن خالته لا يعرفان شيئا عن عالم التسويق. وبدأت أتكلم بثقة.

(المشكلة يا دكاترة أننا نعمل في مجال أُفَضِّلُ أن أُسميه تصدير الثقة لا تسويق الدواء؛ الرجل الذى جلست معه منذ قليل وكنتم جميعا تنظرون ناحيتنا بحنق، حصلت منه على معلومات تقتضى نهارين من البحث واللف على الأطباء. وبعد أن ينتهى من الشريط الذى أهديته له نصحته أن يشتريه من (صيدلية النجدة)، التى بدا على صاحبها التردد وأنا أعرض عليه المنتج، فحين يسأله الأستاذ عزت عن هذا الدواء سيزول تردده. لا تؤاخذونى، هيئتكم تقول بأنكم ممن لا يتنقلون إلا بالتاكسى أو بالسيارة. المدينة لا تحب هؤلاء. المدينة تحب من يتعرقون من المشى فى شوارعها ويتعرفون على ناسها إياك أن تستثقل الساعات التى ستخرج فيها إلى أى بلد لتعود إلى بيتك سريعا، بذلك ستتعامل معك المدينة كأنك واحد من لصوص القطارات. أما إذا استطعت أن تعرف المدينة وتراها كواحد من أهلها سيتغير كل شيء. ساعتها يصبح العمل متعة والمشى نزهة والزبون صديق والفلوس ورق تضعه المدينة فى جيبك دون حرص منك) وتكلمنا كثيراً، وجدت نفسى أعلمهم الصعلكة التى حددها لى حفنى ولكن فى كثير من الاصطلاحات الطبية، وبعد كلام كثير غابت عنه الألقاب والفزلكة بالإنجليزية قاموا ينتشرون فى المدن كما علمتهم، وجلست وحدى سعيدا بأول قدم تَثْبتُ لى فوق أرض شبين الكوم. أعرف أن منهم الموهوب والطموح ومن

يهوقني ذكاء ، خاصة ذلك الأصلع الذى إن كان فى نصف ذكاء ابن خالته فهو مصيبةٌ على، ولكن عندما يعتمد الشغل على من يعرف شبين أكثر فمثلى أحق بالكلام، سأدير عالمى من هذا المقهى ومن هذا البلد، والله زمان يا شبين.

* * *

بعد أن وصَلنا الأستاذ هاشم إلى بيته تركنى حفنى على ميعاد لنلتقى بالناس فى مقهى السنترال. كان المقهى خاليا من المَسرحيين تماما فلم أجد سوى جماعة من الرواد العاديين الذين ألفناهم واعتادوا على جلَبتنا، فأمسى من الطبيعى أن يردد أحدنا دوره فى المسرحية بصوت مرتفع كأنما هو على الخشبة، ليجد من يعلِّق زهرتى النرد فى يديه ويقول (الله يا أستاذ) ثم يتابع لعب الطاولة. أيضًا وجدتُ خمسة من الموسيقيين فى بدَل سوداء وقمصان بيضاء، أرخوا رابطات العنق أو فكوها بعد أن عادوا من الحفل الذى حضره المحافظ. وجدتُهم فى دائرة حول عادل المصرى الذى كان ممسكا بالعود يدندن بصوت خفيض، يجاوبه القهوجى ناقرا على كوب الشاى الذى وضعه على طاولتى خارج المقهى. قام رجل يرقص ليغيظ صاحبه فى نهاية اللعبة ويغنى (المشاريب عليك يا صاحبى) على نفس نغمة (ما بيسألش عليا أبدا) التى يشدوا بها عادل عادل المصرى أجمل صوت عرفته شبين يوما، وأول سؤال يُلح على خاطرك حين تسمعه (لماذا لا يملأ شريط كاسيت بصوته ويضرب هانى شاكر على عينه؟) جاوز الأربعين بسنة أو سنتين، لكن أبداً لا

يبدو عليه أربعون ولا ثلاثون حتى؛ وتراه كشاب وجيه أخضر العينين واسعهما، شعره لامع مصفوف كنجوم السينما القديمة، طويل نحيف وتفاحة آدم تنزل في مكان ما من رقبته لتعود بنغم عميق رائق كمياه البئر تصعد لرأسك فكرة أن مطربا مثله حاربه مطربون كبار، ولكنك إذا عاشرته يوما واحدا تعرف أنه ليس في حاجة إلى من يحاربه؛ فهو باختصار سيئٌ في كل ما يفعله سوى أن يغني، وبشيء من التفصيل؛ زير نساء من النوع الذى تخشى على أمك منه، حرامي يسرق مال النبى ومال الطبال الذى معه في الفرقة التى أنشأها لإحياء الأفراح في شبين وغير شبين، يضع أى هاتف محمول سها عنه صاحبه في جيبه، وينصرف خلسة دون أن يحاسب على ما طَفحه من قهوة وفيروز وحجر معسل من ذيل حجر يتعاطى كل ما نعرفه من الكيماويات وإذا ضاقت به الحال يتناول دواء السعال (الترامادول) المحظور بيعه إلا بتوصية من طبيب. ما رأيته يوما إلا وأخر يمسكه من ياقة قميصه، يسب ميتين أهله ويطالبه بفلوس، وعادل يتملص منه ويطلب من أول من يمر التحكيم بينهما المشكلة أنه وجيه ولبق يأكل عشرة من خصومه في الكلام، لا تأخذ منه حقا ولا باطلا، فيتركه صاحب الحق وهو يبكي مستعوضا الله، أو فائراً من الغيظ يتوعده بالقتل انتظرتُ أن أرى واحدا من المسرحيين ولكن لم يظهر أيّهم، فانشغلت قليلا بمراقبة النساء في العبايات (الكرب) الواشية تلذذت بالشاى والمساء والعزف، خرجت من أفكارى عن اليوم والليلة وذهبت إلى

سناء وأيامها، ترى أين هى الآن، أى منزل تضيئه؟ هل سافرت مع زوجها إلى مرسى مطروح كما قالوا، ولماذا مطروح البعيدة يا سناء؟ تخيلتُها جالسةً على الرملة شاردةً يباغتُها البحر لم أنتبه لتوقف العزف حتى قطع على سيَّال أفكارى عادل المصرى.

أقطع ذراعى إن ما كنت عاشق (تناول كرسيا وجلس).

أين الناس؟

مجتمعون فى مقر التجمع (قالها بعربية ركيكة).

أحمد الصعيدى قال لهم كلاما كبيرا (لا بد أن يعرف المحافظ وأمثاله حجمنا الحقيقى، لسنا أراجوزات كما يظنون) وكلام شيوعى كثير ثم وقّعوا بيانا احتجاجيا، وأخذهم الصعيدى إلى حزب التجمع.

أشرب الشاى وأروح لهم.

- أنت ناقص نفخ دماغ، أنا لى معك كلمتين.

يا جدع مش اتفقنا تدرس لابنى فى البيت؟

- مالك ساكت؟
- بصراحة، أخاف تزعل من كلامى.
- أنت خايف آكل حقك، صح؟
- صحيح

- يا عم أنا خارج أى اتفاق، كلامك كله مع المدام.

كنت سأقول له أن يعفينى من شرف اصطفائى لدخول بيته لكن قطع كلامنا شاب أسمر وسيم، يلبس فوق القميص جاكت أسود من الجلد وبنطلون جينز ويمسك عودا فى جرابه.

عادل المصرى؟

- نعم؟ (نظر عادل إليه باستنقاص فتابع الشاب فى ثقة).

- اسمى سيد جابر، مطرب ولى تجارب فى التلحين.

تشرَّفنا والله.

- عايز أشتغل معك فى الفرقة.

- ماذا تعزف؟

- عود. تعلمت على يد (على سعيد).

آه، على سعيد أستاذنا، لكنِّى لا أحتاج عوَّادًا، وأنا مطرب الفرقة، تأخذ مكانى؟

ابتسم (سيد جابر) كأنه لم يخسر لتوه فرصة عمل مع عادل. منذ أول دقيقة وهو على هذى الثقة، يهذر ويضع رجلاً على رجل، وأنا كنت ملحوقًا لأعرف سر هذه الثقة التى يتحدث بها إلى أفضل وأشهر مغنى فى أفراح الدلتا قال السيد.

- السبوبة طارت، لكن عاوزك تسمعنى.

معلهش، أنا أتكلم مع الرجل (يقصدنى، وهنا تدخلت فى الكلام).

اسمع الرجل يا عادل (قال عادل بنفاد صبر).

سمعنا يا سيدى.

أخرج العود من جرابه ومرر الريشة على الأوتار كمن يملِّس على شعر هرَّةٍ طيعة، ثم دقَّ لحنا للسنباطي وقال من (لسه فاكر قلبى يديلك أمان) فوجدت رعشة فى جلد رأسى وعبرة تفطر من عينى رددتها إلى أن غلبتنى. خرج الموسيقيون على صوته يسدون باب المقهى ببدلهم السوداء، ومن بينهم وخلفهم ناس. هدأت جرية النرد على الخشب وسكنت خبطة الدومينو وقرقرات الشيشة، اشتعل الوتر بعد الوتر وصدرت الآه عن الآه، العابرون فى الشارع دلفوا والسائرون وقفوا، إلى أن قال (كلمة كلمة لما راح الهوى ويا الجراح)، أعادها أربع مرات بطلب من اليمين وتوسل من اليسار، استحلاف بالله البديع من الأمام وأيمان بالطلاق من الخلف. بعد أن انتهى سيد جابر من غنائه نظر للجموع وقال بظرف استملحه صاحب المقهى (وقف يا ريس حنتيرة.. فيه ناس هنا قاعدة كتيرة. ولا حد قال هات تعميرة ولا واحد شاى) دخل الناس إلى حيث يتسع المقهى، وبقينا ثلاثتنا (أنا وعادل وسيد) أمام الباب على مرأى ومسمع من الجميع. تناول عادل العود من سيد جابر وضبط أوتاره وشحذها، مرر الريشة على الأوتار كما يدلل النسيم وردًا أبيض، ثم قال من (جفنه علم الغزل) فتحت الشبابيك فى العمارة المقابلة، ورأيتُ من نافذة الطابق الأول رجلا أشيب يكاد من تطلعه يسقط فى الشارع، ومن فوقه شباك عذراء موارِب ستاره يعلو ويهبط، إلى أن قال (يا حبيبى) فتش الكل فى قلبه عن حبه الأغلى، فمن وجده قال (يا حبيبى) ومن ضلَّه قال (يا حبيبى)، كل من ستر هواه زمانا افتضح

ومن تذرع بالصبر والعفة فجر وقال نشوانا (يا حبيبى) . فلما قال (هاتها من يد الرضا) ملّكناه بالرضا رقابنا فجعل يميلها للأمام كما ينعس الصفصاف وينقر الهدهد، ولليمين كما استجاب لإبراهيم (ص) إسماعيل (ص)، وللشمال حيث أخذ الشيطان أهله، وللخلف كما ينعم السابح على ظهره، ثم انتهى وناول العود إلى السيد، كمن يقول له يا بنى أنت ما زلت عيِّلاً، فتبسم الأخر وشمر وقال من (عندما يأتى المساء) خرج عن المقام وعاد بثقة من أمر فى أهله وحكم فى ماله. طعم اللحن بالعُرب والحلْيات، نزل بالقرارات لأعمق مما (غاص عبد الوهاب) وارتفع بالجوابات فخرق سماوات الشيخ محمد رفعت إلى أن قال (يا حبيبى لك روحى لك ما شئت وأكثر)، فثلَث المسيحى ووحد المسلم، سها القهوجى عن كفّه فى الجمرة فانتفض وقال يا سامح الله الهوى. علمت شبين أن الليلة ليلة، من فاتها ضيع حظًا من نعيم الدنيا، فأعلم الدانى القاصى، والحاضر تلْفن للغائب. أُقفل الشارع وزمرت فى طرفيه السيارات لتعبر خلاله من شارع السادات لشارع البحر والعكس. أما المتباريان فقد رقَّ أحدهما لأخيه واستملحا الأُنس والطرب، فطلب سيد اليانسون لعادل حتى ينجلى صوته ويلعلع، وعادل باس على رأس السيد وطلب له عنّاب. فى وقفاتهما تعارفا ووصفا لبعضهما البيوت والشوارع. الناس ما استطاعوا أن يمايزوا بينهما فأحبوهما وأحبوا الليلة. قالوا عن الأول (عادل) أنه أكثر مكثا على الجمال يعتّقه، والأسمر (سيد)، أكثر تطوافًا فى بلاد اللحن يصطفى أبدعه، ثم

جعلا يتناوبان العود إلى أن صدح النقشبندى على مئذنتى (سيدى خمس وسيدى أبو الغار) فوصل الطرب بالطرب وذكَّر السامعين برب بديع أضحك وأبكى وأمات وأحيا

* * *

تهربت منه وقتا طويلا إلى أن اصطادنى فى أول بروفة للفرقة القومية بعد انقطاع للبروفات دام لأسبوعين. كان من المفترض أن يستمر الانقطاع فترة أطول ليجنى ثماره، فتتبناه صحف المعارضة وأقلام الليبراليين، حين يتم الإعلان عن إضراب مسرحى عام فى كل قصور وبيوت الثقافة فى مصر بالتنسيق بين المسرحيين وبعضهم، وينتهى الإضراب بأن يتقدم المحافظ باعتذار رسمى منشور فى الصحف للأستاذ هاشم العدوى وللفرقة القومية. كل هذه الآفاق وأكثر فتحها (أحمد الصعيدى) أمام مخيلات المسرحيين فحلفوا على المصحف أن يمضوا فيما عزموا عليه. لكن الموضوع طال ولم تبْدُر له بشائر، فلا صحف المعارضة نشرت ولا الليبراليون كتبوا ربما كان الأمر يحتاج لفترة أطول، ولكنَّ المسرحيين غلابة، وهذا ما لم يضعه أحمد الصعيدى فى حسبانه. فمعظم المسرحيين من شبين وحولها قد رتَّبوا حياتهم على نمط واحد؛ أن يعود الواحد منهم من شغله إن كان يعمل، فينام ساعتين ثم يأتى لقصر الثقافة يمثل ويضحك ويناقش فى مواضيع كثيرة، يسمع الشعر والموسيقى ويعود للبيت نشوان، أو يتسكع فى الشوارع لبعد الفجر إن كان لا شغل له إلا بالفن. لم يكونوا مُثقَفين من العيار الثقيل ولا حزبيين ولا أصحاب مواقف سابقة، لذلك حين سقطت عنهم العادة اختل

توازنهم. فى أول يومين اعتزلوا قصر الثقافة، بعد يومين جلسوا فى مقهى أبى يوسف الكائنة فى ظهر قصر الثقافة، بعد ذلك جعلوا يلتقون فى مدخل القصر ولكن لا يسلمون على أحد ولا يهشون لأحد، ثم بدأت تظهر أسئلة من نوع (لماذا نشغل أنفسنا إلى هذا الحد؟ نحن لاعبو فن ولا نتعاطى العمل السياسى؛ خاصة وأن الأستاذ هاشم قد انقطع عن المجىء ولا أمل فى إقناعه بالعودة سواء اعتذر المحافظ أو لم يعتذر. الأمر الأخير الذى بصعوبة أبلع كونه مصادفة، حين دخل (رأفت الشيات) إلى قصر الثقافة ولم يلتفت ناحية الناس، وإنما شقَّ طريقه باتجاه صالة المسرح فى جلال قائد ثورة وفتح درفتى الباب بعنف، أَنَار الصالة والخشبة ثم وقف على المسرح خطيبا كان لا بد أن ينتهى الأمر بكلام كبير يُسهل على الناس التخلى عن أحمالهم غير المفهومة.

(الأستاذ هاشم قضى عمره فوق هذى الخشبة؛ كوَّن الفرقة واحداً واحدا، هل تحسبونه يرضى إن تركتموها مظلمة؟ أبداً المحافظ رجل عسكرى لا يُعنى بما ننشغل به ونُفنى فيه أعمارنا وأحب ما على قلبه لو ترك الممثلون والشعراء والصحافيون منابرهم، فهل نساعده؟ إن التاريخ لا يذكر المحافظ ولكن يذكر أمثال أ. هاشم العدوى وأمثالكم).

دخل أحمد الصعيدى عليهم صالة المسرح غاضبا، يهدر بلهجته التى تشبه لحد كبير لهجة السادات.

- تاريخ إيه يا رأفت، أنت اتهبلت؟!

- ابعد عنا يا أحمد يا صعيدى.

يا رأفت أنا شفت بعينى الضابط ضربك على وشك.

أنت فاكرنا شيوعيين زيَّك؟ يا عم إحنا ناس غلابة.

الله يخيبك يا شاويش الفرح، إخص عليك.

خرج الصعيدى وهو يقلب كفَّيه من الغيظ والدهشة، واتفقنا فى غيابه على استكمال البروفات بدءا من الغد. ذلك اليوم، بعد أن انتهينا من البروفة وجدت من يتأبطنى على غفلة.

كيف حالك يا أستاذ. (كان عادل المصرى).

وجدت نفسى مدفوعا بسيف الحياء وسيف اللزوجة أروح معه. أوقف التاكسى أمام محل البقالة الذى بجوار مبنى المرور الجديد فى شارع (طلعت حرب)، وأخرج للسائق جنيها ونزلْنا، ففتح السائق بابه.

- جنيه واحد يا أستاذ؟!

- أجرتك يا أسطى.

- ثلاثة مشاوير بجنيه؟!

إحنا جنب المرور، لو تحب اشتكينى.

حتى الجنيه بايش.

ماله؟ الأرقام واضحة وسليمة.

لو كنا فى مكان يبعد عن مبنى المرور لكان للسائق معه شأن أخر، ولكن السائق اكتفى بأن بلَّ الجنيه بلسانه ولصقه على جبين عادل ثم دخل سيارته يلعن ويسب عادل والتاكسى والزمن الأغبر، بعد أن انصرف السائق رفع عادل صوته.

- ناس وسخة.

اشترى من البقال جبنا أبيض، لانشون، خبزا أفرنجيا وكثيراً من المُخللات، ولم ينس أن يدس الجنيه البائش للبقال بين الفلوس. لماذا أنا هنا؟ مع رجل يشترى لوازم السُّكْر وينصب على الناس عدد ما يأخذ النفس ويخرجه، وأحسن ظنى بزوجته أنها راقصة معتزلة أو ما زالت تهز وسطها فى ماخور ما لا أعلمه، كما لا أعلم شيئا عن حياته الخاصة، فهو الوحيد الذى لم أكن أعرف له بيتا ولم يستقبل أحداً ولا حتى من أعضاء فرقته فى بيت له، لا بد أنه يخشى لو انتظره الدائنون على باب المنزل، فأنا أعرف أناسا لهم فى ذمَّته ما يربو على خمسة آلاف جنيه، ولا بد أن زوجته بعدما سينجح الولد ستشق جلبابها وتتهمنى فى وسط الشارع أننى فعلت وفعلت، لكننى سأطلب فلوسى مُقدما وإلا فبين البائع والشارى فَتْحُ الكريم. عبرنا المزلقان واستكملنا الطريق سيرا من بعد (مسجد الصفا) إلى أن دلف بى لحارة ضيقة بيوتها متشابهة إلى حد كبير كلها بيوت خراسانية من ثلاثة طوابق ذات شرفات تبدو متماسة من أسفل لما عُلِّق على أسلاكها من ملابس كثيرة من الناحيتين، ذلك يوحى أن البيوت مكشوفة على بعضها ولا خصوصية لأحد ولا أحد يريد خصوصية فى مثل هذى الأماكن، فتوقعتُ أن أرى زوجته فى قميص نوم، شعرها منكوش تهرش وتتثاءب فى واحد من هذى البيوت دخلنا مدخلا رطبا مظلما له رائحة مكتومة كالقبور فانقبض قلبى زيادة. صعد هو الدرج بخفة ليسبقنى إلى أن لحقت به فى الطابق الثانى، وجدت باب الشقة مفتوحا ثم رأيت ما رأيت.

خلعتُ حذائى ولم أكن انتويت ذلك، لكن السجاد الفارسى أحرجنى. كان أثاث البيت صدمة ذهبت بكل توقعاتى عن المنزل الذى يعيش فيه عادل، باحتان واسعتان تُفضى كل منهما للأخرى؛ أولاهما فى مدخل الشقة تحتوى على أثاث السفرة الذى يتكون من طاولة على هيئة طاووس، تشترك ثمانية كراس من حولها فى تركيب الرأس والذيل وتفاصيل من الجناحين، وبحسب أوضاع الكراسى حول الطاولة ودرجة الضوء يتهيأ لك واحدة من حركات الطاووس من ضم الجناحين ونشرهما والتهيؤ للقفز أو النكوص، وفى الخلفية من ناحية الذيل منظرٌ طبيعى لأشجار فى الغابة ينتابك إحساس أن الطاووس خرج لتوه من بينها وخلفه الصغار أما الباحة الثانية فترتفع عن الأولى درجتين، وتحتوى مجلسا عربيا تتوسط دائرته نافورة، يخرج الماء من فم طاووس آخر يقف فى مركزها، وعلى الحيطان الثلاثة رسوم لرجال وجوار كلهم يلتفتون باسمين نحو تجويف فى الحائط يشبه تجويف القبلة فى المساجد، فإذا جلس عادل فى هذا الشق اكتملت الصورة، فإذا هم فى مجلس سماع يبتسمون للمطرب بينهم كما تحدثنا ألف ليلة وليلة عن ابن سريج والموصلى. خرجت علينا زوجته فى عباءة قطيفة، شعرها ملموم خلف رأسها كذيل طاووس. وضعتْ بيننا صينية عليها تفاح أحمر وخنجر مقوس. على كفيها سلاسل من وشم الحناء وابتسمت وجلستْ، فلو كنت زوجها، ويا ليتنى كنته، لختمتُ على بابنا قفلا من فوقه قفل. أنا لم أر ولم أقرأ وما حكى لى أحد عن وجه فوق

بياض اللبن ودون النور قليلا وجيد عالٍ لتطيل المشى بعينيك قبل أن تقف على ذقنها الموسوم بطابع الحسن. وعلى خدها شامة إنما هى قبلة احترقت فى سعير لونها من قديم. وترى إن طَمحت لأعلى سمرَةً خفيفة فى ظل الرمش، وفى الجفنين عسليتين حولهما بياض رائق فى مركزهما الرفض الشديد. انتبهت إلى جوربى المقطوع على إبهام اليمنى وعند كاحلى والتفتُ لعادل الذى كان يبتسم بعد أن نزلتُ بعينى من على زوجته فاحتقرته أكثر وسألت فى حيرة.

- ما الأمر؟

- مالك يا جدع، هنخطفك؟

طيب، ندخل فى الموضوع.

كلامك مع أم حسام.

قالت هى العشاء أولاً فنظر إليها عادل نظرة بخل وواجهته بنظرة واثقة فقال مضطَرا (نتعشى). أثناء العشاء لاحظتُ أنهما يقولان كلاما كثيراً بلغة العين والغمزات، حتى الماء يتناولانه بمجرد أن ينظر أحدهما للدورق الزجاجى، بنفس اللغة سألها عن شىء فنظرت لساعة الحائط ثم نظرت إلى وابتسمت، قالت إن (حسام) تأخر عن ميعاد عودته من درس الرياضيات الخصوصى عند مُدرس بيته فى (العزبة الغربية). كل هذا بدا لى طبيعيا وبقليل من التدقيق يمكن تفسيره، لكن ما خوَّفنى أنه فى كل مرة أتبصص إليها كنت ألمح بطرف عينى ابتسامة عادل، ثم يبتسمان لبعضهما فى رضا إنه لا يغار وهى لا تمانع، قلت هى حفاوة الضيافة فى المدينة

وأنت فلاح، ولكن أى ضيافة؟! والله العظيم تأنيت بعينى على بياض نحْرها وطيّة صدرها زمنا يجعل الخنزير يغار، أما هو فأبرد من الماء في الزير، كلما تعديت حد النظرات إلى الإيحاء والتسبيل وجدتُ الرفض فى عينيها ظاهرا وصريحا بينما لا أجد من عادل سوى ابتسامته القوادة وكأنها تحثنى أن أحاول من جديد. فكرتُ لو أن هذه الغمزات والبسمات سخرية من هيئتى. فكرت لو أن هذا المُغفَّل صدَّق مزاح (محمد الحفنى) عن كونى لا أملك سلاحا (نصلا قاطعا) وإنما عود جرجير أصفر لا يحركه الريح. لا أعرف أين وُلدت هذه الشائعة وكيف استشرت في المزاح بيننا كأنها حقيقة، كل ما في الأمر أننى كنت لا أطيل النظر لأنثى مهما فارت أنوثتها، ذلك لأنى أتمتع بذاكرة فوتوغرافية تنطبع عليها أدق التفاصيل؛ حتى انكسارة الضوء على صدر ناهد فى عباءة سوداء ناعمة مرت في شارع ضيق، أصطفى لقطات أمزجها مع تشوهات الطلاء في حجرتى وأسرح في حلم من صنعى. كان الأستاذ عاطف مبسوطًا لكونى لا أطيل النظرة لواحدة من زبائن المحل، وإن فردت هى حمالة الصدر تعاينها كنت أكتب أنا الفاتورة وعينى في الدفتر، لم يفسرْ أحد ذلك أنه عفة منى ولكن نقصٌ فى رجولتى، حتى لَمّا طلبت من الأستاذ عاطف أن يخطب لى سناء قبيل ذهابها قال لى نكتة عن فقير تزوج فقيرة أنجبا متسولاً ثم مال على في صوت خافت يمازحنى قال (لا تؤاخذنى. هل لك.) لم أعرف كيف أرد عليه، هل أخبره أننى كنت أضع يدى على فمها كى لا تصرخ؟

لكنى سكت. كما سكت لسخرية حفنى فى المقهى، وكما سكت وهما يبتسمان لبعضهما، لم أكتف باللقطة الفوتوغرافية بل جعلت أرسم فى أناة ومهل. زادت على طبقى أرزًا ولحما وسألتْ إن كنتُ أمارس التدريس فى البيوت منذ فترة، فأخبرتها أن لى تجارب مع أصدقاء وأقارب درستُ لأبنائهم، سألتنى عما نويت أعمل بعد تخرجى الوشيك فقلت سأستكمل دراسات عليا فى التحاليل.

وماذا تكون بعدها؟

دكتور تحاليل.

ممتاز، افعل ولك عندى وظيفة لا تحلم بها

أين؟

السعودية، قطر، الإمارات وأى مكان تحبه فى الخليج. (تدخل عادل فى الكلام)

أنت ابن حلال وتستاهل كل خير

انشغلت ساعة أتمشَّى بعينى على صدرها وأتخيل لون الحلمتين، هل هما جاريتان من عمق إفريقيا أم روميتان بخدود كهذا التفاح الأحمر؟

- أستأذنُك فى كوب شاى.

- دقايق ويكون جاهز

أخذنى عادل إلى الحمام فوضعت رأسى تحت الماء طويلا، غسلتُ رجلى ودفست الجوربين فى جيبى. عدت من الحمام منتعشا وجلست مع عادل فى غرفة الأنترية ننتظر الشاى، ودون أن أطلب

أخذت من علبته سيجارة فبدأت أستعيد تركيزى، وإن وجدتُ ساعتها تنميلا فى جلدة رأسى، سمعنا باب الشقة يفتح ثم صوتها غاضبا تأنِّبُ الولد.

- ثلاث ساعات فى درس واحد؟ (وعلق عادل).

- على هذه الحال كل يوم يا أستاذ.

دخل علينا الولد لائذًا بأبيه، كان قصيرا ورقيق الجسم لا يبدو عليه عمره الحقيقى تماما كأبيه. ملابسه متسخة وحاجبه الأيمن متورم قليلا، سأله عادل.

- من ضربك؟

- ضربنى! إحنا قطَّعناهم.

دخلت هى تحمل صينية عليها الشاى وطبقا أرز باللبن مرشوش على سطحهما المكسرات وجوز الهند. قالت تعاتب عادل.

- أنت خيبت الولد ودلعته.

- وأنا مالى؟

خرج عادل إلى باحة المجلس العربى، رص لنفسه حجر معسل وأدار التليفزيون دون أن يلتفت إلينا بدأتُ أستمع لها متحاشيا النظر ناحيتها ما استطعت، ميزتُ فى كلامها ثقة زائدة وعجرفة ضايقتنى، كانت تتحدث وهى تلف ساقًا على ساق. قالت إنها ستمتحن أدائى مع الولد وتتابع مستواه، فهى خريجة المعهد العالى للتمريض أى إن لها دراية بمادة العلوم، لكن الرياضيات طول عمرها ضعيفة فيها، لكن ذلك لا يمنعها أن تأتى بكتاب خارجى يحتوى

نماذج الأجوبة التى ستقارنها بإجابات الولد. طلبت من الولد أن يأتينى بالكتب ثم رفعت عينى متحديا جمالها

يا أم حسام؛ المفروض هذا الكلام بينى وبينك، لا يسمعه الولد.

هل تغضب من الصراحة؟

يجب أن ينظر إلى كمُدرِس لا كأجير

عاد الولد فتباسطت معه ليتجاوب معى وأعرف مستواه الحقيقى.

- Do you speak English؟

Yes.

- شاطر يا حسام.

قالت هو ممتاز فى الإنجليزية ومدرسُهُ المخصوص أشهرُ اسم فى شبين الكوم، فسألتُه سؤالاً ملفوفًا، امتقع لون الولد وسكت، رسمتُ له مثلثا قائم الزاوية وطلبت منه أن يحسب طول الوتر بمعلومية طولى الضلعين الأخرين، فحاول أن يخبرنى بنص نظرية (فيثاغورس) فتأتأ وتهته، قلت له اكتبها فوقف بالقلم على الورقة ولم يرسم حرفًا ولا خطًا؛ نظر إلى الولد مسترحما فرحمته. طلبت منه أن يرسم التوزيع الإلكترونى لذرة الأوكسجين ويحسب عدد الكتلة والوزن الذرى فأسقط فى يديه ونظر ناحيتى كمن ينظر إلى عمله الأسود فى القبر هنا لم تستطع هى صبرا فقامت حملتْ الولد من أُذنيه وجعلت تصفعه وتضرب رأسه فى الحائط كالمجنونة،

كشفت عن ساقيها وألصقته للحائط تخنقه برجلها، حاولتُ منعها فدفعتى بيد أجلستنى، جاء عادل وحملها من فوق الولد فنهرته، واتهمته ثانية أنه كان السبب فى خيبة الولد فنظر عادل ناحيتى متحرجا وهمَّ أن يتكلم لكنه ارتجع وهبط صدره، وإذ رأيتُ ذلك علمتُ من هو الطاووس فى هذا البيت، هدَّأَ عادل من ثورتها وأجلسها وهى تلهث من التعب، تقول منك لله يا عادل يا مصرى، تعلمه العود وتأخذه الأفراح. أخرج عادل الولد من أمامها وكانت لتصفعه مرة أخيرة وهو ينفلت من وراء ظهر أبيه. قالت (أنا يا أستاذ أجَّلتُ سفرى إلى السعودية من أجله، أريده طبيبا، لم أبخل عليه بشيء، هل من الكثير علىَّ أن أُربى طبيبا يأمر وينهى فيمن يعملون تحت يديه. لماذا أتحمل الغربة وأجمع القرش على القرش إن كنتُ لن أرى ابنى طبيبا) قامت لتنفس عن غضبها فى الولد ثانية فأمسكتُها من يدها. طلبتُ منها أن لا تقلق على الولد منذ الآن فلقد أصبح مسؤوليتى.

وأنا أدفع لك ما تطلبه.

أتكلم بصراحة؟

خمسمائة جنيه نظير الثلاثة شهور المتبقية على الامتحان، وأن ينقطع عن الذهاب لأى مدرس أخر

اتفقنا.

ظل عادل ينظر إلى بغيظ شديد فى طريق عودتنا إلى مقهى

السنترال، فلقد كسرت نظريته عن كونى (عيل أهبل وغلبان سيرضى بالقليل).

الولد مستواه ضعيف؟

زفت.

لكن خمسمائة جنيه.

أما أنا فكنت منتشيا بالجمال والفلوس التى ملأت بها شبين جيبى على غفلة، مطمئنا إلى المستقبل، فهذى خمسمائة جنيه وبعد شهرين أو أقل أحصل على أربعمائة جنيه من الكلية نظير إخراجى للمسرحية التى كنت قد بدأت فعلا فى بروفاتها، قلت لنفسى حينها، أول شيء سأفعله أن أستأجر حجرة تقينى البرد والمبيت كيفما اتفق، وأشترى قميصا، وكل أسبوع آكل عند (المَشد) لحمة أو فراخ. استأذنت من عادل لأتركه فاستفسر، وضحكت من كونه لا يريد أن يتركنى أطير بالفلوس سريعا، فزيادة فى النكاية به أخذت منه سيجارة وأوقفت تاكسيا ثم لوحت له مودعا وأنا أنفخ الدخان سعيدا

* *

البروفات مستمرة فى كلية العلوم، هذى تجربتى الأولى فى الإخراج المسرحى. كان صراعا محموما ضد نفسى، أحاول أن أستخرج من أغوارها شيئا يخصنى لا أنكر أن الهدف فى البداية كان الفلوس، ولكن بعد ذلك شغلنى التحدى، تحدى الركود والمحاكاة. حين كنتُ أقرأ نصا لمسرحية ما لأضع لها خطة الحركة والإضاءة،

رغما عنى أجد مخرجين أخرين يسطون على مخيلتى، أجد أ عاطف يُوزِع الممثلين بشكل تقليدى مشغولاً بموازنة المسرح عن اليمين واليسار، ومن أعلى وأسفل الخشبة، يحيل النص بتصرفه إلى نص آخر ميلودرامى زاعق، لتظَلّ مشحوذ المشاعر متعاطفا إلى آخر العرض مع البطل المهزوم، أما أ هاشم فكان من محترفى كسر الحائط الرابع وكشف الإيهام، كان يدس بعض الممثلين فى الصالة بين الجمهور ليتحدثوا من وقت لأخر مع الممثلين على الخشبة إلى أن يتفاعل الجمهور العادى ويدخل معهم فى حوار ارتجالى حول الوطن وهمومه، وأ حسنى أبو جويلة يعتمد أساسا على ملء الفراغ المسرحى (بموتيفات) موحية ويستخدم السلالم الخشبية، الحبال، والتكوينات البشرية، فيحتاج العرض إلى متَلَق نموذجى يكشف دلالات العرض. كل هذا جميل ولكن أى مدرسة بين هؤلاء سأتبناها فى تجربتى الأولى روحى كانت مزحومة بالأخرين كحارس المتحف وتماثيل الملوك من حولى فى دائرة واسعة، أيًما ناحية التفت وجدت غيرى، يا رب أليس فى هذا المتحف الواسع مرآة؟ تقدم الشاب فقال (انظرى، يداى سوداوان، ولن تطهرا أبدا! هل ترين كيف تشققتا وكيف تنزفان، إننى لا أستطيع ارتداء ثيابى إلا لبضعة أيام لأنها تنتن بجرائم الأخرين) كنت لأقول له ليس هكذا وأعيد عليه أداء الفقرة لولا أن الجالسين صفقوا له بحرارة لما أخذهم الشاب بصادق الموهبة. تلك التى تنطق قبل الطفل وتُعلن عن تفوقه بآيات للمتوسمين. هنأنى موظفو رعاية الشباب والدكتور بيومى رائد النشاط للمستوى الذى

حققته مع الطلاب فى هذه الفترة الوجيزة. المشكلة عندى أننى بليد لدرجة تمنعنى من الحقد على الموهوبين، بل أجد نفسى مشدودا إليهم بعاطفة تنحت تفاصيلهم في قلبى. كذا حاولت أن أتمثل هيئة أ هاشم فى إدارته للفريق معتمداً على الإيهام الذى يصنعه لقب مخرِج فى نفوس الأخرين، ولكن الغطاء وقع فى الزير فلا هو سقى ولا غطَّى، والعيال بعد أن علمتهم النطق والحركة؛ كيف يصل الصوت الخفيض لأسماع بعيدة، وكيف يتحرك الواحد منهم بشكل قطرى فلا يعطى ظهره أبدا للجمهور، تمردوا على. حدث ذلك بعد أن أخذتهم لقصر الثقافة ليتعرفوا على الخشبة، فعرفوا من الناس هناك قدرى الحقيقى كببغاء فى الجوقة، تمردوا على بالتأخر عن مواعيد البروفات والإصرار على حذف الجمل الثقيلة، فكان لا بد من موهوب يعيدهم إلى عقلهم وينقذ المركب قبل أن تغرق، فالعرض أمسى وشيكا اُضطررتُ أن أطلب من محمد الحفنى المساعدة نظير نصف أجرى. كنت أنا وحفنى قد استأجرنا حجرة فى منزل فوزى نصار، الحجرة المجاورة لسليم الطبال، وكنت أنام فيها فقط؛ فبعد أن أنتهى من تجارب الأداء فى كلية العلوم كنت أحضر البروفة فى قصر الثقافة لأقف مع الجوقة، ثم أستأذن سريعا لا تفوتنى وجبة العشاء فى منزل عادل المصرى.

* * *

هى متمسكة بى لما عاينته من تقدم ملحوظ فى مستوى ابنها الذى بدأ يذاكر ويحفظ ويستظهر، فأنا ملقن ممتاز، وكان عندى

الحل الناجع لمثل حالته؛ فالولد لم يكن غبيا ولكن يحب اللعب ويعانى من مشاكل فى التركيز، والملل من المُكث على الكتاب شأن معظم الأذكياء. أنا فقط وضعت له الأساسات وهو جعل يصعد لوحده، فأذكر أننا أتينا على مقرر الرياضيات كاملا فى فترة وجيزة، وهو كالعفريت بدأ يبحث عن كتب خارجية تناسب مستواه الجديد وتعرِض عليه معضلات يتفنن فى حلها، حتى خشينا أنا وأمه أن يتفوق فى الرياضيات ويرسب فى بقية المواد؛ فكنا نجبره على حفظ النصوص فى مادة اللغة العربية والولد مرغما يحفظ، ولكن كانت له أسئلة كثيرة تحرجنى، فالولد يكتشف، سألنى ذات مرة:

- محمد أكل الطعام؟ (فقلت محمد مبتدأ وأكل الطعام خبر جملة فعلية). فقال

أكل محمد الطعام (فقلت أكل فعل ماض مبنى على الفتح ومحمد فاعل مرفوع والطعام مفعول به منصوب)

قال كيف يكون مبتدأً وفاعلا وهو لم يفعل سوى أن طفح الطعام؟ ثم كيف ترفع كان وأخواتها المبتدأ إن كان مرفوعا أصلاً؟ قال عادل مُتَفكِّها (والله يا بنى هذه الأسئلة هى التى جعلتنى أترك المدرسة) فنظرت هى إليه نظرة كهربته. أمسيت نادرًا ما ألتقى به فى البيت، بعد أن كان الاتفاق أن نحضر أنا وهو بإصرار من (غادة) / أم حسام. كنت أقضى ساعات أبحث عنه ما بين قصر الثقافة ونادى الغزل حيث تعمل فرقته فى صالة الأفراح أيام

الخميس، ومقهى السنترال حيث يحاسب أفراد الفرقة ويأكل عرَقهم، وحين لا أجده نضطر إلى إلغاء الحصة. لمحته مرة وأنا أمشى على الكورنيش فى شرفة نادى الموظفين، كان يجلس مع جلاليب وقمصان، فصعدت إليه وارتبك حين رآنى، لم يتركنى أجلس أو حتى أقترب منهم بل عاجلنى ونزل بى إلى الشارع.

ماذا تريد؟

غيابك عن البيت عطلنى وعطل الولد.

طيب قابلنى بعد ساعة فى البيت.

بعد ذلك طلبت منى هى بنفسها الحضور يوميا سواء كان زوجها موجودا أو لا وظلت حريصة على إبقاء باب الشقة والنوافذ مفتوحة على وسعها قطعت غادة إعارتها بشكلٍ مؤقت لتلتفت تماما إلى الولد وعادت تعمل كممرضة فى مستشفى الجامعة، تعود من عملها لتراجع مع الولد دروس الأمس إلى أن وقف الولد على رجله وطلب منها أن لا تعطِّله عن المذاكرة، ففرحت واستراحت وأضاءت لنا أصابعها العشرة تهيئة للدرس، تُعد لثلاثتنا عشاء شهيا لا تبخل فيه بالفراخ واللحم والأرز السعودى المخلوط بالحبهان والزبيب، آتى على نصيبى كله فتنفحنى نصيبا آخر وتحلف على أن آكله إلى أن زال عنى الخجل وأصبحت أُمايز بين الصدور والأوراك، والمسلوق والمشوى، أطلب منها أن تعد الجلاش أو البسبوسة. لم تكن تمانع فى تبصصى عليها إذ تمشى كالسمكة، بل أحسستُ شيئا منها يبتسم لذلك. استدرجتنى فى فخ العادة فتوهمت

وصدَّقتُ وهمى. صدقتُ أنها ترغب فى أب جديد لولدها، يحضر معها العشاء على الأقل، أبٌ مُتيم بِمشيتها وكلامها، بينما يترفه الولد تشرب معه الشاى ويتحدثان فى كل شىء، تحكى له عن الأطباء والممرضات ومشكلات العمل، تخبره أنها ملَّت السفر إذ تشعر وهى فى السعودية أنها تنتظر الإفراج عنها لتقضى معهما إجازتها التى لا تتجاوز الشهرين، أب تملأ عليه عينيه ولا تنظف قميصه من نساء أخريات، ولا يسألها حسام عن الزجاجات التى يعثر عليها فى رف المطبخ عليها كتابات أجنبية. قلت لها

أنت تشبهين نرمين الفقى.

أنا أحلى.

ثم انسحبت تتلوى إلى المطبخ، خمنتُ أنها الإشارة، فقمت بعدها اتسحب وفى نيتى أن أنفخ فى رقبتها، حين رأتنى خلفها فزعت واشتعل الرفض فى عينيها من جديد

نعم؟

شاى.

الشاى تطلبه وأنت فى مكانك، عادل على وصول.

عدتُ من المطبخ مهزوما، وفى الباحة رأيت الطاووس يرمقنى بتحدٍ. عادت هى بصينية الشاى والحلوى تبتسم كأن شيئا لم يكن، فلا أكلت ولا شربت بل قمت من مكانى، فنظرت مستغرِبة وهى ترشف الشاى ببطء، قلت لها سأذهب فوصَّلتنى إلى الباب.

الفصل الخامس

شيماء تنتظر، قال سيأتى اليوم معه زوجته المَجرية وبنتاه الشقراوان. منذ أكثر من شهرين يقول ولكن لا يأتى خالها الدكتور مصطفى، وهى لا تقطع الأمل. يا خالى الذى يعرف غالى الدواء، وزملاؤك إنجليزٌ وأمريكان، ممن يزرعون الأكباد والقلوب، ويجعلون أم السبعين عاما بنت عشرين، الناس بالعلم زرعوا القمح فى المالح، وهل عجزوا أن يثبتوا حبة فى أرضى؟ لا تبتسم فى وجهى يا مصطفى، اصنع شيئا" (حسن يا شيماء، يا أختى وابنة أختى، سأنتهى من أمور لى فى مصر، وآخذك معى إلى سويسرا أوروبا أصبحت قرية يقطعها القطار، أعدى نفسك واشترى ملابس ثقيلة للشتاء هناك) جعلت شيماء تنتظر ونسيت منذ أسابيع كرسيا فى الشرفة، وأمست تغفل عن الشاى الذى تضعه على سور الشرفة،

وتغفل عنى، لا تتذكرنى إلا بعد الطمث بثلاثة أيام لتعصرنى وتشد على ظهرى بغير وعى ولا متعة، ثم تدعو الله وتتصل بخالها، وتنتظر ولقد أكد لنا أنه سيأتي، فقط سيمر على قرية أبيه يسأله الدعاء الصالح، نيكول زوجته ستصور الغيطان والفلاحات، تحب أن تلبس الجلابية وتحمل على رأسها زلعة من الفخار؛ مثل لوحة خدعها فيها رسام مصرى واشترتها منه بخمسة آلاف، تُعلِّقها على الحائط فى البيت وتحدث الضيوف عمًا شاهدته فى قرية ميت الموز تأكل الفطير والعسل و(المش) بشراهة، رغم ما تعانيه بعد كل زيارة من تلبكات فى أمعائها، وحساسية تصعد على ظهرها ووجه البنتين، فيهرشن بقية الليل، والدكتور مصطفى يضع عليهن الكريمات. لن يتأخر هذى المرة فلقد وضعنا فى برنامج الزيارة، فنحن أهله وشيماء ابنة أحب أخواته إليه (المرحومة ثريا) التى يحب أن يدعوها المظلومة لا المرحومة؛ تزوجت صغيرة وطُلقت صغيرة وماتت صغيرة. حكى لى مرَّةً (كنت فى الثانية عشرة من عمرى، ورأيت زوجها يضربها فى وسط الشارع، وثريا كانت تلتف على شيماء بنت العامين كالصدفة، أما الجلف زوجها فلم يكن يحرك قلبه صراخهما ولا توسلات النساء على عتبات الدور، حملت قالب طوب أحمر وصككت به رأسه، فدار كمن أخذ جرعة بنج كُلِّى ثم سقط) قالت شيماء نعم حكت لى أمى عن ذلك فلم أكن أعى، وسموه من يومها، مصطفى الرجل، طول عمرك يا مصطفى تحب رائحة أهلك، كاد لا يحضر امتحان السنة الأخيرة حزنا على أمى

(لا يا رجل، شيماء لا تذكر جيداً، كنت وقتها أتخصص بعد البكالوريوس، لماذا تصر شيماء على قول ذلك رغم ما نبهتها؟ وهل حبى لثريا لا يكتمل إلا بهذه الكذبة؟)، قلت له أنت تعرف شيماء يا دكتور، إنها تستمع لخيالها أكثر مما تنتبه للواقع، فنظر إلى متسائلا إن كانت بيننا مشاكل، فقلت له ما زالت تخطئ وتنادينى باسم زوجها الأول. حاول التملص وطلب منى أن أُعمل عقلى المتفتح، أكدت له أن ذلك يكون وهى تحتى، فصمت. قالت شيماء: «لم تشهد قرية ميت الموز رجلا مثل مصطفى؛ يكسب القرش ويقرض المعذور، ويدافع عنى وعن أمى بصوت خشن يخيف خمسة رجال بنسائهم وأولادهم فى دار واحدة" قال (ثريا كانت أمى بعد أمى، بل وقبل أمى. أنا وهى وشيماء كنا ننام فى وسعاية الدار، وإخوتى ونساؤهم ينامون فى غرف مبنية، وكنت لا أقبل من نساء إخوتى أن يعاملنها كخادمة، وأقف لهن إن حاولن). قالت شيماء "النساء فى دار جدى أذاقوا أمى المر، وحرضن أخوالى على مصطفى؛ بعد الإعدادية اجتمعوا له ليلتحق بمدرسة الزراعة مثل خالى حسن الذى كان يعمل بالجمعية الزراعية، فوقف لهم وقال، من يطعمنى لقمة فليمنعها، وفر غضبان إلى الإسكندرية يعمل فى كل شىء، وعاد بالمصروفات وقمصان وبناطيل، وغويشتين من ذهب لأمى (أولاً، أنا لم أذهب غضبان، بل أخذنى أخى حسن من يدى إلى واحد من أبناء عمومة أمى يملك محل كباب وكفتة فى الإسكندرية، والرجل عاملنى كابن له وأكثر، ثم أنا لم أشتر

غويشتين من ذهب، من أين لى بثمنهما فى إجازة لا تتعدى ثلاثة شهور؟ ثريا هى التى باعت غويشتيها حين اقترحتُ عليها أن نتشارك فى محل يبيع الطعمية مثل أهل شبين، ولا أخفى عليك لقد راجت الأمور، حتى كنت أقرض أبى وإخوتى الذين كانوا يفلحون فى أرض الإصلاح الزراعى. إنما غضبوا منى حين رفضت الالتحاق بكلية الهندسة).. "كان يوما مشهودا، قال لهم خالى من أعطانى بالأمس فليمنعنى اليوم، طول عمره دماغه ناشف (طول عمرها مظلومة كأمها فاستوص بها خيرا، واطلب منى كل ما تحتاجانه) بعد أن ماتت ثريا أراد الخال الكبير أن يأخذ شيماء لابنه، فأخذها مصطفى معه إلى القاهرة، تدرس فى المعهد التجارى ثم زوجها من أحسن أصدقائه. كان مهندسا من البتانون، مليونيرا بالوراثة وأعمامه أعضاء مجلس الشعب، وإخوته بهوات. لكنه مات وترك لها ميراثًا تعيش به مثل أميرة.

* *

أحبابى
أخاطر فى محبتكم بروحى
نعم وأشرب كاسكم لو كان سمًا
وأجوب فى هواكم كل صعب
نعم وأركب بحركم، إما وإما

يقولها ياسين التهامى، فتخرج كلمة روحى من حنجرته، كما أظن الروح تخرج من الجسد هكذا؛ لخروجها صوت الناى، وهى فى

لون الدمع الصافى، يحملها أضعف هواء لتقف على الشباك لحظة أخيرة تودع قالبها ثم ترحل. قالت شيماء:

- حرام عليك تسمع الكفر

- أى كفر

- ياسين التهامى والمدّاحين.

قلت لها استغفرى الله. قالت استغفرْ أنت يا حافظ القرآن. الشيخة أم إياد قالت عنهم كفرة.

- أم إياد حماره وإياد جحش.

- تشتم ناس ربنا؟

وإحنا ناس مين؟ لا إله إلا الله.

- خالى مصطفى على وصول.

- يشرِّف.

البس البدلة.

- والله العظيم لأقابله بالبيجامة، كفاية أوامر

لم يأكلْ إلا الفاكهة؛ فلقد كانوا جميعا منتفخين بالأكل الريفى. طلبنا القهوة أنا وهو وجلسنا نتحدث فى الصالون. قابلته منذ أسبوعين فى مقر الشركة بالقاهرة فى حفلة شاى قاموا فيها بتكريمى أنا وزملاء أخرين كنت أنا أفضلهم على الإطلاق، فلقد تعدت نسبة المبيعات فى المنوفية خلال الستة أشهر الأخيرة ال ١٥٠٪، زادت عمولتى، وأصبح شبه معلن أن سيتم ترقيتى عما قريب. لاحظ بذكائه توترا أكثر فى علاقتى بشيماء، فبدأ كلامه بأن هنأنى على نجاحى

الذى لم يكن يتوقعه، وبدأ يلمح لتجربتى فى السعودية التى لاحقنى فيها سوء السمعة منذ الأسابيع الأولى وحتى تم طردى من هناك إلى شبين الكوم، فلولا مساندته، وهذه حقيقة، لم أكن لأعمل فى أى فرع من فروع الشركة. أخطائى هناك أساءت لسمعته هو نفسه، لكنه ساندنى لأننى زوج شيماء، هل هناك سبب أخر؟

- هل ستشارك فى مصاريف العلاج؟

- يا دكتور مصطفى، أنت تعرف أكثر منى أن الأمل معدوم.

- يجب أن تشعر شيماء أنك مهتم بها.

قلت إننى، بصراحة، لن أنفق مليما على امرأة لا تحفظ اسمى وتنادينى باسم رجل أخر، بل وتحتفظ بصورته فى سلسلة على صدرها، خذها معك يا دكتور وقل لها أن تحرق هذه الصور، وإلا والله سأُحرِق بنت أختك على مشهد من الجميع. أنا كنت فقيرا لا أكثر، ولم أكن بغلا ولا تيسا. خذها معك يا دكتور واعرضها على طبيب نفسانى لا طبيب عقم، ساعتها سأشارك فى تكاليف علاجها؛ إن كانت ستعود من هناك مثل زوجتك الأجنبية تلتقط لزوجها صورا على ذاكرة هاتفها المحمول. ولم أنته من كلامى حتى دخلت نيكول تقول (say chess) الجملة الإنجليزية الشهيرة لمن يريدون التقاط صورة لناس يبتسمون، فالتقطت نيكول أسوأ صورة لرجلين يضع أحدهما ذراعه على كتف الأخر

* * *

خرجوا من المنزل قرب منتصف الليل، بعد أن اتفقنا على سفر

شيماء مع خالها أول الشهر كان مصطفى ينظر إلى بعين مصرية سليمة خالية من تكلّف الجنتلة الأوروبية، لكنه نصحنى بصوت مخنوق من الغيظ ألّا أتعجل فى اتخاذ أى قرار شغّل محرك السيارة، وكنا أنا وشيماء فى الشرفة نلوح للشقراوين اللتين تمنتا لنا حياة سعيدة بلهجة مصرية مهشمة (اتْمسوا بالخير على طول)، نزل مصطفى من السيارة كمن نسى شيئا ولمحتُ هاتفه المحمول مدفوسا بين وسادات (الفوتيه)، فتحت شيماء الباب فجرها الدكتور من شعرها وهى تصرخ إلى حجرة النوم، ثم أمرها أن تخرج صور زوجها الأول التى تخبئها، فأخرجتها من فَتقٍ خفى فى مرتبة السرير نظر مصطفى إلى صور صديق عمره لحظة ثم مزّقها وكأن ذلك زاد من غضبه فوثب إلى شيماء ولكنى منعت يده عنها وعند الباب قال

الترقية ستكون أقرب مما تتوقع.

ما فعله الدكتور مصطفى جاء متأخراً، بعد أن فار التنُّور. منذ ضمنا بيت واحد وأنا أشكو إليه انصرافها عنى؛ يا دكتور روحها ليست معى، فيقول أنت تهوِّل الأمور، وينسحب بدبلوماسية إلى الكلام عن مستقبلى فى الشركة. ربما كانت ذات يوم امرأة أخرى، لا تكف عن الضحك والهذر كما يؤكد الجميع، وإلا لما أحبها ذلك المليونير وترك لها فى وصيته ثروة. لكنه فى المقابل أخذ روحها معه، وترك لى شحوبا وبكاء لا ينقطع. كثيرا ما كنت أسمعها تتحدث إلى شبحه، حتى أخاله سيظهر لى من ركن فى الشقة

ويسألني عن سبب وجودي هنا. أبدا لم أكن في حاجة إلى مثلها، ولو عاد بي الزمن لما ذهبتُ ذلك اليوم إلى صيدلية الدكتور صالح، حتى لا ألتقي بأم عصام التي أخذتني من يدي وزوجتني بابنة أخيها ولكنت بقيت مع الذين أحبهم؛ نشرب الشاي و نمثّل ونتظاهر ونحبس سويا نعم جمعت ريالات كثيرة، أكثر مما يمكن لهم أن يصدقوا، ولكني بعْت عمري بخسا. لن أنفق مليما على علاجها، حتى الشفقة لن أتبرع بها وهي تبكي جنبي الآن، كفُّها على صدري لسعات العقارب، وهذه الظلمة تخرج من حقدي عليها حلقة من الوجوه القاسية تدور في ظلام الحجرة كلها تصرخ في وجهي؛ مصطفى، شيماء، فهد الكاشف، ناصف شطا وصبيان سعوديون. (يا مصري تركبون سيارات. قرد. ما تتصلش تاني. يا مصري تدخرون ريالات. هيظبّطوك في الحجز قرد. أنت حرامي. مبروك الترقية. جربان. حرامي. قرد). أكثر ما حزنت عليه أنني لم أتماسك أمام فهد الكاشف لأراه وهو يضربني ذلك لأن ما تُوجِع هي الضربات الأولى فقط. الآن تزداد حدة الظلمة فأرى أوضح، ما فعله الدكتور مصطفى هو شأنه دائما، كابن سوق محنك، في تغليف القسوة بالود. منذ خمس سنوات في اليوم الذي قُدر لي أن أترك شبين الكوم، انتظرت أن يمر على بسيارته ليأخذني إلى شيماء، زوجتي التي لم أرها منذ يوم الدخلة، وكنت ألبس بدلة شتوية تجعلني أتعرق. وكانت ثمة بدلة صيفية جديدة في كِيسِها معلقة في سيارته، قال البسها

- فى السيارة؟

- ما عندناش وقت.

أخذ يتطلع إلي وأنا أحاول أن أتوارى فى المقعد الخلفى، كان يجيب على أسئلتى الساذجة ويضحك بود يخدع الكثيرين. ظننت أنه يريدنى على أحسن هيئة حين أقابل شيماء لأودعها، لكن لدهشتى تحرك بى إلى المطار

- أين شيماء يا دكتور؟

- قل لى (يا خال) أنا خال زوجتك، يعنى خالك.

تكلم فى هاتفه المحمول كثيرا، وتحدث عن الشغل طويلا، سألنى إن كانت البدلة تناسبنى ألف مرة، فهززت له رأسى مثل الهدهد ليتيقن من إعجابى بها ولا يعود لذلك السؤال.

شيماء يا دكتور؟

قال من الضرورى أن أبعث له رسالة برقمى هناك، ليطمئن على، ثم أخرج من جيبه دولارات كثيرة، دون رقم هاتفه على ورقة منها، فئة المائة دولار، ثم وضعها فى جيب سترتى.

لا تخجل منى، نحن أهل

ربما تنتظر شيماء فى المطار، جاءت مع واحد من أقاربها فسياراتهم كثيرة، سمعت فى صالة الانتظار رقم رحلتى والمدة المتبقية عشر دقائق ولم تأت شيماء. قال هو

- شيماء لا تحب لحظات الوداع.

أكدَ عليَّ أن أشترى محمولاً فور وصولى إلى (جدَّة) ، وأن أنتظر من شيماء مكالمة كل أسبوع إلى أن يتموا إجراءات سفرها فتلحق بى. لستُ بعيداً عن مراقبته الدائمة ولا كنت أتحرك على حريتى كما أرادنى أن أتوهم، بل كان يدفعنى من بعيد دون أن يظهر فى الصورة. لبثت فى (جدَّة) أسبوعين ولم يتصل بى أحدهم، برغم عشرين رسالة بعثت بها إلى رقم مصطفى الذى دونه لى على ورقة المائة دولار، فلم يخبرنى حتى أنه تسلمها، بل إننى أرسلت خطابا على عنوان أم عصام أقول فيه (يا خلق هوه، يا مسلمين، رقمى هو كذا وسلامى لشيماء، أريد أن أطمئن عليها) كنا خمسة عشر مندوبا تحت التمرين أكثرنا من مصر وسوريا، بعد انتهاء فترة التدريب وزَّعونا بحسب الكفاءات على مناطق مختلفة فى المملكة، إلا أنا، فلقد أخبرنى دكتور إبراهيم القائم على تدريبنا أن الدكتور مصطفى رشح لى (تبوك) ، كان اسمه يظهر فقط عند القرارات التى يجب أن آخذها بنفسى.

(المملكة- تبوك صيف ٢٠٠٥).

«أخاف تدبل ورودى ويجف غصنى وعودى
محتاج لك يا وجودى عسى يردك حنينك
يا شوج عينى لعينك»

فى سيارة يوسف عثمان ؛ زميلنا الأقدم ودليلنا فى تبوك الذى

كان يعرِّفنا بالأماكن ويأخذنا إلى مكتب الشركة، إلى الحين الذى نتسلم فيه أنا وممدوح غنيم سيارتينا يوسف شاب ودود لا يعيبه سوى كثرة الكلام والاطمئنان لأحكامه فى المقارنة بين مصر والسعودية. بدأ يصف لنا المدينة ونحن نتطلع من نافذة السيارة. تبوك بلد كبير، سوق ضخم لمندوبى الدعاية الطبية. البلد ينقسم إلى أحياء كبيرة، وكل حى منها مقسوم لجزأين، ليس مقسوما بمعنى الانفصال، ولكن رقم (٢) إنشاءات لاحقة على الحى الأول، عمارة الأحياء قد تصل أحيانا إلى حد التناقض بين حيين مثل (العُلَيَّا) و(الدخل المحدود)، اللذين تستدعى المقارنة بينهما عند المصرى المفاضلة بين الزمالك وبولاق، أو شارع الإستاد والعزبة الغربية لمن يعرف شبين مثلى، لكن الأحياء هنا يكاد كل منها يكون بلدا مستقلا بذاته. يفصل الأحياء عن بعضها طريقان رئيسان؛ طريق الملك عبد العزيز والذى يشق المدينة من أعلاها ويفصل بين (الدخل المحدود) و(السوق الجديد) و(تجمع القوات المسلحة). أما الطريق الثانى؛ (طريق الملك فهد) فيمر من أسفل المدينة بين حى الفيصلية لأعلى، وأحياء (السليمانية، العزيزية، والعليًّا) لأسفل، وثمة شارع طولى يسمى البلدية يقطع الطريقين والبلد من أعلى لأسفل. ساعدتنى ذاكرة اللقطة الفوتوغرافية عندى أن أحفظ خارطة البلد سريعا، لكنها فى نفس الوقت أرشدتنى لحقيقة أنه لا مكان لصعلوك فى هذا البلد الواسع الذى يركب كل الناس فيه سيارات والمقاهى عندهم حجرات منفصلة.

فى المكتب أوصانا المدير المصرى بالراحة لوقت تسلُّم السيارات، فحمدت الله، فقد انتشرت فى جلدى (تينيا) خبيثة زحفت إلى رقبتى، وأحسب أن شبين هى التى رمتنى بها قبل أن أركب فى سيارة الدكتور مصطفى. لكن الانتظار بلا عمل جعلنى أجلس مع السر الذى ألح على رأسى كالوسواس، ذلك أن عبورى إلى هنا كان يشترط خيانتى الصريحة لنفسى ولناس شبين الكوم، أولئك الذين سلمتهم بيدى للعقيد فهد الكاشف. وإذا فارقنى الوسواس عاودنى الحزن من ناحية شيماء ومصطفى اللذين لم يحاول واحد منهما الاتصال بى. تحسست جيبى فلم أجد المحمول ولا الفلوس فهرعت إلى الغسالة. وقف ممدوح ويوسف يتكتمان الضحك وأنا أعالج آخر ورقتين من فئة ال (١٠٠) دولار على شعلة البوتاجاز.

- ماذا تفعل؟!

الفلوس.

تحرقها؟

- أجففها

هناك حقيقة كان لا بد أن أعترف بها لنفسى، ثمة عالم آخر خلف شبين الكوم، عالم شخوصه متشابهون مثل سبائك الرصاص، كلهم أذكياء وعلى درجة عالية من الطموح، يتكلمون لغة بسيطة تتكون من الكلمات التى يحتاج إليها الفرد فى التعاملات اليومية. وعندهم كل المعايير تخضع لوحدة قياس غليظة (الريال). لم تكن عندى مشكلة فى تقَبلُ العمل فلقد كنت أعرف عن الدواء أكثر مما

يعرفون، وأستطيع أن أجمع مادته من محلات العطارة وأمزجها وأنا مغمض العينين، لكن حتى الدكتور صالح، عبقرى التركيب الذى علمنى فنون الكيمياء القديمة، ما كان ليفلح فى البقاء فى ذلك العالم ليومين. فهناك عليك ألا تحزن ولا تسهو ولا تحكى ولا تسهر ولا تنام ولا تغضب أكثر من اللازم. إذًا سأترك الكيمياء الحديثة تصنع منى سبيكة الرصاص المطلوبة، ما علىَّ إلا أن ألمس واحدا منهم حتى يحدث ذلك.

«زيدينى غرقًا يا سيدتى، إن البحر ينادينى
زيدينى موتا، علَّ الموت
إذا يقتلنى يحيينى».

سمعت صوت الكاسيت عاليا فطرقت عليه باب حجرته، وناولنى كوب الشاى الذى زهده حتى يستطيع النوم. كان ممدوح غنيم يفعل ما هو فى رأيى مثيرا للدهشة أكثر من وضعى الفلوس فى طبق حين كنت أجففها، كان يكوى ملابسه الداخلية، الفانلة والشورت، ثم يضع ما انتهى منه مطبقا بعناية على السرير خلفه. بعد حديث قصير بيننا تجاوز ممدوح اللياقة وتناولنى بالسخرية فى هيئتى وطريقة كلامى. أنا أيضا كنت أستحق ذلك، ما الذى جعلنى أتحدث عن الشعر، ولماذا كنت أجلس متمسكًا بكوب الشاى مثل العذراء؟ المصيبة الأكبر أننى حين حاولت الوقوف أمامه كند له

تكلمتُ كمثقف ثرثار، ما جعله يستدعي يوسف من حجرته ليضحكا كلاهما من طريقتي في الكلام. كانت الفجوة بين العالمين واسعة جداً ولا يمكن تخطيها بمجرد التفكير في ذلك. كان لا بد أن أتكلم وأحكي عن شبين والشعر ولا بد أن أسمع حكايات جديدة، هكذا يعيش الصعاليك.

*

تعرفت عليه في (مقهى الدانة)، ثمة ركن للأجانب جلست في حجرة منه أدخن الشيشة العالية التي تنفث دخانا كالقطار، إنما بلا نكهة، ومن فوق كوب الشاى المنقوش على زجاجه بماء الذهب، رأيته وقد مل النادل اليمنى من إقناعه بأنه لا يجوز الدخول على أحد في مقصورته لكنه اقتحم على خلوتي والنادل من خلفه.

- يا أخي ما فيني أقعد لحالي.

بسام مهندس سوري له عام في تبوك، ويعمل في سوبر ماركت (الأندلس) بحي الفيصلية. أخبرته أنني أسكن أيضا بالفيصلية (٢) بشكل مؤقت، سألني عن العنوان فأخبرته أنني أعرفه بذاكرة القيادة، فما زلت جديداً على البلد.

- إلك يا أخي لا تأخذني، هلا حكيت إنك ساكن بشكل مؤقت؟

- تمام.

- وليش بدك تترك السكن مع رفقاتك.

- مش مرتاح معهم.

- أنتم المصريين فيكم تطفشو العفريت.

؟

- ساكن معى زلمه مصرى، يا لطيف يا الله.

كان ناصف شطا يعمل مع مقاول مصرى من أقاربه، لكن بعد فترة طرد المصريون ناصف لسوء سمعته، ويده الطويلة.

- أنت غلطان إنك سكنت مع واحد مثله.

- فى الأيام الأولى ما ظهر لى على حقيقته.

كان ناصف فى البداية ينفق بسخاء، ويشترى لوازم المعيشة لكليهما ثم يرفض بجدعنة مصرية أن يأخذ فلوس من بسام. بدأا يتنافسان فى رد الجميل وإظهار السخاء على بعضهما البعض إلى حد أرهقهما، فصارحه بسام بذلك، فقال له ناصف لا عليك وأعطاه ريالات كثيرة ليتولى بسام شأن الإنفاق على البيت بالطريقة التى تُرضيه. ولكن حدث أن ناصف انقطع عن العمل وأصبح ينام النهار والليل إلى أن نفدت الريالات التى أعطاها لبسام، ولم يسأل ناصف عن حساب الأكل والعصائر التى أدمن عليها وهو رابض للتليفزيون. طَبَّق بقبضته علبة السجائر الفارغة وسأل بسام عن سجائر، فقسم معه علبته بشهامة سورية، لكن ناصف عاد يسأل عن طعام وعصائر

- إيه الحكاية، أنا مش مديك فلوس، هتنشفها علينا ليه؟

- المصارى ياللى عطيتنى إياها خلصت، ولا تآخذنى أنا مانًى مليونير

- ياما صرفت عليك.

- وهلا ليك أسبوعين باصرف عليك .. بيكفي .

بدأ ناصف يخرج في أوقات غريبة ويعود، فلا يلتقيان إلا نادرا. في واحدة من تلك المرات عاد ناصف يحمل معه لحما ودجاجا مجمداً ومياة غازية وعصائر، باس على رأس بسام وتصالحا، لكن بسام رفض أن يعيد الكرَّة ويأخذ منه ريالات بدتْ أكثر من الأولى.

اشتغلت ؟

- تقريبا.

بدأ ناصف يدخل البيت في صحبة مراهقين، وحوّل لهم باحة الشقة إلى مقهى. في كل مرة يعود بسام من السوبر ماركت كان يرى واحدا من المراهقين يتبصص من النافذة، وما إن يراه، حتى يدخل مسرعا فيقابلهم بسام عند باب الشقة، هو داخل وهم خارجون.

شككت في أمره لكن ما ظنيت الأمر صاير لهذا السوء.

اقترب بسام من أذني ليحكي ولم تكن ثمة ضرورة لذلك ونحن في هذه المقصورة، قال (وجدت حجرته مغلقة عليه من الداخل والنور مضاء، وسمعت تأوهات وضحك من كليهما، ولما فوجئا بي عند الباب انصرف الصبي دون أن يمازحني كعادته، وسأل ناصف باضطراب

- متى رجعت ؟

- من الحين بدك تشوف لحالك سكن تاني)

* * *

ركبنا مع يوسف سيارته إلى (حقل)، التى تبعد حوالى ٣٠٠ كم عن تبوك. من (حقل) كنا نرى أنوار سيناء على الضفة الأخرى من خليج العقبة. يوسف اعتاد أن يزور المستوصف فى حقل مرة كل شهر تقريبا، كجزء من العمل، وأيضا يهاتف أهله فى مصر تكلم يوسف لأكثر من أربعين دقيقة، وفعل ممدوح، ولقد حاولت كثيرا دون جدوى، فقط سمعت صوت أم عصام مرّة لكنها لم تسمعنى لضعف فى الشبكة صادفنى وحدى، إلى أن وضعتْ أم عصام السماعة وهى تلعن المتصل الذى لا يرد.

- بمن كنت تتصل؟

- زوجتى.

- إحك لنا عن ليلة الدخلة.

قال ممدوح ممازحا (١٠٠ ريال منى لعشرة ريالات منك، لو كنت لمستها ليلة الدخلة، لكن بشرط أن تحلف بالله) نظر يوسف إلى المقعد الخلفى فى مرآة السيارة واندهش إذ رآنى أخرج من جيبى العشرة ريالات فى صمت. رفض ممدوح أن يأخذها ونصحنى بتقبل المزاح، لكنه قبل أن يعود برأسه رمقنى بنظرته المحبطة. أنا مع الوقت اعتدت على سخافته كواحدة من ضرائب الاغتراب الكثيرة، فإذا ما قارنت نفسى ببسام فأنا محظوظ بلا شك. علاوة على أننا بدأنا العمل بالفعل فأصبحنا لا نلتقى إلا فى مواعيد القيلولة والنوم. كان يوسف يأخذنا فى سيارته فنتوزع على المستوصفات، ثم نعود

للمنزل بالتاكسى. لم يكن ممدوح يكتفى بالفترة الصباحية، بل كان يخرج مع يوسف مساء للمرور على بعض الصيدليات، وكانا يأخذانى فى طريقهما إلى مقهى الدانة لألتقى ببسام الذى توطدت علاقتى به. كان بسام يقرأ ويحب فيروز ولا يرى غضاضة فى الكلام عن الشِّعر، فقط كان يجدنى مبالغا فى كلامى عن شبين الكوم، ولا ينطق اسمها بشكل صحيح.

* * *

من نافذة فى المكتب أشار لنا د. خالد إلى سيارتين، إحداهما كانت (هيونداى أكسنت ٢٠٠٢)، والأخرى (مازدا) قديمة. وقَّعتُ على تسلُّم الأولى بينما رفض ممدوح أن يوقع على استلام الثانية.

وقِّع يا ممدوح

- أفهمُ أولاً

عاد ممدوح للسكن ينتظر أول من يكلمه لينفجر فى وجهه، فتحاشيته ما استطعت. الحقيقة أنه كان أولى منى بالسيارة الجديدة، لكن يد الدكتور مصطفى هى التى بدلت الورق من بعيد. ممدوح خريج صيدلة، فضلا عن أنه كان مندوب دعاية نشيط؛ يفضل الساندويتشات عن الجلوس للطعام، وينام ست ساعات على الأكثر، وهو بحاجة إلى سيارة تحتمل طموحه الزائد دخل يوسف يسأل عن مشادة حدثتْ بين ممدوح ومجند من الطائف يسكن نفس الشارع الذى نسكن فيه؛ كان ممدوح قد أوقف (المازدا) أمام المبنى،

فطلب الرجل من ممدوح أن يفسح له ليمر بسيارته. حين حكى لنا كان يسب ويلعن كل شيء، فأشفقت عليه وناولته علبة عصير، فلطم يدى لترتطم العلبة بالحائط. لم يكن حقده على مرتبطًا بالسيارة فحسب، بل وقوائم الأدوية التى نسوِّق لها ثلاثتنا، كانت أيضا موزعة بشكل ملغز أخرج ورقة صغيرة يقرأ منها الأدوية التى كنت سأقوم بالتسويق لها (باراسيتامول خافض للحرارة، ديكلوفيناك مسكن للألم، مجموعة سبيرو مضادات حيوية). كلها منتجات لا تحتاج مندوب دعاية لتوزيعها، وغالبيتها تباع فى السوبر ماركت

الشركة تعتبرك عدداً زائدا، أنت لا شيء.

وأنت مالك يا أخى. سيبنى فى حالى.

أصبح من الصعب العيش مع ممدوح فى منزل واحد، ولقد ملَّ يوسف من الفصل بيننا، حتى خلال السويعات القليلة التى كنا نلتقى فيها، لكنى حين نظرتُ فى وجه يوسف وجدته يفضل لو بحثت أنا عن مكان أخر، فلم أحقد عليه لذلك، وإنما تعشمت فيه أن يصبر عليَّ قليلا حتى أعرف إن كانت شيماء ستأتى أم لا، ساعتها كنت سأحتاج بلا شك إلى سكن أخر ما فعله الدكتور مصطفى جعلنى موضع سخرية من الجميع، وضيع على فرصة تكوين صداقات من داخل الشركة، مع أننى كنت فى حاجة إلى الشغل أكثر من غيرى. فقد زاد على الوسواس وفقدتُ الحد الأدنى من التركيز الذى يجب مراعاته فى مساكنة الأخرين، كأن أنسى

براد الشاى على البوتاجاز حتى يجف ماؤه ويتقشر، ولوسواسى كنت أضع ورق التواليت بين جلدى وبين مقعدة الحمام ثم أنسى الورق، فيأتى أحدهما يطالبنى برفعه. ضاع منى مفتاح الشقة مرات كثيرة، فأتصل بيوسف الذى كان يترك عمله ويأتى ليفتح لى الباب بمفتاحه، أثرثر بلا ملل، حتى شجارى مع ممدوح كنت أجده أحيانا مفتعلا من ناحيتى لأتكلم. إلى اليوم الذى قمت فيه من نومى متأخرا وبحثت عن المفتاح فلم أجده، فقررت بغباء أن أضع ورقة مطوية بين الباب والإطار، وعلَّقت القفل مفتوحا من الخارج، ذاك لأنى خجلت من كثرة اتصالى بيوسف لنفس السبب، ولظنى أننى كنت سأعود للمنزل قبلهما عدتُ لأجد الباب مفتوحا ورأيتهما يتفقدان محتويات الشقة، فلما أخبرتهما بالحقيقة ثار كلاهما فى نحو لم أر عليه يوسف من قبل، لكنه حين هدأ لَمح لى من قريب جدا أن أذهب عنهما فى أى داهية، كأن يقول (أنت من النوع الذى يفضل العيش وحده، أعرف من هم كذلك)، أو يشير إشارة واضحة إلى انتقالى للعيش مع بسام السورى. وكنت قد حضرت بنفسى مراسم طرد ناصف شطا من المنزل. طلب منى بسام ذلك لينتبه كلانا إلى يده الطويلة، فلا يسرق شيئا يخص بسام وهو يجمع أشياءه ليرحل. وأنا أحمل مع ناصف حقائبه للخارج طلب منى بعشم مصرى فى مصرى، فأعطيته (١٠٠) ريال وتمنيت له بلسانى غربة أقل عناء. غَسل بسام الحوائط بصابون كثيف وفرشاة، وترك الكاسيت يقرأ أكثر من نصف القرآن فى باحة الشقة والغرفة

التى تركها ناصف. ولما لَمح لى يوسف أكثر من مرّة، طلبت من بسام الانتقال إلى شقته بشكل مؤقت، فجعلنى أكرر عبارة بشكل مؤقت حتى لا أنساها، فضحكتُ وكررتها حتى طمأنته، شهر أو شهرين يا بسام وتأتى زوجتى. لم أكن واثقا من ذلك؛ فطيلة الثلاثة شهور التى قضيتها فى المملكة لم أتلق اتصالا واحدا يؤكد زعمى. وجدت انتقالى إلى سكن آخر ذريعة جيدة لرسالة أبعثها على رقم مصطفى. ولم أعرف حتى إن كان قد تسلمها كل ما كنت متأكدا منه أنه يعرف عنى كل شيء، وينتظر اللحظة التى تحتم على قرارا ما فيصنعه هو حتى الخميس الثالث من انتقالى إلى حى الدخل المحدود لأعيش مع بسام، لم أكن قد تلقيت ردا على رسالتى ويئست من أن يفعل.

كان الجوال يرن بلا توقف، الأمر وما فيه أن صيدلانيا هنديا يتولى إدارة الصيدلية فى (مستوصف الملك فهد) أراد أن يعطينى طلب شراء لبعض الدواء الذى أسوق له، ومستوصف الملك فهد يحصل على خصم ٣٠٪ من ثمن أى منتج، لأنه المختص بالتأمين الصحى لموظفى الشركة فى تبوك. لكن الهندى كان يرتب لأن يستقبل الدواء صيدلانى آخر فى واحدة من الصيدليات الخاصة خارج تبوك بخصم ١٠٪ فقط، ثم نقسم ثلاثتنا ال ٢٠٪ الزائدة. أوعز لى ووعدنى بفرص قادمة للتعاون، وأنا طيلة يومين أبحث عن صيغة رفض مهذب لا يقطع العلاقات بيننا فيضر ذلك بعملى، وهو

لم يتوقف عن الاتصال بى إلى أن كتمت صوت الجوال ووضعته إلى جانب الكاسيت الذى كان يصدر ذبذبات متقطعة عطلت الغناء.

ولما قررت الرد أخيرا وجدت على الشاشة اسم الدكتور مصطفى.

- أنت فين يا بنى آدم؟

- تحت أمرك.

لم تركت زملاءك؟

مشاكل.

- أنت بخير

بخير، ولكن شيماء؟

ركز أنت قى الشغل. مستعجل ليه؟

ثم هدأ شيئا وقال بصوت عميق (دى فرصة علشان تعمل فلوس. فاهمنى؟)، أكد على جملة تعمل فلوس أكثر من مرَّة، ولم يذكر شيئا عن شيماء. وتعجبت فى البداية من مصادفة اجتماع رقمين على شاشة المحمول، كلاهما كان يؤكد علىَّ أن أجمع فلوساً فى هذه الغربة. ما لى أنا بالهندى وغيره. أخذت واحدة من اسطوانات فيروز التى يرصها بسام بعناية، ووضعتها فى الكاسيت.

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك».

افتقدتُ شبين وناسها ومقاهيها، أُتلفن لهم من حين لأخر ولا أتكلم فتريحنى حتى شتائمهم التى تصلنى وتعودنى بخير فى

غيمة من الشجن والوهم والشبق قُمتُ أراقص في خيالي غادة زوجة عادل المصرى، ثم مشيتُ بمخيلتى إلى قصر الثقافة، وشارع البحر، خلال ما كنت أدور في الغرفة حول نفسي. وانتبهت من نشوتي لضحكات هازئة فوق رأسي.

- ترقص يا روح أمك؟!

كان ناصف شطا ومعه ثلاثة من المراهقين، هل نسيت الباب مفتوحا كعادتي، أم فتحه هو دون أن أشعر؟ وكانت هجمة، لم أكن أنا المقصود بها ولكن بسام، الذى غير ميعاد مناوبته في السوبر ماركت، ولم يعلم ناصف بذلك، ولم يعلم بانتقالى للعيش معه، لكنه لم يجد مانعًا من التنكيل بي كمصرى آزرت عدوه السورى عليه. كمموا فمي وقيدونى ثم رفع ناصف صوت الكاسيت ليتلذذ بتعذيبي، دون أن يسمعه أحد.

«لم أدر ما طيب العناق على الهوى   حتى ترفق ساعدى فطواك».

التفُّوا في دائرة من حولي، يقول كل واحد منهم كلمة ويتبعها ضربة بعصاه كيفما اتفق.

- يا مصارية تركبون سيارات.
- يا بن الوسخة الفلوس فين.
- يا مصارية تدخرون ريالات.

ثم جـردونى من ملابـسى، وأرادوا الـتـنـكـيـل الأسـوأ لـولا بـقـايا (التيـنيا) التى ظلت بـقعا منها على ظهرى، هى التى رحـمتنى منهم (يخرب بيت أمك، أنت جربان!)، لكنهم واصلوا ضربى بلا رحمة منهم ولا من وعـيى الذى ظَلَّ متمسكا بى، تماما مثل اللحظة التى علمت فيها بموت محمد الحفنى، واللحظة التى أشرت فيها بيدى إلى خالد علام ليلحق به المخبر ويضعه فى البوكس. شبين لا تغفر الخيانة وتلاحق الخائن فى كل بلد سحبت منى روحى بلا موت ولا غيبوبة شفيقة. ثم جثوت على ركبتى أتوسل فلطمنى برِجْله لطمة أعفتنى من ذلك الوعى المذبوح.

«لا أمس من عمر الزمان ولا غد جمع الزمان فكان يوم لقاك».

الفصل السادس

كانت فكرة الجيل قد تبلورت أو على وشك، وشبين قد تزينت بخضرة صيف فَتى، ربما بأكثر مما تحتمل الفروع القديمة. تزودَ الشعراء بلُغة خاصة لها رائحة الناس وبخار الشاى الساخن والنيل والكورنيش. امتلك الصعاليك حكايات وجاذبية تحمل إليهم الولائم، وتدفقت على شبين أسماء وأسماء، فى المسرح والأدب والسياسة والدين وغير ذلك. أسماء أكثر من أن تحصى فى مجلس واحد، ولكن ليس أسهل من أن تجلس معهم وتحبهم هكذا فقط لو كنت مررت علينا وسألت من هؤلاء الذين يضحكون، هل رأيتهم؟ أنا ذلك النحيف القادم عليهم أبدا فى قميص سماوى، هل رأيتنا؟ يبدو أنك لا تذكر أو لا تعرف شبين جيدا، سأحكى لك.

* * *

ليس هناك أفضل من أن تعشق وتمشى فى شبين عصراً ، لا تركب السرفيس ولكن تمشى بعد حمام بارد ، تراقب فى شارع الإستاد فتيات شبين الأشهى صيفا ، ثم لو ابتسمتْ لك خمرية بين صاحبتيها الجميلتين ، أتحداك يا مسكين إن لم تُدمن على تلك النشوة التى جعلت منك عاشقا . كادت غادة أن تنسينى جمال هذا العصر بجمالها ، وكلا الجَمالين أعشق إلى الحد الذى جعلنى أغضب منها أخذت منى كل شيء وربطتنى على كرسى فى البيت أذاكر لابنها ، ولم تبل ريقى بكلمة ، ونظرة الرفض فى عينيها لم تفترْ أبدا ، رغم كل هذه الأمسيات والضحك والخلوات المُتهيئة بأحسن مما لو رتبنا لها لم تسمح لى بشيء ، إلا كما تقول امرأة بغدادية من ألف ليلة (انظر إلى ما يُلهب جلدك ويفطر قلبك ، ثم يطأُه غيرك) . لكن لا يا غادة ، سأدعى أننى تعبان وعندى ظروف ستمنعنى عن حسام لأسبوع ، ربما خلاله تتخلى عيناك عن ذلك الرفض .

السلام عليكم .

- أنت فين يا عم ؟ حمد الله على السلامة .

ضم المجلس عادل عواجة ، يوسف النقيب ، أحمد نعيمة ، سيد جابر ، محمود الحما . . وأخرين ، فى دائرة كبيرة حول طاولة فى مقهى (أبو يوسف) ، والحديث عن النساء ، كأن الهواء كان مشحونا بالعشق يا خلق الله . على كرسى بعيد تحت عادل المصرى ينظر فى الساعة ويدخن الشيشة على طريقته فى إخراج الدخان سريعا بلا تمزُّج ، ثم جاءه شاب يحمل أوراقًا فجلس معه . استأنف سيد جابر

كلامه بعد أن انحشرت بينهم فى الدائرة (لا بد أن تشعر الجميلة بإهمالك لها، لأنها ستجد كل ساعة من يصارحها بحبه، مهما تكبدت من عشق فلا تصارحها أولاً).

أحمد نعيمة   السيد كلامه مضبوط.

طاهر البربرى: البنت المصرية مشروعها الوحيد اصطياد زوج، لا حب ولا خلافه.

سيد جابر   مفتاح أى امرأة فى الكلام، إيه الشياكة دى، البرفان يجنن.

طاهر البربرى: البيرفوم يا جاهل، وبعدين أنت بتأسس لطريقة كلاسيكية قوى.

يوسف   قبل الزواج تكون الست جميلة، لكن بعد الزواج.

عادل عواجة   لا يا يوسف، ساعات لما تكون دماغك رايقة من غير ديون ولا مشاكل، تراها أحلى من ليلى علوى.

سحب عادل المصرى كرسيا واندس بيننا كالشيطان بعد أن انصرف الشاب الذى كان معه، تدخل فى الحديث بدون دعوة ونفث سُمَّه (علشان الست تكون ليلى علوى، لازم تراك رشدى أباظة، يعنى لازم ولا مؤاخذة، تعمل الموضوع إياه بمزاج)، ثم أخرج من جيبه حبوبا ملونة وشرح فوائدها، ثم بوقاحة جعل يشرح الأوضاع المستحبة فى الجماع، حتى أحسست أن غادة صعدت من كلامه على الطاولة بيننا وتعرَّت، والكل يتحسسها، فأكلتنى الغيرة عليها

- كلام فارغ.

- خلِّيه يكمل.

- متى كنا نتكلم هكذا؟

تدارك طاهر البربرى الموقف (خلاص يا جماعة، غيروا الموضوع) فطن عادل إلى غيرتى أو هكذا قرأت من عينيه، لكنه لم يلبث أن فشخ حنكه وضحك باستهتار لفت الجالسين إلينا أكثر شيء ما فى ضحكته قال لى إنها لن تهتم لغيابى أسبوعا أو شهراً، لكن حسام فعلا لن ينجح بدونى، وبقدر ما أسعدنى ذلك الخاطر غمنى. ماذا بعد أن ينجح؟ إذاً لا مبرر يجعلنى أجلس إليها أو أراها، فقط ٢٠٠ جنيه باقى أجرى ثم يغلق الباب من دونى، وأنزل سلم بيتها درجة درجة، أشم رطوبة المدخل وظلمته اللتين ألفتهما، كما يألف العابد ظلمة الليل وبرده لأن من ورائهما الجنة. ثمة رجل ينظر من بعيد ولا يرفع عينيه عن مجلسنا، هل أعرفه؟ هناك أمام صيدلية النجدة، الذى يلبس الجينز الأزرق و لقميص الكاروهات، صدقونى إنه يتابعنا منذ فترة. من هذا؟ وقف عادل عواجة ينظر إلى الرجل قبل أن يشير إليه بلهفة (عباس. أحمد عباس). قفز له الأخر من فوق الرصيف، وأخذ يستوقف السبارات ليعبر إلينا أسرع وارتمى فى حضن عادل ساعة. وقف الكار غير مصدقين (هو والله عباس)، وسألتُ أنا ومن لا يعرف، من عباس؟ أحمد عباس هو التلميذ الأنجب فى مدرسة الأستاذ هاشم العدوى، ترك الفرقة لأسباب غير معروفة منذ حوالى سبع سنوات، قبل أن أنضم أنا إليهم، ثم ها هو ذا عاد ليحكى.

(طوال السنين الفائتة وأنا خرمان. كأنى فى شقة مقفولة على، كل شىء خارج قصر الثقافة فلوس فلوس، ملعون أبو الفلوس. الناس يحسبونكم مجانين، وأنا أيضا قلت عنكم كذلك، لكن كل الزحام الذى ترونه خارج القصر هو لا شىء؛ أنا مثلا، ماذا حققت فى سبع سنين؟ لا شىء، ماذا حقق العالم كله فى سبعين سبع سنين؟ كذب. لى شهور وأنا أمر من نفس الطريق وأقف فى نفس المكان، وفى كل مرة كنتُ أمنع نفسى من عبور الشارع، لأنى أعرف أننى لو جلست معكم مرة أخرى سأطلِّق كل شىء بالثلاثة والثلاثين) قالوا حمد الله على السلامة يا عباس، وتكتموا على الخلافات القديمة التى جعلت عباس يترك الفرقة، ونظرت فى ابتساماتهم فوجدت قلبى يهيئ مكانا للقادم الجديد. ذلك اليوم كان قصر الثقافة يستقبل فرقة من الهند وكالعادة لم تكن هناك دعاية، ليس أكثر من لوحة مكتوبة (بالفلومستر) السميك على حامل خشب أمام قصر الثقافة، ودائما لا يلاحظها أحد، فاضطر الأستاذ فارس مدير القصر أن يجمع الناس بنفسه من مقهى (أبو يوسف).

- يا جماعة، العرض بدأ

ورأينا كما فى الأفلام الهندية؛ نساء بطونهن عارية وعلى جباه بعضهن نقاط حمراء، لم يكن فى رشاقة وجمال نجمات السينما، كما لم نكن نحن فى روعة نجوم السينما والتليفزيون، كان معهم ثلاثة رجال يهزون رؤوسهم مثل الحمام عندما يتكلمون أو يغنون. أكثر ما كان يخشاه الأستاذ فارس أن الهنود كانوا سيؤدون خمسة

عروض راقصة فى ثلاثة منها يستخدمون الشمعدانات والمجامر، ولأنهم كانوا يحظون باهتمام وزارة الثقافة فلقد أمر الأستاذ فارس بإخراج السجاد الأحمر من المخازن، ما العمل والهنود كانوا مصرين على استخدام النار فى رقصاتهم؟ جاءت فتاة هندية تحمل (البام نفلت) لتكلمنا ثم جعلت تشير إلى حروف هندية كأنها على ثقة من أننا نفهم ما تهدر به بلا توقف، الغريب أنه لم يكن بين كل هؤلاء الذين يهزون رؤوسهم مترجم واحد، ومن حظ الفتاة السيئ أنها لجأت إلى محمود الحما، صاروخ الكوميديا والمصيبة المتجسدة، أخذ يتحدث إليها ويهز رأسه مثلهم، ويقول (آهاه..آهوه)، يتكلم بالعربية المقلوبة لتبدوا مثل الهندية (كرفاك سيانينى كدبع لعانيعى)، والفتاة تضحك وتهز رأسها، لكنها بعد فترة بدا عليها الضيق وزرت عينيها، فأمسك محمود بمرفقها وغنى بالعربية المقلوبة على الطريقة الهندية، فلم تمانع الفتاة فى الرقص معه، وكلنا نضحك. مرة أخرى تطوع طاهر البربرى لإنقاذ الموقف، إن كان إنقاذ الموقف يعنى أن يتم التقديم لبرنامج الحفل بالإنجليزية، بحيث لا يفهم معظم أعضاء الفرقتين، ولكن على أى حال تم التقديم بشكل مشرف جعل الأستاذ فارس ينجعص فى كرسيه بين المقاعد الأمامية. بدأ العرض، وللحق فقد استمتعنا فى البداية بالرقص والغناء حتى مع وجود حاجز اللغة إلى أن قرروا استخدام النار، وسقطت شظية على السجاد الأحمر، هنا انتفض الأستاذ فارس وأشار (لعلى السمكرى) فنى المعدات الصوتية، وأشار للفراشين

الذين صعدوا إلى الخشبة يطفئون الشظية بأقدامهم، أسر على السمكرى إلى الأستاذ فارس أن السجاد تخرق فى أماكن كثيرة، بينما الهنود ظلوا على رقصهم. شارك الأستاذ فارس وعلى السمكرى فى العرض الهندى بأن جعلوا كلهم يطبِّلون على الخشبة بأقدامهم كلما سقطت شظية، ولكن حين سقطت شمعة كاملة أشار إلينا الأستاذ فارس لنصعد كلنا، فقمنا معه نطبل. الغريب أن الهنود كانوا مصرين على استكمال الرقص، برغم ما رأوا الجمهور والإدارة واقفين معهم على الخشبة، كلنا إلا أحمد عباس الذى سقط على كرسيه من الضحك حين رأى محمود الحما يرقص بجسمه السمين مغافلاً الأستاذ فارس.

*

لم أستطع صبرا، لا لأسبوع ولا ليومين، كل وعودى لنفسى بالعناد ذابت مع حر اليوم الثالث، وبدلاً من أن أذهب إلى قصر الثقافة أخذتنى رجلاى فعبرتُ المزلقان ودلفت لحارتها، ثم صعدت السلم وعلى لسانى أبيات لحجازى (لا تسألينى إن أتيت فى مساء غد، وفى مساء بعد غد ماذا تريد؟ لأننى سأدعى أنى نسيت عندكم كتاب، أنى نسيت علبة الدخان ليلة الأحد، أنى أريد. ما الذى أريد؟) لدهشتى كان الباب مفتوحا وميزتُ ضحكتها بين رجال كثيرين، لَمّا نظرت برأسى سكتوا قامت هى من بينهم فى ملابسها الخفيفة ترحب بى ثم أجلستنى مكانها هم أربعة شباب أحدهم كان الشاب الذى رأيته مع عادل منذ يومين عند أبى يوسف كرهنى

الجالسون لذلك الخلل والتناقض الذى أحدثته بجلوسى فى كرسى غادة، ماذا يفعل هؤلاء عندها، وأين عادل الديوث؟ ولما عادتْ بالعصير قالت لهم (خلاص يا جماعة. بعد أسبوع من النهارده). قاموا وكلهم حقد على وتعمدوا مصافحتها بالأيدى، وكل واحد منهم كان يتظرَّف معها ليضحكها قبل أن ينصرفوا، فلما خرجوا أقفلت الباب من ورائهم ونفخت.

- يا ساتر على ثقل دمهم.

- أنا مبسوطة إنك جيت، خلصتنى منهم.

مين دول يا غادة؟

أقاربى.

- لا

أقصد أقارب عادل.

- ولا أقارب عادل.

تحاسبنى كأنك زوجى، عجايب!

- أنا آسف.

كانت تخبئ وجهها عنى وتقول أى كلام (حسام على وصول.. مستواه تحسن على يديك)، ثم قدمت لى كوب العصير وهى تقول (كنت أعرف أنك ستأتى). عادت بعد دقائق تلبس عباءة صيفية تتموج على جسمها وتصنع أوهاما فى مشيتها لم تحرص هذه المرّة على ترك باب الشقة مفتوحا ما جعلنى أشعر أننى لم أعد ذلك

الغريب الذى لا تثق فيه. كنت أشعر أنها متورِطة فى أمر سببه عادل، فاقتربت منها (أنا لا أعرف ما يحدث، ولكن أخشى عليك من زوجك، أنت تعيشين تقريبا فى السعودية، لكن نحن فى قصر الثقافة أكثر من يعرف حيله)، حاولت أن أبرهن لها على كلامى (عادل لم ينم فى بيته بالأمس)، قالت إن هذا أمر تعودت عليه فهو صاحب فرقة أفراح. قلت لها (كان محجوزا فى القسم)، وحكيت لها ما حكاه لى سليم الطبال جارى فى السكن (ابن الحرام عادل المصرى باع بيت أمه لدكتور بشرى، الموضوع كان انتهى، لولا واحد من معارف الدكتور قال له إن البيت إيجار قديم، ليس ملكا لعادل ولا لأمه، عنها وراح الاثنان لصاحب الملك، فما كان منهم إلا أن جروا عادل من قفاه على القسم واستعادوا العربون).

- أنت كذاب.
- أنا؟

وغيران منه.

- غيران نعم، لكن لست كذابا

أنت ماشى؟

وحسام؟

كانت قريبة جدا من تصديقى، كل ما فيها قال ذلك، فوضعت كفها فى كفى وتثبتُ عليه، ثم فردت أصابعها وبستُ أناملها مفترقة ومجتمعة، وضعت فى غمازة خدها ثلاث قبلات لم أعرف

أيها كان أشهى، فلما استزدتُ منعتني ولثنت بجيدها، فشربتُ من طبق الحسن وأدركت شفتها السفلى. قالت اذهب الآن وصدَّتنى بدفع رفيق فى صدرى زادنى اشتعالاً، فأمسكت على الهواء حين انفلتت منى وفتحت الباب. رجوتها أن أبقى ورجتنى أن أذهب، فخطفت قبلة برضاها ونزلت.

* * *

انتهى سيد جابر من ألحان أغانى المسرحية وبحث عنى فى كل مكان، كنت قد عرضتُ عليه ثلاث أغان من نظمى أنا فلم يوافق عليها كان من رأيه أن أطلب من أحمد الصعيدى أن يؤلف هو أغنيات المسرحية، لكن أحمد الصعيدى كان غير مقتنع أصلا بإقدامى على الإخراج، الأمر الذى أصبح فى رأيه (موضة) بانتهاء جيل الكبار، بدأه أناس هم أولى بالتجربة مثل رأفت الشيات ويوسف النقيب ومحمود الحما، ثم قلَّدهم كل من هب ودب، وكنت فى نظر أحمد الصعيدى أسوأ من هب ودب، فكيف أطلب منه بعد ذلك أغانى لمسرحيتى؟ فى قصر الثقافة أسمعنى سيد جابر من كلمات صديق له اسمه (محمد النقى) تاجر أخشاب من (مليج)، ومن ثم تمزقت فى رأسى الكلمات التافهة التى كنت قد كتبتها تبقّى على العرض أسبوعان، وحفنى كان يمرن الطلاب بجدية جعلت منه المخرج الحقيقى للعرض، خلال ما كنت أنا غارقًا فى حب غادة لما بعد أنفى. لكن بعد لقائى الأخير معها طرأ على اختلاف أقر به الجميع، اختلاف كان ينغذى من القبلات التى

وضعتها في غمازتها ، فكرت أن أغير من طريقة معيشتي ، أن أنتهى من الكليّة وألتحق فورا بدبلومة التحاليل ، وهي لا بد ستساعدني في تكاليف المعمل ، وربما تنتهي من إجراءات طلاقها من عادل ونسافر كلانا ومعنا حسام إلى بلد خليجية نجمع فلوسا ونعود ، لا نفعل شيئا سوى الحب أربعا وعشرين ساعة ، وحتى هناك سأقبِّلها وأنام معها كلما وجدت خمس دقائق لذلك . وقف عادل المصرى في مدخل قصر الثقافة يحمل أكياسا لا يريد الدخول بها إلى هناك فأشار لي أن أخرج . في الشارع احتضنني عادل وقبَل صدغي .

الولد نجح يا أستاذ .

الامتحانات بدرى عليها يا عادل .

لا   أنت مش فاهم .

طلبت غادة من مجموعة مدرسين اختبار حسام بين زملاء له عندها في البيت وأمام عينيها ، فتأكد لها أنني كنت صادقًا في اهتمامي بالولد . طلب مني عادل على لسانها سرعة العودة إلى البيت لنكمل ما بدأناه ، وأخرج من الأكياس قميصين رأيتهما عليه من قبل ، وبنطالين رجحتُ أنهما له أيضا لَما كان مطربو الأفراح يفضلون البناطيل البيضاء . تلك كانت إشارة منها لأهتم بمظهرى مثلما تبدو هي برنسيسة . رفعت شعرى وأزلت شاربي الخفيف ، لبست القميص الزيتوني اللامع ، ولما وجدت لسعة سيجارة في الكم اليمين طويت الكُمين إلى المرفق ، صبغت الحذاء بورنيش كثيف ، وذهبت للكلية مختالاً للمرة الأولى منذ دخلتها في تجربة الأداء

جدت الفريق على أحسن ما يكون باستثناء ممثل واحد، كان الولد خشن صوته ويتباكى بشكل فج حتى يئس منه حفنى، فطلبت منه ن يأخذ منى طريقة الأداء.

"أى برهان تريدين على حبى أصدق من هذا النحول؟ وأى عهد لتزمه إليك أكثر من سيرى نحو هلاكى على هذا الرضا؟ إنك إن قسمين على ماء عينى أن يجف لأبرِّك، ورغم كل هذا تتمنعين على، ولا أراك إلا منكرة لوجودى كلما تنهزت فرصة لأراك فى لسوق، أقول لك دعينى أحمل عنك أيتها الجميلة فتقولين احملْ منى عبأ النظر إلى وجهك كل ساعة، وأسمعك تقولين لصاحبتيك بجلا عجِّلا فلا يدركنا، فلله من أى مروان شقَّ الله قلبك ثم زيادة ن عندى خطفت المنديل من يد الفتاة وشممته. صفَّق موظفو رعاية لشباب، وصفق لى حفنى للمرة الأولى منذ عرفنى كببغاء فى لجوقة.

*

كان قد ترك شبين منذ فترة لدراسة السينما فى المعهد، وعليه قد أغلق شقته التى كانت مكان اجتماعنا ونومنا وأكلنا وضحكنا وقت طويل. كنت واثقا من أن شبين لن تفرط فى (محمود لسبعاوى) وتتركه للقاهرة أو لغيرها، صاحب شطحات؛ يختفى منا ثم يعود أكثر إشراقًا ليملأ الدنيا جلبة حول مبادئه وأحلامه مشروعاته المسرحية التى غالبا ما لا يكتملُ واحدٌ منها السبعاوى كثر من يمكن أن تحبه وتثق فيه، وتملُّ عناده وتحنق عليه. فى حى

(أبى الغار) فى سرَّة الحى القبلى، إلى شقته فى الطابق الثانى من منزل قديم، نصعد على أطراف أصابعنا كى لا تنتبه لنا (فوفَه)، ذلك كان الاسم الذى أطلقناه على شريكته فى المنزل والتى تقبع فى الطابق الأرضى تعدُّ عليه أنفاسه وأصدقاءه، ودائما كنت أتساءل (كم تخشى عجوز فقيرة لا يتعدى طولها السبعين سنتيمتراً، هذا لو انتعلت شبشبا بكعب؟) تقف على حديد شباكها كالفأر وتعمش بعينيها القديمتين وتُبرطم حتى يفقد الواحد منَّا حلمه واحترامه لسنها، فإذا صرخ أحدنا فيها كان السبعاوى ينزل على عجل ويوبخ ضيفه من أجلها، وهى لا تعترف له بجميل أبدا، فما يكاد السبعاوى والضيف يصعدان للشقة حتى تعود هى للبرطمة ولم يتجاوزا درجتين نحو الطابق الثانى. جميلٌ محمود السبعاوى، شريفٌ ودود، يحفظ تواريخ الميلاد ويشترى كعكا وشموعا، لذلك فإن أسرار الجميع عنده أما سره فلا يعلمه إلا الله؛ ما هو تاريخ ميلاده؟ أين منزل أُسرته؟ من أين يكسبُ قوت يوم له وللمتصعلكين عليه؟ لا يقبل السبعاوى أن يصعد واحدٌ إلى شقته يحمل طعاما، لا يشرب ما تبقى من الكوب ولا يأكل ما تبقى من الرغيف. والذى لم ير شقة السبعاوى لا يعرف شبين جيداً، إذ لا يكفى أن تقول شقة السبعاوى، بل ينبغى أن تعيش الطقس الخاص بكل حجرة من حجراتها، كل شىء بها له طعم الصداقة وأخوة الزمن الذكى خفيف الظل. من أول باب الشقة تجد أسهما كعقارب الساعة هى سيموطيقا السبعاوى شديدة الخصوصية؛ سهم لأعلى

معناه (أنا على سطح المنزل أضبط إريال التليفزيون) ، سهم لأعلى وأخر ناحية الشقة (أنا موجود وتستطيع الجلوس معى على السطح) ، سهم لأسفل وأخر ناحية الشقة ، فذلك يعنى أنه يشترى طعاما ، وسهمان لأسفل (أنا فى مشوار) . الشقة حجرتان ؛ حجرة بها سرير ومن خلف بابها صندرة ملأى بالكتب والأوراق ، هذه الحجرة يجلس فيها الذين لا يودون المشاركة فى النقاش مع الجالسين فى الصالون . فعلى السرير يتمدد خمسة بالفانلات والبناطيل ، والمحظوظ من كان ينام وحده على الكنبة القريبة من الباب ، وهى ليست كنبةً إنما هى جزء من صالون خشبى قديم ، حشر السبعاوى فى عفشتها القديمة مخدات وبطاطين وصحف قديمة . أما باقى أجزاء الصالون فهى موجودة بالغرفة الصغيرة المُفضية إلى الشُرفة ، وعلى حائط منها علَّق السبعاوى صورة لطفل يضع كفه تحت ذقنه ، مكتوب عليها بالإنجليزية (أكون أو لا أكون) ، وفى ركن من الصورة شريط حداد وضعه السبعاوى للتفَكُه . هل عاد السبعاوى يا ناس ؟ وهل رأيتموه كما كان يمشى خفيفا مباعدا بين ساقيه ، وابتسامته العريضة البيضاء فى وجهه الأبيض مثل أنور وجدى ، هل مازال يضع على رأسه طاقية توفيق الحكيم ، ويمسك بالعصا وسلسلة المفاتيح الطويلة ؟ والله زمان يا سبعاوى . حين صعدتُ إلى شقته لمحت جمعًا من الناس فى حجرة الصالون ، فعرفتُ أن السبعاوى لم يضيع وقتا واجتمع بالناس لغرضٍ ما كان للسبعاوى صديقٌ ثرى يعشق المسرح ، عاش عشرين سنة فى إيطاليا ولم يدرس مسرحا ولا

يحزنون، ولكن ظَلَّ محتفظًا بذكرياته حين كان في دبلوم الصنايع بمصر، عن المسرح، وربما يكون دخل المسرح في إيطاليا مرة أو مرتين. حين عاد في تلك الإجازة أحس بتعب من الغربة وعاني مشكلات نفسية جعلته يبروز التجارب البسيطة لوقوفه على المسرح وهو عيلٌ كأهم أحداث حياته. أخرج سيجارا غليظًا ووضع ساقًا فوق أخرى ثم بدأ يحكي عن تجربته، خلال ذلك طلب منه بعض الجالسين شيئا كالذي يدخنه، فأخرج لهم من سترته وجلسنا نسمع ونكح، نصنع هالات من الوهم والدخان ونتخيل أنفسنا نجوما بفضل هذا المليونير الذى جادت به العناية الإلهية. لكن محمود السبعاوى حين عرض للفكرة اشترط على من يريد المشاركة الانقطاع عن قصر الثقافة، وذلك ما لم يتقبله أحدٌ غير (أحمد نعيمة) الذى وجد في هذا المليونير العبيط فرصة ليعولَه فترة لا بأس بها أما أحمد الصعيدى فكان رأيه أنه حين تظهر جدية المشروع سيترك الناس قصر الثقافة من تلقاء أنفسهم، ثم هل هذا المليونير مستعد بالفعل لتأجير مسرح، ودفع أجر نجوم من الدرجة الثانية والثالثة يشاركون في العروض لتلميعها؟ فأجاب المليونير (كل ما تطلبونه وأكثر)، نظر الصعيدى لكرافتة المليونير التى كانت كأنها مقطوعة من مفرشِ (أَنْترِيه)، وعاد ينظر للسبعاوى مستريبا السبعاوى معروف بمشاكله مع القصر والإداريين، حتى إن كلهم على خلاف شخصى مباشر معه، لا يتنازل عن شيء ولو للمساومة الشريفة. في مسرحيته الرائعة (زويل في مصر)، أصر السبعاوى

على أن يكون اسم البطل (أحمد زويل)، وأصر على تخيلِ معاناة الرجل إلى الحد الذى جعله يدرس الكيمياء فى الكتاتيب وفصول محو الأمية، بعد أن فشل فى إصلاح الجامعات والمدارس المصرية. كل ما طلبناه من السبعاوى أن يحرك اسم البطل من أحمد إلى محمود حتى لا يصطدم بإدارة الثقافة ولجنة التحكيم، لكنه رفض، وكانت النتيجة أن (سامى طه) رئيس اللجنة ترك العرض ورفض تزكيته للمشاركة فى مهرجان نوادى المسرح، فأضاع السبعاوى بعناده مجهودنا فى التدريب شهورا، وتلا وسبق ذلك عروض بعضها لم يقف على الخشبة أصلا بسبب خلافات السبعاوى مع الممثلين غير القادرين على استيعاب قدسية المواعيد وسمو الرسالة. هؤلاء هم نفس الممثلين الذين أنجزوا مع غيره عروضا كثيرة؛ يتأخرون عن ميعاد البروفة لكنهم على استعداد للمبيت على خشبة المسرح إذا اقتضى الأمر للانتهاء من كل تفاصيل العرض، حتى إن الممثل كان يشارك فى صنع ونقل الديكورات. لكن السبعاوى كان يريد الفنان نبيا، حتى إنه كان يضحى بالموهبة أحيانا ويختار غير الموهوبين الملتزمين. ولما ترهَّل النقاش بين السبعاوى والصعيدى اقترح سيد جابر أن يسمعنا أغنية من ألحانه ومن كلمات أحمد الصعيدى يشاركان بها فى مهرجان الأغنية العربية.

هات ورقة وقلم واسرح
وارسم لنا مطرح

بعيد عن التوابيت
والدم والديناميت
لو فى السما يا ريت
عاوزين بقى نفرح

كنت أستمع إليهم حتى نسيت نفسى، ولَمّا أذَّن المغرب استأذنتُ على عجل لأوافى غادة فى بيتها، فسأل الصعيدى (أنت بتغطس فين اليومين دول؟)، ثم أمسك قميصى الجديد وفَرَكه بين إصبعيه.

* *

لبيتها كنت أمشى سعيداً منور القلب بالعشق وبالحال التى أُوافق نفسى عليها كلما اجتمع من أحبهم فى شبين الكوم. لم أشاركهم فى الحديث ولم يطلبوا رأيى، لعلمى وعلمهم أننى صائر إلى ما سيتم الاتفاق عليه فى كل الأحوال. فلقد صرتُ بعد فترة أكثر من مجرد صعلوك، أمسيت واحدا من تفاصيل الحالة، كالعصر والطاولة يجلسون من حولها والنقاش وأغنية أم كلثوم يديرها لهم أبو يوسف صاحب المقهى، بل إن بعض هذه التفاصيل يغيب ويتخلف أُناسٌ عن الحضور، وأبقى أنا والعصر وشجرتا الفيكس من أهم سمات المكان. كنت سعيداً بخضرة الصيف وسهر الدكاكين والمقاهى، بالكواكب التى اجتمعت فى سماء شبين فوق عينى؛ (السبعاوى، الصعيدى، سيد جابر، على سعيد، أحمد اللولى) فى اللحن والموسيقى، وقد خبا نجم عادل المصرى تماما، (أحمد البربرى، عصام عيده، أحمد

نعيمة) فى شعر الفصحى ، (أحمد عباس ، يوسف النقيب ، محمود الحما) فى التمثيل والإخراج ، و (غادة) الجمال الذى تسعى خلفه كل الفنون بغير أن تدركه . ما لشبين قد تزينت لهذا الصيف أكثر من غيره ؟ لوّن (جلهوم) واجهة محله بالأخضر ووضع فى الميدان نافورةً وشجرة نور بثلاثة فروع ، وفى ميدان (عمر أفندى) نافورة أخرى ، اكتمل الكورنيش وتجاورت على مسافات متساوية منه أعمدة إضاءة على الطراز الإنجليزى تُشبهُ الكُلوبات التى كانت توضع زمان عند نواصى الحارات أمست الغجريات يطُفن بالتين الشوكى وفاكهة الصيف ، على الناس الهاربين من حر البيوت إلى الكورنيش ، وعلى العشاق يخترعن مرحا بين العاشق وفتاته . هل تقبل غادة أن تجلس معى هنا ، فتقول لها الغجرية (يشترى منى على قدر حبه لك) ، فأدفع ما فى جيبى وأخلع ساعتى وقميصى وشعر رأسى ، أحبها يا شبين وإن لم تبتسم لى الليلة سأموت كمدا شجر الفيكس يملأ الشوارع ، وضعته شبين كما وضعتنى بين كل هؤلاء الموهوبين ، حين اتفقوا على كلام السبعاوى سألوا من يجمع الناس ويشترى الخشب والقماش ، من يعرف شبين أكثر ؟ فأشاروا كلهم إلى ، رفضوا أحمد نعيمة وزكُونى أنا ، بالرغم من كون أحمد نعيمة هو صعلوك شبين الأشهر وشاعرها المُلهم ، يعرف المقاهى والناس ويتسول فى مباهاة بالشعر والحكايات ليشرب الشاى ويدخن ويأكل على حساب من يسمعه ، كل ذلك كانوا يعرفونه عنه ، لكن أحدا لم يشك أننى أعرف شبين أكثر ، كما أنهم قادرون دائما على

ترويضى، بعكس نعيمة الموهوب. هكذا وجد الفيكس وظيفته أن يراقب حركة الناس صامتا فى الشوارع وأمام الواجهات لأنه لا يقترح شكلا من الجمال ولا القبح، حتى وإن امتد بورَقِه لناحية أكثر من الأخرى فإنهم يشذبونه على هواهم، أما أشجار الورد والكافور والتوت صانعات الجمال والثمر، وكل ما تبدو من خلاله سماءً، فإنه يشغل حيزا غير المعهود به إليه، لذا كان الفيكس أنسب للشوارع، ولذلك اختارونى ورفضوا أحمد نعيمة.

انتظرَتْنى مائلة بجذعها على سور الشرفة، لم تبتسم لى ولم تكن قاسية، بل كانت قلقة. بادرت باحتضانها فلم تمانع ولا هى شاركتنى إنما دفعتنى برفق وطلبت منى الجلوس لجانبها، فجلستُ ولم تتكلم، نزلت عند ساقيها كما فعلت فى بروفة المسرحية، فلما دنوتُ منها دنت لى وباستنى كما تبوس طفلا ثم قامت (أعمل لك شاى؟)، (تأكل؟) قلت لا حاجة لى فى شىء من ذلك، قالت (أعلم ولكن حسام على وصول، وبعد أن تجلس معه لا تذهب، أريد أن أتحدث إليك). جاء حسام وكان صدغه مجروحا فى جزء تغطَّى باللصق الطبى فلما سألتُه عن ذلك أجاب أنه جرح نفسه وهو يحلق لحيته، اقترب منى وطلب أن أدقق تحت أذنيه وعند ذقنه لأرى شعيرات نابتة حديثا، فلما لم أر شيئا وضحكت منه غضب، قال (كانت طويلة بالأمس)، طلبت منه الكتب لنقرأ سويا فربت على كتفى وقال (الشاى أولا)، نادى حسام على أمه بصوت خشن ثم

قام إليها وهو يحنى قَتب ظهره كرجل طويل. ضحكت غادة لَما قابلْتهُ بصينية العصير والكعك، فلما استفسرتُ منها رقَّصت شفتيها وأمسكت طوق جلابيتها نادبة بسخرية (الولد عامل راجل) فابتسمت للفكرة. مالت لى برأسها تُسر إلىَّ أن حسام يغيب فى الحمَّام بالساعة فضحكت رغما عنى وخجلتُ له. حكيتُ له التاريخ ومذبحة القلعة، فأُعجب بمحمد على وإبراهيم ابنه، ورأى عرابى غبيا، قلت له (شريف) قال (غبى)، وكان من الواضح أنه يخوض مراهقة ستتعب كل من يعرفونه، حسام الذى حدثت نفسى أننا سنحمله معنا أنا وغادة ونهرب. دخل عادل فاعتدلت غادة فى جلستها، لم تكن مبتذلة إنما نصبت ظهرها حين دخل. ألقى المفاتيح على الطاولة أمامنا وناولها الجاكت ثم خطف منها قبلة على عينى فانسحبت خجلى وغاضبة.

- ما لك يا وِلْيِّة، وحشتينى (ثم التفت إلى وسألنى عن حسام).
- تمام.

علَّق عادل على أناقتى الطارئة بشكل فج صرح فيه برثاثة ملابسى القديمة، هكذا لم يكن ممكنا أن أجلس معها بعد الدرس كما طلبتْ، فدست فى يدى ورقة قرأتُها بعد أن خرجت من عندها، (قابلنى غدا أمام قصر العينى، الواحدة ظهراً).

* *

الواحدة ظهرا فى حر (مايو)، درت حول قصر العينى أكثر من خمسين مرّة ولم تأتِ غادة. وضعتُ كتابا فوق عينى من الشمس،

وشددتُ القميص الذى التصق بظهرى من العرق، مسحتُ كفَّى فى قماش البنطلون ألف مرّة حتى الثانية ظهرا ولم تأت، فجلستُ على قاعدة السور المنبسطة قليلا أراقب الناس وأتشبه فى كل سيدة طويلة تمر إلى أن زاغت عينى وجف ريقى. كل الناس إما كانوا يركبون ميكروباصات (بركة السبع) أو (البتانون) وأنا جالس، إلى أن هدأت حركة الركاب فى الثالثة ولم تهدأ الشمس. لم يتبق من تاريخ الساعتين التى قضيتهما هناك سوى اثنين؛ رجل عجوز فى بدلة صيفية يظلّلُ على رأسه بالجورنال، وامرأة منتقبة لاحظتُها فى نافذة الطابق الخامس فى العمارة التى أمامى. كنت أنظر إليها عرضا كلما استرحمت الشمس، فتشيح المنتقبة عنى فأعود أنظر لساعتى. جاءت سيارة نزلت منها سيدة وزوجها، على ما ظننت، باسا على يد الرجل العجوز واعتذرا منه مرات كثيرة حتى ابتسم وركب معهما المنتقبة فى شباكها البعيد اخترعت من خيالها قصة العاشق الذى يربض لها فى الحر، فجعلت تهز رأسها نفورا وترد ضلفة من الشباك وتبقى الأخرى، ثم ذهبت وعادت معها أختها أو بنتها، وأشارت ناحيتى، وجاء رجل أفسحا له لينظر هو الأخر ناحيتى. قمت من مكانى مسرعا لأركب (سرفيس خط ٣) إلى عمر أفندى، ولم أصل إلى الطوار حتى وجدت المنتقبة والرجل فى ذيلى، وقفا جنبى على الطوار وعيونهم علىّ. قفزتُ إلى الميكروباص متفاديا المشاكل لكن الرجل استوقف السائق وأركبها دون أن يركب هو فَخْذُها لصق فخذى، كانت تتعمد ذلك وتنظر

لوجهي بعينين خضراوين اتساعهما يبتسم، وكلَّما قفز راكبٌ إلى السرفيس التصقت بي أكثر حتى وضعت يسراها وراء كتفي وشعرتُ بطراوة ثديها على كتفي وذراعي وأنا مدهوش، زادتْ في جرأتها أكثر ووضعت يداً على فخذي فانتفضت. رشَقت عيني في عينها فرابتني خضرتها، ثم رأيت وشم الحنَّاء في ظهر كفيها كالذي ترسمه غادة، فتهللت من فوري وأوقفت هي سبابتها على فمها لأكتم فرحتي، ثم أخذتني من يدي ونزلنا قالت ونحن مسرعين (زعلانةٌ منك إذ لم تنتظر أكثر، ولو لم تتعرف علي في الميكروباص لما رأيتني بعدها). تركت لي كفَّها وجلسنا في ظل على الكورنيش، ولم تأت الغجريات لنا في ذلك الحر لأبرهن لها على حبي.

* * *

ماذا قالت غادة؟

قالت أنا معك فلا تحزن ولا تقلق، قالت سأتدبر للقائنا خارج البيت فلا تحمل لذلك هما، قالت أنت قلق علي والأمر أهون مما تخشاه؛ أولئك الذين رأيتهم عندي سيسافرون للعمل في الخليج بعقود عمل سليمة، أنا صاحبة الموضوع، وعادل يجمع لي الناس في مقابل عمولة حددتُها له، وإن كان كما قلت لا يتورع عن توريطي، ولكن لا تخشاه فبيننا محامٍ عُقْر يعد عليه أنفاسه ويقيده بالورق. تلفتت غادة وأحكمت النقاب وسمعتها تضحك (يادي الكسوف) ابني صار رجلا يحلق ذقنه وأنا أخرج للقاء شاب غير أبيه كأنني فتاة في دبلوم التجارة. قلت يا غادة، حسام لا ذقن له ولا شارب فلا

تكذبى على نفسك، وأنت فى عز الصبا والجمال، وأنا أمى دعت لى وهى على فراش الموت، هات كفك ولا تسحبيها ثانية. قالت أنت شيطان ومن يحسبك غلبانا هو الغلبان، هل تعرف يا ولد مع من تجلس؟ قلت مع الحسن شخصيا، قالت ولم يلمس كفى غريبٌ أمام النيل قبلك، ولا على الأرض رجلٌ يملأ عينى، فمن أنت يا صعلوك حتى تجالس الملوك؟ قلت يا غادة وهل على أبواب الملوك إلا الصعاليك يستأذنون عليهم، فإمَّا أعجب الملك حديثُهم وإما يطردون فلا يرون بعدها إلا الحرس وأسوار القصر العالية، ولقد أخبرتُك أن أمى ماتت وهى راضية عنى. قالت وهل أمك هى خضرة الشريفة؟ (عامل غلبان وأنت عينك يندب فيها رصاصة)، تنقُرُ على بابنا مثل شحاذ يموت من الجوع، فإذا فتحت لك تأكلنى بعينيك، سخرتُ منك بينى وبين نفسى وقلت كيف يجرؤ أصلا على مجرد التفكير فيمن هى مثلى، ثم قلت لنفسى أغيظه فأتبختر وأتراقص أمامه، لكننى بعد أيام وجدت نفسى أتزين وأرقص لك وأنت تشرب الشاى فى بيتى مثل الباشا، كنت أُحس بعينيك تمشيان بمهلٍ على ظهرى، أنفاسك على الجلباب تصعد لرقبتى، وصوت قلبك يا مسكين ثقيل كالطبل يشغلُنى عمًا فى يدى، وكنت ألتفتُ كثيرا لأتأكد من أنك لا تلمسنى حقا. كل ما فىَّ كان يرتعش لك إذا ما نظرت لى، حتى إذا خشَّبت جسمى كان يخوننى ويهتز، بتُّ أعرف كيف تُحبنى أن أمشى كأننى أرقص لك، وأنت يا بن الحرام من بعيد تُمثل المَسْكَنة وكأنك لا تقدر على شىء. حتى بعد أن تخرج من بيتى لك نفس اللفتة المنكسرة فى نهاية

شارعنا قبل أن تحيد، فأعود من خلف النافذة ولم ترنى فأجدُنى أرقص في آثارك. قلت يا غادة، ورحمة أمى أنا غلبان وقلبى يحدثنى أن محمد الحفنى سيهزّنى الآن ليوقظنى من هذا الحلم. قالت اخرس يا ولد، أنت نفسك ربما لا تفهم، أريد أن أقول (أنت تعبدنى) لست تعبدنى وحدى وإنما تعبد كل ما تعرفه وتصنع حولك عادات حلوة أينما جلست. إنك عودتنا أنا وحسام أن نأكل ونحن نستمع لك، ننظر إليك وأنت تمضغ الطعام لكأنك تمضغ أفيونا على لسانك، تبوس الماء، وتحكى عن الصعيدى ومحمود الحما، عن شبين القديمة، الغجر وكيف يعيشون، الجوامع والأولياء. منذ أسبوع عرفت منك أن شبين بها ثلاثة يهود لا يعرفهم الناس، ولكن كيف عرفتهم أنت؟ كل ذلك فى كومٍ واليوم الذى ضربك الناس فى الجامع كومٌ أخر، بالله عليك هل ناديت بوفاة الرجل المسيحى فى ميكروفون الجامع؟ قلت لقد عاش يا غادة بين الناس يُحبونه، يأتى كل عصر ليفتح دكانه، يصلِّح المراوح والتليفزيونات ويلف المواتير بأجر بسيط ثم يركب دراجته ويرحل بهدوء، ولَمَّا لم أر دكانه مفتوحا وعلمت بموته غضبت من الذين لم ينتبهوا أن ضلعا من على قلوبهم قد سقط، فناديت فى الجامع باسمه وضربنى الناس. قالت حسام كان يقلدك بعد أن تمشى وأنا أطلب منه أن يكرر ونضحك سويا قلت وضغطت على أصابعها، أنت يا غادة لم تقولى أحبك، قالت اسكت يا عبيط. وفى محل الشبراوى جلستْ غادة على الكرسى تضع ساقًا فوق أخرى كالبرنسيسة، تشير بإصبعها لبنات قصيرات يرتدين الجينز،

فينتفض من حولى كالفراشات، يأتين لى بقمصان وبناطيل كثيرة إلى أن ترضى هى فتُومئ برأسها، اشترت لى حذاء ووضعت فى جيبى فُلوسا، عشّمتنى فيها فاعتدت على عشمى، كنت أضع رأسى على صدرها وأبكى بلا سبب، أو ينشط دمى فأمثل لها وأحاكى (عبد الرحمن الأبنودى) فى قصيدة (يامنه) التى كانت تطلبها منى كلما التقينا و(جوابات حراجى القط)، كانت غادة عسلا صعيديا وهى تكرر (شهرين يا بخيل، ستين شمس وستين ليل)، فلا أمْلُكُ إلا أن ألثم طرف الكأس، حتى ذلك الحين كان كل ما بيننا قبلات، وقالت اصبر فصبرت، ولزمتُ حسام فى أيام امتحاناته بجدية أرهقتنى، وكان عادل يشعر بالغيظ والملل لأنه اضطر أن يلازم سهراتنا حتى الفجر بدأتُ ألحظ منها اعترافًا بالجميل واستحال كل الرفض فى عينيها إلى وعد بالعناق.

* *

أجمع الممثلين وأُلَقنهم أدوارهم، أُمثلُ فى مكان الغائب حتى يأتى، أجمع الخشب والقماش و(الفووم)، أجمع الصور لاستخراج (كارنيهات) عضوية الساحة الشعبية؛ المكان الذى اختاره السبعاوى لتجارب الأداء كبديل عن قصر الثقافة، أوقظُ (السيد جابر) من نومه، وذلك أسوأ ما يقدم عليه عاقل، ليستكمل ألحان المسرحية، وأشترى ساندويتشات تكفى عشرين فردًا أو يزيد. كنت بشهادة الجميع شعلة نشاط، حتى إن السبعاوى والمليونير قررا لى راتبا لضمان استمرارى مع الفرقة. كنت قد توقفت منذ

فترة عن طلب التمثيل فى العرض بعدما تملص منى السبعاوى بأدب، قال إنه يؤمن فى تلك المرحلة بالتخصص، والفرقة الناجحة التى يعمل عليها فى حاجة إلى مدير ناجح مثلى لا يشغله عن الإدارة شىء أخر كانت تجربتى فى الإخراج والتمثيل مع كلية العلوم، والتى عوَّلت عليها كثيرا، فاصلا فى استمرارى فى هذين الفنين، إذ تأكد للجميع أننى لست موهوبا فى واحد منهما كان ميعاد عرضى هو الأول فى قائمة عروض مهرجان الجامعة، وبعد بداية العرض بأقل من ربع الساعة لاحظتُ تململ المتفرجين وخروجهم لإتمام مكالمات تليفونية، وانشغالهم بالأحاديث الثنائية. ثم شحذوا سكاكينهم للنيل منى فى ندوة النقد التى أقيمت بعد العرض مباشرة. قالوا عن العرض إنه فاشل حتى بمراعاة حداثة التجربة، ولكنهم أشادوا بالممثلين الذين قد تورطوا فى رؤية إخراجية ركيكة، كان رأى الصعيدى أن العرض بارد وثقيل، وقال طاهر البربرى (إنها رؤية مُلفَّقة من دون حرَفية تُجيز تجاور تلك المدارس التى اعتمدها المخرج، البريختية والرمزية، الأمر الذى جعل من العرض صراخا طفوليًا يفضح منذ الدقيقة الأولى عن نهايته)، وقد استمتعوا كما قدَّرتُ بصوت وألحان السيد جابر وكلمات محمد الفقى، لكن الأغانى كانت منفصلة بجمالها ودلالتها عما يحدث فوق الخشبة، ذلك ما سماه طاهر البربرى (منكِّهات لاستساغة الطعام الردىء) كانوا قساة لدرجة أججت كل هواجسى القديمة عن نفسى، من أنت؟ ماذا تفعل فى شبين الكوم؟ أولاد الكلاب يتعاظمون على وكلهم فى

أحسن الفروض نسخ من ممثلين مشاهير، وضعوني كالعجل بينهم وذبحوني، حتى غادة كانت قد أجرت خمس مكالمات تليفونية خلال العرض وأنا أنبح في صوتي لأقول للبطلة أحبك. في مقهى السنترال كانوا جالسين كلهم، حتى طلاب كلية العلوم الذين أدمنوا على الحالة، كما بدا لي، ولن يخرج عفريت المسرح من جسمهم ولو بالطبل البلدى. نظروا كلهم ناحيتى بدهشة وكانوا يأكلون فدعونى لأشاركهم لكننى دُرتُ برأسى عنهم، ثم قام سيد جابر من وسطهم وجلس معى.

- حضرتك من شبين؟

- أصلك تشبه واحداً أعرفه، كان سخيفا مثل حضرتك.

ومن مكانه هناك قال الصعيدى (أنت عامل زعلان؟)، ثم قام إلي وفى يده ساندويتش سليم لم أقبلْه، فحلف بالله إن لم آخذه يكون ذلك آخر كلامى معه، فتناولته بطريقة فضحت عدم رغبتى في الخصام، فامتن لى الصعيدى وقال (أحسن ما فى هذا الولد أنه لا تهون عليه العشرة)، فقلت الزعل على قدر العشم يا عم أحمد، فطبطب الصعيدى على ومن ثم قام كل واحد منهم يسترضينى بكلمة.

حد يزعل من أهله؟

- يا جدع، أنت أكثر حاجة نعرفها فى شبين.

- عمرك ما خاصمت أحدا.

وقال طاهر البربرى، خلاص يا سيدى، أنا مستعد أن أضحى بذائقتى الفنية مرَّةً فى السنة علشان خاطرك. نظرتُ لأجد كل من أحبهم فى دائرة حولى، وقلبى وجدتُه طَرِبا بمحاولة استرضائهم لى. على غفلة منى أظهروا لى باقة ورد أبيض موقَّعٌ على غلافها من كل الناس، خاصة طلبة كلية العلوم، وفطنتُ أنها كانت فكرة السبعاوى حين ابتسم ودار بوجهه. باسوا رأسى وصدغى فبست رؤوسهم وبكيت فرحا، ثم حملونى وفى يدى الورد، رفعونى فى الهواء والتقطونى مرَّات حتى تناثر علينا الورد، وغنى بنا السيد جابر للصبح. تلك الساعة عرفتُ أننى أنتمى إليهم بلا صفة أعرفها لكننى لن أبارحهم أبدا، ومكثت بينهم أجمع الناس، أجمع الخشب والفووم، أجمع الصور والبيانات وأملأ كولدير الماء وترمس الشاى، حتى السجائر كنت أجمعها من المدخنين فى أوقات الترف لأردَّها لهم فى أوقات الفَلَس، المهم أن لا ينشغل واحد عن التمثيل بشىء.

* * *

كنت قد انتظرتها لأكثر من ساعة فى (قرية فينسيا السياحية) كما حددتْ لى هى الموعد والمكان فى التليفون، ثم جاءت تتمايل على قَد يحمِّلُ النقاب أكثر من طاقته على الستر، فكل من رآها علم أن من تحت النقاب امرأة جميلة جلستْ وسلَّمت بأطراف أصابعها، وقبل أن أبدأ فيما جهزته لها من عتاب؛ عن تغيب عشرة أيام منذ انتهاء امتحانات ابنها، وتأخر ساعة عن الموعد الذى حددته هى، كشفت لى عن وجهها سريعا ثم أسبلتْ عليه ثانية فكأنما

أمسكتْ قلبى وتركته فلم أنطق بكلمة. قالت لن أجلس معك هنا طويلا فركبنى همٌ بدا أنها ارتاحت له وانتظرت عليه، ثم داعبتنى وقالت (ما تعيطيش يا بيضة) لكنى لم أهش لها، فأردفت (لن نجلس هنا لأننا سنجلس على انفراد كما أردت أنت دائما)، وأخرجت ورقة مكتوب عليها عنوان، قالت (سأنتظرك هناك بعد ساعة، أنا التى سأنتظر فإياك أن تتأخر دقيقة، هل تعرف العنوان؟) قلت بكل تأكيد، بيت (عالية الشامية) وساد صمت. أنا سميت لها البيت وهى كمن نزل عليها سهم الله، جلست ثانية وذهبت عنها العجلة، سألتنى من أين أعرف عالية الشامية، قلت وأنا متهور للانفراد بها، فيما بعد يا غادة فيما بعد أحكى لك، فأمسكت على يدى التى بها الورقة وقالت بلهجة لا تقبل المراوغة وكلها عينان تنتظران بقلق (احك لى كل ما تعرفه عن عالية الشامية) فأذعنت لها وحكيت.

عالية الشامية أو عالية الباشا

هى امرأة عجوز تجاوزت المائة عام، لم تعد ترى وتسمع إلا بالكاد. تعيش فى بيت واسع قديم مدفون فى نهاية حارة خلف البيوت التى تطاولت عليه، ولم يتبق من بهائه القديم سوى المشربيات فى واجهته وآثار النافورة فى باحة الطابق السفلى، فيما عدا ذلك لم يصمد من البيت سوى الحكاية، فلقد شرخت السنين الكثيرة جدرانه وقشَّرت طلاءه، وجلست فوق تلك السنين فى

حجرة من الطابق العلوى عجوز عينها بيضاء تشرب البيرة، لكن البيت لم يكن هكذا دائما ولا كانت عالية الشامية. في أيام الباشوات أصبح الفلاحون فوجدوا بيتا أمامه روضة ومن خلفه روضة. وبقدر ما انبهر الفلاحون بجمال البيت تساءلوا لماذا يبني الباشا بيتا جدرانه من رخام في وسط الغيطان؟ وظلوا يطوفون من حوله ويقرعون كفًّا بكف، إلى أن جاء الباشا ذات يوم ونزل من عربته المُذهبة التى كان يقودها سائق نوبى وجيه، ويجرها حصانان في لون السحاب الأبيض. انحنى الباشا كما يفعل الفلاحون لفتاة قدروا أنها شامية، لَمّا كانت بنات النيل سمراوات وهى بيضاء، أمسكت في يد الباشا وفَرش لها بساطًا من الحرير الأخضر تمشى فوقه إلى البيت. البنت كانت تبارك الخلاق البديع، تحرق قلب من يراها مرّة، ولما رأى الباشا، وكان عجوزا، أشداق الفلاحين مفتوحة، صرفهم عنها بالكرباج وحذر الناس من المرور أمام البيت. لكن الفلاحين لم يمتثلوا، فلوعة قلوبهم كانت أوجع من سياط الباشا، وكان الباشا يأتيها كل جمعة مرّة. جعل الشبان يحومون حول البيت ويغنون تحت شرفتها، وفي كل أسبوع كان الناس يجدون جدعا أو جدعين مذبوحين وعلى ظهورهم علامات من سياط الباشا. مات فيها فلاحون وأفندية كثيرون، حتى بدأت تطير الشائعات عنها وعن جمالها ووصلتْ لزوجة الباشا، تلك التى جاءت عصر يوم إليها كانت زوجة الباشا أُنثى تركية بضَّة، نزلت من عربتها ترفع ذيلها عن الأرض، ودخلت على البنت في خِدرها، أهانتها

وحلَّت شعرها وعرَّتها من ملابسها. فلما رأت شعرها للأرض ممدود، وصدرها قصرين عليهما نوافذ سود، ومن بينهما أخدود، وأمسكت البنت على فرجها لتغطى شيئا منها، فانفلت طريا من بين أصابعها، تركت الهانم الكرباج من يدها وانسحبت ذيلها يجمع القش والتراب، ثم نامت لليلتها ولم تر الصباح ولا الجناينى يجمع التفاح. حزن الباشا على زوجته أى حزن ولام نفسه، فسكر ولعب القمار، خسر فدادين وهو ناقص الوعى، لكنه لم يفرِّط فى عالية ولازم فرشها كل يوم وليلة. علم ابنه بما كان فطار من بلاد الأجانب وزار أباه فى شبين الكوم وهو مريض. فرح به العجوز كل فرح وتحسنت صحته، حتى إنه قرر السهر مع عالية فى خدرها فلما جاءها كانت قد أضمرت الخيانة، فلقد أعجبها الولد وأعجبته، صبت للباشا خمرا أبيض وخمرا أحمر وخمرا أصفر حتى رآها اثنتين ورآها خمسا وعشرا ثم نام يصفِّر، لكن فى جوف الليل حصرتْهُ المياه ولم يجد عالية فى فراشه، بحث عنها على ضوء الشمعة إلى أن استوقفته جلبة قدر أنها آتية من حجرة ابنه فقرَّب أُذُنَه للباب، ولما سمعهما يموءان من اللذة توقف قلبه، وسقط كما يقع البيت القديم على وجهه ولسان حاله يقول

بالأمس جرتُ على عزيزٍ فقدتُهو اليوم يفقدنى أعزةٌ جاروا

سافر ابن الباشا بعد موت أبيه، لا يبارحه الغم وأعز ما كان يطلبه النوم، فدفن وجهه فى كتب العلوم وصار طبيبا فى بلاد الشُقْرِ

يسافر إليه كل الناس، لكنه لم يجد لنفسه عقارا يبرئه من عذاب الضمير ومات مصدورا وكأن المسكين كان قد فطن لموته قبل ميعاده، فترك كل ما يملك لعمارة المستشفيات والمساجد، لكنه ترك البيت لعالية وبعض جنيهات ذهبية. عالية كانت من أصل فقير تنفق كما ينفق الفقراء ببذخ إذا وجدوا سعة وفضلا، أتت على الفلوس في بحر سنة ثم باعت الروضتين حول البيت، وكانت لتبيع جسدها بخسا أو تمد يدها، لولا أن جاءها مخصيٌّ من سيده برسالة فهيأت البيت واستقبلته، ومرت سنون وعالية تخرج من حضن باشا إلى حضن باشا آخر وكلهم وأهلهم يموتون. وانتهى زمن الباشوات وتطاول في البنيان الحفاة والعراة. بنوا مساكن أعلى من البيت وزاحموه. عالية كانت كلما كبرت في السن ازدادت روعة وجمالا، وكانت لم تزل تسحر من يراها، فتزاحم على خطبتها صنايعية وفلاحون أثرياء فلم تقبل بواحد منهم وإنما جمعت بنات الهوى لهم في بيتها، ولم يمسسها واحد من العوام. ولم تكن نساء الصنايعية كنساء الباشوات مرهفات الحس فيمُتن من الحسرة، وإنما اجتمعن لها وذهبن إلى البيت يُكسرن التحف والتماثيل ويضربن بنات الهوى عندها، ولكن ما إن رأين عالية صرخن في وجهها وخمسن كما إن يرين نذير الموت، لمَا سمعنه عنها من شائعات (كل من يراها يسحر ومن يقترب منها يموت هو وأهله)، وربما أكبرنها؛ فجمال عالية كان يلفُّها بالوهم ولها على العين سلطان عظيم. لكن هذا شأن الأيام لا تترك عزيزا على عزه إلا من رحم ربي.. تزوجتْ

عالية من خادمها وأنجبت فى سن كبير أولادا وبناتا كلهم ماتوا، إلا حفيدة لها ورثت صورتها وصوتها، خبَّأتها عالية عن الناس فلا يعرف أحد مكانها أما عالية الآن فهى عجوز يجتمع فى بيتها العشاق، يأتون لها بالكباب والبيرة ليناموا فى حجرة الباشا

ولَّما دخلنا أنا وغادة، التى ظلت ساهمة طوال ما حكيت، على عالية التى كانت تجلس على سجاد فارسى وطنافس قديمة، تُحدثُ أشخاصا لا يراهم سواها، باستها غادة من فمها ورأسها ثم جلست لجانبها، أما أنا فنقَرت على ظهر كف العجوز ثلاث مرات فعرفتنى وقالت فى فرحة بلا أسنان (أين البيرة يا ولد). مددت لها يدى بالزجاجة التى اشتريناها، كنت قد جئتها مع سناء مرّة، لكن فى أغلب الأوقات كنت أذهب وحدى أقرأ الحكاية من وجهها الذى يخبر عن حسن لا مثيل له، فتنة شبين القديمة، أنقر على كفّها ثلاثًا وأناولها زجاجة البيرة. رفعت عالية الزجاجة على فمها لأخر قطرة ثم نامت. قُمت أنا وغادة لحجرة على حيطانها صور الباشوات وعصيان من العاج وطرابيش حمراء. لبست طربوشا منها وجلست فى مكان الباشا، ولما كانت غادة تضع العطر تحت إبطيها التفتت إلى وسألتنى (وأنت يا من تعرف كل شىء فى شبين، لا تعرف تلك الحفيدة التى ورثت جمال عالية؟)، فلمَّا خلعت ملابسها ورقصت لى وأنا سكران أدور من حولها بعصا من العاج، قلت فى نفسى إنها أنت يا غادة، وريثتها، فأى موتٍ ينتظرنى فيك؟

الفصل السابع

أين ذهب الناس؟ المدينة ليست على ذلك السحر الذى كنت أجده فيها سافرت شيماء لخالها فى أوروبا ففرغت لذكرياتى عن البلد، وأنا أعى كونى أُعيد حفر بئر مردوم فى روحى، وكلما أمعنت فى ذلك أتحلل من الوجع، للَّحظة التى أَصلُ فيها إلى الماء القديم وأرى على صفحته سماءً ووجها. أنا أمشى فى شبين، أحقق نجاحا فى عملى حتى تحول اسمى إلى أسطورة فى شهور قليلة. ليس اسمى هو الأهم، إنما الصفة التى يعرفوننى بها (الرجل الذى يمشى) ذلك بأنى كنت أترك سيارتى فى أماكن كثيرة ولا أتذكرها إلا حين أجدها بالصدفة وعليها تراب كثير كل جلسات العمل مع مرؤوسىَّ كنت أتمُّها فى مقهى السنترال ونحن نلعب الطاولة وندخن الشيشة، أعقد بالتليفون صفقات كبيرة وأنا فى المنزل

بملابسى الداخلية. ولستُ كاذبا لو ادعيت أن أغلب أطباء وصيادلة شبين الكوم أصدقاء لى بدرجات متفاوتة، أقابلهم كثيراً ولا نتحدث فى الشغل إلا كأنه موضوع عارض استدعاه الحديث. وأَحب شيء إلى نفسى هذه الأيام، أن أخرج بعد العصر لعيادة المرضى فى عنابر قصر العينى ومستشفى الجامعة، أُسندُهم للكنيف، أضع لهم برضا طاقم التمريض، القسطرة والجلوكوز وأحقن العضل والجلد، أسمع حكايات المرضى باهتمام جعلهم لا يتكلفون معى. كل ذلك جعلنى وجها واسمًا مألوفين، وللحق ساعدنى كثيرا فى شغلى كمندوب للدعاية الطبية، لكنه من ناحية أخرى يحقق لى توازنا واحتكاكا بأبطال ذاكرتى الذين لا أجدهم الآن. فها أنذا أبدأ من حيث انتهى الدكتور صالح عبقرى الكيمياء، أبحث مثله عن التآلف الكيميائى خارج المعمل وفى هذه الشوارع. وأنا لم أزد على ما كنت أفعله مع محمود السبعاوى قُبيل سفرى، كنا نمر على المستشفيات ودور الأيتام فى خدمات تطوعية كان السبعاوى يعدها الفصل الناقص فى كتاب إعداد الممثل ل(قسطنطين استانسلافسكى)، وإن كان السبعاوى لم يتكسب من وراء ذلك وأنا أفعل. أعرف أننى لو قابلته الآن، ورأى أننى أحقق حلمه سيطلب منى أن أترك وظيفتى حتى أبرهن على صدق نواياى، سيطلب منى أن أُخرِج التكسب من الحسبة، لكننى لستُ ولم أعرف واحدا مثل السبعاوى فى براءته غير الإنسانية. كنا نستمع إليه ونصدقه، ولكن كنا نأتى بالأخطاء

التى قد تتبعها قطيعة معه إلى الأبد. وهل أنسى حين صارحه أحمد نعيمة بحبه الصادق لواحدة من الفتيات اللاتى كنا ندرس لهن فى دار اليتيمات، يومها حدجه السبعاوى بقسوة واتهمه بمثل ما اتهمته مديرة الدار حين علمت بالعلاقة وطرده من بيته أمام دهشتنا، كان المسكين يتوقع أن يتفهم السبعاوى ويساعده فى الزواج من الفتاة، بما له من علاقات طيبة مع مديرة الدار، يااه أيام. أين ذهب الناس؟ والمدينة ليست على سحرها القديم. لكننى أعرف أين أجد واحداً منهم على الأقل. فى ليلة كهذه من الصيف قمرها كامل، أراهن أن خالد علام يجلس الآن وجهه للنيل، فى قارب صغير لصياد من معارفه، القارب مربوطٌ للشاطئ إنما يهتز، أكواب الشاى الصغيرة، رائحة شواء السمك على نار صغيرة من قَش الغيطان، وخيطَا صنارتيهما يشقان وجه القمر كلما تورط فى الشص قرموط صغير تعلم القفز ولم يتعلم الحذر القمر الواقف على رأسى بين أعواد الذرة ينبهنى لخطوتى التالية لكنه تسرع ونطَّ فى الماء، وعلى مقربة منه رأيت شبحى رجلين يجلسان فى قارب مربوط للشاطئ، قدَّرتُ أننى أعرف أحدهما فناديت.

يا خالد.. خالد يا علام.

مشى شبح خالد ناحيتى وهو يتساءل، منذا يعرف مكانه فى قطعة من الليل على أطراف شبين؟

إنه أنا يا خالد.

*

طوال الطريق كان يتكلم بلا انقطاع عن كل شيء، وأنا أعرف شبين جيدا وأعرف خالد علام، حين يثرثر فإنه يكون على حالة سيئة، ثم تطرق في كلامه إلى موت هادئ فقدرت أنني ربما أخطأت في انتزاعه من نزهته.

- ما لك يا خالد؟

- ما لي؟

- بتلخبط في الكلام.

أنا؟

لو تحب نرجع؟

أشاح برأسه في غير اكتراث ومن بعد زَفَر، صفَّق بيديه وهو يضحك لي باستهتار حتى ضحكت أنا بدوري، لحظات وعاد من جديد للفلسفة، قال (أنا اليوم ضائق الصدر يا صاحبي، لم أكن أريد الجلوس للقمر كعادتي، لكني لم أجد ما هو أفضل من ذلك، هذه الحياة تتطلب أشخاصا جلودهم سميكة للحد الذي لا يرون معه ما تفعله بهم. ليل ونهار، فقر وغنى، موت وحياة، هذه المتناقضات على حكمتها - هل تحتاج إلى تلك الملايين من السنين المتعاقبة على نفس الرتابة، أو لكل مليارات البشر الذين مشوْا فيها؟ الكون ممتلئ إلى حد يثير الغثيان. لو أنني أكتب هذه الرواية بيدي لمزقتها بعد فصلين أو ثلاثة). قلت له على الفور (الحمد لله الذي لم يُكلِّفك بالنفخ في الصور يا بن المجنونة) هذا هو خالد علام، عرفتُه في السنين الأولى لي في الجامعة؛ كنت أمُر أمام مدرسة (الثانوية

بنات) فوجدت على سورها الحديدى معرضا للصور الفوتوغرافية، وكان خالد يجلس عند نهاية السور أمام فَرشةٍ من الكتب والمجلات التي يبيعها مشيت مع الصور ببطء فوجدتُها تتناول لحظات يصعب تكرارها، على النحو الذى يتبعه الشعراء اليابانيون فى قصيدة (الهايكو). استوقفتنى صورة مما يعرض، ولثلاثة أيام متتالية كنت أقف أمامها إلى أن نقر بأصبعه على ظهرى.

- تعجبك؟

- جدا

نزع المشجبين من طرفى الصورة وقدمها لى، لم تكن معى فلوس كالعادة فتهتهتُ لكنه باذرنى يقول (إنها هدية، لن يشتريها أحد على أية حال)، بعد يومين كنت أجلس معه عند نهاية السور نتكلم ونقلِّب فى الكتب التى يبيعها ولقد وفَّر خالد على وعلى مجموعتنا، بعد أن عرَّفتهم به، شراء الكثير من الكتب؛ كنا نتداول الكتب الجديدة عنده ونقرأها واحداً واحدا ثم نردها إليه ليبيعها. لم يكن خالد مُلتصقا بشبين ولكنْ كان قاهريا بحكم طموحه فى تلك السنوات كصحافى وكاتب واعد، قرأْنا له العديد من المقالات فى النقد السينيمائى، وقصصا قصيرة كانت تُنشر فى المجلات الخليجية، بل ربما كان له دخل شبه ثابت نظير مقالات وقصص يرسلها إلى مجلات كانت دائما ترحب بأعماله. قرأ علينا فى منزل السبعاوى مجموعته القصصية الأولى، كانت رائعة لكنه لم يتحرك لنشرها.. لماذا؟ لأنه خالد علام القَلق المَلول، الذى يؤمن

بالشيء فوق طاقة التشبع لفترة تطول أو تقصر، ثم ينفر منه تماما ليعتنق شيئا آخر بنفس الحدة التي اعتنق بها سابقه وانبرى له، ثم يزهده تماما تماما كان شيوعيا حتى النخاع، وبذلك الإيمان الذى يبدو عليه في بداية كل تجربة كلَّفه قيادات حزبه باختراق كوادر الأحزاب الأخرى كالوفد وجماعة الإخوان المسلمين، ولقد حاول معي لكنني بطبيعتي أنفر من التحزُّب، فلمَّا يئس مني قال (أبشرك بزمان طويل تعيش فيه حماراً) بعد ذلك ترك خالد الشيوعية والحزب وكل شيء، اختفى عن الأنظار لعامين كان يلازم فيهما والدته المريضة قبيل وفاتها كانت تجربة روحية عميقة أخذته بالكامل، وعاد بعدها يتحسس ما كان يعرفه فلم يجد له مساحة من روحه التوَّاقة إلى التغيير انتظم بلا مقدمات في سلك التبليغ والدعوة، آه لو رأى أحدهم كيف كان خالد يتكلم عنهم من قبل، تزوج زيجة عادية وعمل بالتدريس، أنجب طفلين وبدا أنه صائر إلى حياة مستقرة. لكن العفاريت دعبست في روحه فوجدتْ كراكيب قديمة وعلبة ثقاب فأشعلت الحريق. وذات يوم في مقهى السنترال وزَّع علينا مبحثا عن الغجر وعاداتهم، مشاربهم وأسمائهم، قرأ علينا فصلا كاملا من رواية جديدة له (نرجس على قلبي) وكانت بطلتها غجرية. أتذكر ذلك اليوم حين قمنا لم يكن خالد متعجلا ليعود إلى بيته، كان يتلكأ ثم قال كلاما شبيها بهذا الكلام عن الرتابة والملل (ألم تلحظ؟) قلت ماذا؟ قال (نحن نتكلم مثل بعضنا البعض، وتقريبا نحن متفقون على كل شيء)، فسرتُ له

ذلك أننا نتلازم لأوقات طويلة وقلت له لو كان عندك الجديد لماذا لم تقل به؟ جلسنا ليلتها على رصيف محطة القطار وهو يقول كلاما عن فلسفة الحياة والمغزى وموت هادئ، لكنه حين أقبل القطار تركني ونط فيه.

- إلى أين يا خالد؟

- لا أعلم.

تركني ليلتها وحدى وأنا أضحك من قفزاته الغريبة. هذا هو خالد علام، حين يتحدث عن الموت فهو يطمح إلى حياة جديدة، والله زمان يا خالد يا علام. خرجنا من الغيطان وفُتنا على مصنع المعسِّل واقتربنا من سور كلية الزراعة، فإذا به يتلكأ كلما زادت الأنوار وكلما اقتربنا من كوبرى عمر أفندى لندلف إلى المدينة.

- تعال معى يا خالد.

- القمر صغير فى المدينة.

عرَّفته أننى جهزت على سطح منزلى مجلسا للقمر وأغريته بأسطوانة لفيلم بياع الخواتم، فقال بعد تردد (نشترى بيرة)، فرددت عليه بنفاد صبر (اشتر ما تريد يا خالد) لم يكن أحدنا يشرب البيرة ولكنها واحدة من نوبات جنون (ميتين أهله)، ثم هو لم يتحرك من مكانه ونظر إلى كأنما أرادنى أنا أشترى البيرة بنفسى، فلحيتُه كانت طويلة ويلبس جلبابا أبيض، قال (سيحلف بياع البيرة للناس أنها حلال والشيوخ يشربونها، وأنا لا أريد لأحد أن يتخذنى ذريعة). بسرعة ذهبتُ إلى الدكان سيئ السمعة

والرائحة على ناصية الشارع الذى كنت أسكن فيه أنا وحفنى - فى البر الشرقى - أيام صعلكتى. تناولتُ الزجاجات بسرعة وسحبتُ خالد من ذراعه إلى داخل التاكسى، ندمت ليلتها أننى لم أخرج بسيارتى ولكن كيف كنت سأدخل بها للغيطان على أية حال. سأل خالد عن زوجتى فأخبرته أنها بعيدة. بعيدة جدا

* * *

على سطح منزلى والقمر قريب كأنه ثالث يستمع قال ناظم الغزالى (عيرتنى بالشيب وهو وقار فيا ليتها عيرتنى بما هو عار). حاول خالد أن يستسيغ البيرة فلم يفلح (يا نهار أسود، بول حمير يا ولد)، قلت له (علشان ما تعملش صايع)، فتحامل على نفسه وجعل يشرب دون تذوق قدر الإمكان، وتفرَّق شعره على جانبى الصلعة ثم لكزنى بود. بدا أن أُلفة السنوات القديمة قد دبت فى أوصالنا فاسترخينا على المساند وعيوننا على القمر سألنى خالد (ما أكثر ما ندمت عليه يا صاحبى؟)، كان حزينا يريد أن يأخذ طرف الكلام ليشد الليلة وقمرها ناحيته فيحدو بنا فى صحراء همومه لكننى لم أمهله، تذرعت بالسؤال وحكيت له عن كل شىء كل شىء.

)

، ولما فتحت عينى يا خالد بعد اعتداء ناصف شطا والمراهقين علي، وجدت نفسى ممددا على سرير بالمستشفى (المستوصف) كما يسمونه فى السعودية، وفى ذراعى إبرة تأخذ من محاليل معلقة،

ورأيت بسام السورى يجلس على كرسى ناحية باب العنبر، قدّرتُ من حجم الكتاب الذى كان فى يديه أننى عدتُ من غيبوبة طويلة. عرفت منه أنه لما عاد من شغله وجدنى ممددا فى (البانيو)، والماء المتقاطر من الرشاش يتراكم حتى أوشك بأنفى. حملنى بسام وتلفن لزملائى الذين سبقونا إلى مستوصف الملك فهد، وجهزوا كل شىء لاستقبالى. هذه العلقَة يا خالد ردت لى عقلى، فأفقت منها وعينى أوسع من ذى قبل، وإذا بى أحتقر نفسى وأحتقر فهد الكاشف دون أن أخاف من شىء، ماذا كان ليحدث أكثر من ذلك؟ احتقرت هذه الغربة ومبرراتها الواهية، احتقرت بسام ذلك الشهم المثقف، ماذا لو ظل فى بلده يعمل مهندسا، كان ذلك ليكفيه من الزواج بابنة خاله التى أرانى صورتها لم أُفلِح فى إقناعه ولم يفلح هو فى إقناعى بالعدول عن قرارى. سأرجع إلى شبين الكوم مهما كلفنى ذلك كانت قد تبقت ساعات قليلة على ميعاد الطائرة وحقيبتى كانت جاهزة، ووضعت من فوق كل شىء القميص السماوى الذى كنتم تعرفوننى به يا خالد، ولما سمعتُ جرس الباب قدرت أنه بسام جاء ليرافقنى إلى المطار كما وعد.. ولكن وجدت الدكتور مصطفى بشحمه ولحمه وابتسامة الود غير المبرر التى يحسنها) عند هذا الحد من الحكاية أوقفنى خالد.

كفاية يا عم.

؟

- كلام قديم وبايخ.

- لكن يا خالد..
- أنا أكملُ لك الحكاية.

أخذ خالد دور الراوية وحكى بالنيابة عني
(ولدهشتي كان الواقف أمامي هو الدكتور مصطفى خال زوجتي، لم أعرف ما ينبغي على فعله في تلك الثواني المطوطة. هل أرحب به رغم كل شيء أم أسأله عن سبب زيارته الغريبة، لكن ها هو يقف بقامته العالية وبذلته الفخمة وعطره القوي الذي بوخ نفسي. شعرت بتنميل في جلد رأسي وألزمت ظهري للباب، مددت له يدي فلم يلتقطها ودلف بثقة من الباب المفتوح
أنا زعلان منك، كل ده يحصل وما تقوليش؟ أنا خالك.
وخلال ما كان يشرب فنجان القهوة ظل ينظر ناحيتي، يبتسم ويهز رأسه الموسوم بعلامة السجود.)
- لا يا خالد، ليست له علامة السجود.
- آسف خلطت بين حكايتك وحكايتي. دعني أكمل.
(جلست أمام الدكتور مصطفى وأنا ضائق الصدر بحكاياته عن التجارب المريرة التي تعرض لها في بداية مشواره المهني والتي عاد بعدها يقف على قدميه كأن شيئا لم يكن، وأكثرُ كنت ضائقا بطريقته في محاكاة أولاد البلد الجدعان في طريقة كلامهم والإشاحة بأيديهم وتضمين كلامهم ألفاظًا نابية لإزالة الفوارق سريعا، لكن الوقت كان يمر ولا بد أن ألحق بالطائرة.

يا دكتور مصطفى.. سأسافر   هذا قرار.

سريعا تخلى عن مودته رديئة الصنع وأعلن بهدوء وهو ينفث دخان سيجارته.

أنا لست على استعداد أن أقوم بمصاريفك أنت وزوجتك.

- حتى موضوع الزواج يجب أن نعيد فيه النظر، لمصلحة الجميع.

قال خالد   وبما أنك لم ترجع وبقيت هناك فى السعودية، فالأكيد أنه هددك أو أغراك)   نعم يا خالد كانت هناك إيصالات أمانة ومؤخر الصداق، ولكن اطمئن، أنا جمعتُ أموالاً كثيرة أستطيع أن أدفع بها عن نفسى ويتبقى معى الكثير أيضا

- سهلة، ادفع لهم وخلص نفسك.

- على جثتى.

- يا بنى بضاعتهم ردت إليهم.

- عدنا للبراءة السبعاوية.

- عاوزنى أقولك إيه؟

هناك عالم آخر خلف شبين يا خالد، ناس لا يقرأون الكتب التى تبيعها أنت، ليتنى كنت مثلك أستطيع كلما ضاقت بى السبل أن أخترع حياة جديدة بفرقعة إصبعين، الحياة الوحيدة التى كنت أفضلها سرقها منى الأقوياء، أنا قوى الآن بهذه الفلوس، قال خالد لو كانت هذه قصيدة فهى رديئة كبقية شعرك.. لا تسخر منى يا خالد.   ما دمت يا سيدى مطمئنا لنفسك لماذا بحثت عنى؟ تريد أن تسمع منى كلاما يرضيك لأنك دفعت ثمن العشاء والبيرة، آسف، أنا لست عاهرة.

يا خالد اسمعني.

ماذا؟

ابحثْ لي عن محام شاطر

سهلة، بسيطة..

لا شيء على هذه السهولة يا خالد. حين نصحني مصطفى أن أستغل الفرصة كما كان ينبغي لفقير مثلي عقدت صفقات مشبوهة وأزحت بعنف كل من وقف في طريقي، عدت من هناك بفلوس وسمعة سيئة وعداوات لا حصر لها، وليس ذلك أسوأ ما فعلت. بعد سنة ونصف جاءت شيماء أخيرا، زوجتي التي لم أكن قد لمستها، جاءت إلى السعودية وهي تلبس أسود الحداد وعلى درجة مخيفة من النحول. سلَّمتها لي أم عصام/ عمتها، في شقتي الجديدة التي كنت أُخزنُ في حجرة منها الأدوية التي كنت أشتريها لنفسي بدلاً من توزيعها، كان ذلك يحدث كلما تسرب لي خبر بارتفاع وشيك في أسعار الدواء، فأخزنها عندي أسبوعا أو أكثر ثم أبيعها بربح أعلى حين يرتفع ثمنها. تركت لي أم عصام شيماء وذهبت لقضاء عمرتها غير المبرورة إن شاء الله. فجأة وجدت معي في الشقة شبحا لا يتكلم ولا يشاركني الطعام. كانت تتحرك حافية فلا أسمع خطواتها، ثم أفاجأ بوجهها خلفي في المرآة وأنا أحلق ذقني، أسمعها تتحدث مع شخص آخر وتعاتبه لأنه لم يشرب القهوة التي أعدتها له، وكان دائما لا يشربها وتعاتبه. جعلتني شيماء أكره الشقة وأكره نفسي زيادة، فجعلت أغلب وقتي أقضيه في الخارج،

أجمع الريالات بلا هوادة ولا أعود إلا فى ساعات النوم، وحتى فى النوم لم أكن أجد الراحة التى يستحقها جسمى المنهك، كنت أرى نفسى أغرق فى ماء (البانيو) مشلولاً لا أقدر على نجدة نفسى ولا حتى على الصراخ، فأهب من نومى لأجد شيماء يدها على رقبتى تحاول خنقى، ولمَّا كنتُ أضربها كانت تتصرع وتسقط مغشيا عليها بعد كثير من الفضائح وتكسير للمزهريات والمرايا بعض نوبات الصرع تلك كانت حقيقية وبعضها تمثيل. ذات مرة كنت ممتلئا بحيوانيتى وعلى استعداد أن أفعلها مع قطة السطح، فاقتربت من شيماء التى ما إن رأتنى حتى تصرعت بدون مقدمات، لاحظتُ أن عينيها كانتا واعيتين لما يحدث فقربت نار سيجارتى من يدها، ولكن قبل أن تطالها السيجارة هبتْ شيماء تصرخ وأقفلت على نفسها الحمام دونى. بات الأمر غير مقبول فاتصلت بأهلها فى شبين الكوم ليأخذوها عنى، لكن مكر الفلاحين تفتق عن حل أخر، خاصة بعد أن فشل الطب فى علاج عقمها وجنونها فتحت الباب فوجدتُ أم عصام وامرأة أسنانها من الفضة وعلى ذقنها وشم، عرَّفتنى بها أم عصام على أنها أيضا عمة شيماء من بعيد جاءت تعتمر، لم أصدق ولم أطمئن لزيارتهما المفاجئة ولكنى انتظرت ما يفعلان. خلال ما كانت أم عصام تُفرَجها على الشقة نشرت العجوز ذات الأسنان الفضية فى أركان كل حجرة مخلوطًا من الفحم ونشارة الخشب الملونة وكُريات حمراء لها أعين سوداء وأشياء أخرى. غطَّت المرايا بمناشف الحمام وهى تُجدِّف بشفتيها الزرقاوين، ثم أخذت

شيماء من يدها لتعبر من فوق صحن مملوء بالماء، ذلك كان الحل الذى تفتقت عنه رؤوس الفلاحين فى قرية (ميت الموز)، السحر، هل علم الدكتور مصطفى بذلك؟ حين عبرت شيماء من فوق الصحن اهتز الماء ثم تغير لونه فهزت العمتان رأسيهما فيما يشبه اليقين على وجود سحر فى البيت. جلسنا نحن الأربعة ننتظر، ماذا كنا ننتظر؟ أمرتنى الساحرة أن أسكت فضحكتُ فى سرى. بعد قليل سمعنا صرخة تأتى من المطبخ على إثرها تطايرت الأوانى من فوق الأرفف وتهشَّمت الأكواب الزجاجية وأطباق الصينى. حتى أم عصام التى بدت هادئة أول الأمر ارتجفت حين رأت ذلك وشرعتْ تصرخ لولا أن أسكتتها الساحرة بنظرة قاسية. كل ما تلا ذلك لا أذكر منه سوى انقيادى كالمُنوم لأوامر العجوز زرقاء الشدقين، وعلى السرير كانت شيماء تتصرع وتمسك بها أم عصام لأدخل عليها، هل كان الضوء على وجهيهما أحمر أم كنت أتوهم؟ وقميصى الذى مشى على الأرض وعلى الحائط خلف قميص شيماء يحاول أن يقف عليه ولكن الآخر كان يبتعد، ثم أنا عارى الصدر تدهن العجوز صدرى بالزيت وتُسر لى بأسماء النساء اللاتى جامعتهن من قبل (سناء، غادة) اقتربتُ كالثور من الجثة الملقاة على السرير وهى ما زالت ترتعش عند هذا الحد من الحكاية ابتعد القمر وقام خالد غضبان وإن كاد ليقع من سُكْره. أشار ناحيتى بيده التى تقبض على زجاجة البيرة، رفعها لفمه ثم أنزلها فارغة ورمانى بها، فسمعتُ صوت شظفها وراء ظهرى.

حمار، لماذا فعلت ذلك؟

غصبا عنى يا خالد.

كذاب.

وقف خالد على سور السطح يحافظ على توازنه بصعوبة حتى خفتُ عليه من سقوط يودى به.

- انزل يا خالد

اقتربت ببطء لآخذه من يده فزاد من ترنحه، وقال (أنا لو سقطت الآن هل يلام أحد غيرى؟ أنا الذى تحركت لذلك، صح؟)

- أسألك، هل هذا صحيح؟

- صحيح يا خالد.

- وإذاً، ماذا يسمينى الناس.

- حمار

- وأنت، ماذا يسميك الناس؟

- حمار

- ارفع صوتك.

- حماااار.

سمعنا أصوات النوافذ تفتح والناس يسألون عن ذلك الحمار فسحبت خالد من يده ونزلنا سريعا للشقة وهو غارق فى الضحك، ولما تبينتُ أنه لم يكن سكران هممت به وأنا ثائر لكنه استوقفنى بود. قال خالد.

- أنت ضيعت الليلة على حكاية قديمة، وأنا كنتُ أريد أن أحكى لك.

- أنا عاشق يا ولد.

* * *

ولكن غادة لم تكن كبقية النساء، وكنت كلما رأيتها شعرتُ بقصيدة مُلحَّة على روحى فأكاد أبكى من حيرتى، فلا أنا شاعر ولا هى التى توصف، حتى إذا ابتسمتْ لنهرٍ أخاف أن يهدأ لها ولا يمشى، أو أن يهش لها فتطَّاير سمكاته كمطر صاعد للسماء. ولكن غادة لا يملُّ عاشقها، وكنا نتباسط ولا أرفع الكُلفة بينى وبين جمالها كنت أنظر إلى ساعة الحائط الأثرية فى منزل عالية الباشا فأجدها الثامنة، مثلا، ثم ألتفت إلى التى تدعونى من وراء المخمل الملفوف حول أعمدة السرير النحاسى، فقط مجرد التفاتة، فأجد عقرب الساعة مشى إلى التاسعة. أين كنت خلال هذه الساعة؟! أسألها فتجيبنى لائمة (زى القطط تاكل وتنكر) كيف لا أستطيع كتابة قصيدة فى غادة، وكأن روحى تنكمش من جلال لها أكثر ما تنبسط للجمال سمعتُ الشاعر (محمد الشهاوى)، فى الخيمة الرمضانية فى قصر ثقافة شبين الكوم يقول (هى امرأة تشبه الشمس إلا أفولا) فقلت صدقْ، وقام من بعده عصام عيدة فقال (الناى شريان نفدت دماؤه والحزن لم يزل، إنى لينقصنى دمى حين تنقصنى أمل) فقلت له صدقت. كنت قد تلبستنى فى تلك الفترة

حالة من قلة الحياء أظن كان مدعاها الخوف والقلق الشديد؛ الخوف من أن تتركني غادة لأى سبب، خاصة والأمور لم تكن تتحرك لصالحي، فغادة كانت مهتمةً بمشاريعها التي ليس لى مكان فيها، بينما أمست هي مركزا تتحرك منه كل فروضى عن المستقبل؛ سأسافر معها إلى الخليج لأعمل كيميائيا وتعمل هي ممرضة ثم نعود بالمال الذى لا يجعلنا نلتفت لشيء سوى المتعة الممدودة. بعد فترة بات ذلك الحلم باهتا لا أرض له، فهي تمضى في إرسال العمالة إلى الخارج، وتُعدُّ ابنها ليصبح طبيبا، وعلاقتها بزوجها تبدو في كل الأحوال والأيام على ما يرام. ماذا لو تخلت عن لقاءاتنا في منزل عالية الباشا؟ ساعتها سيكون لها حياة كاملة وأنا لا حياة لي بدونها، ماذا لو أعجبها رجلٌ أخر؟ كل هذه الظنون وأكثر كانت تأتي على رأسي، وكنتُ كلما قَلَّت حيلتي قل حيائى لأبدو أفضل مما كنت عليه. أتكلم كثيرا وأجادل وأقول الشعر في كل محفل، ولَمّا كُنّا نطوى الخيمة الرمضانية أذهب لأعرف الشعراء الكبار باسمي فيمدون أياديهم بجفاء واستنقاص لا يخفى على أعمى، ثم إذا مشوا من شبين أجلس مع أدباء شبين، فأكون أكثرهم تقوُّلاً فأقر مثلا أن (محمد الشهاوى شاعر ولا شك، ولكن ليس لديه مشروع كامل ولا حتى تصور لمشروع، إنه يكتب، وفي أفضل الأحوال سيكون من شعراء القصيدة الواحدة، ولن يتبقى من هذا الزخم الصوفي سوى قصيدة المرأة الاستثناء)، وأقول (صدقوني لا أمل للشعر في هذه البلاد، من يسمع الشعر أو يقرأه غير الشعراء؟ يا سادة نحن نحرث

في الماء)، (لقد ابتلانا الله بشعراء السبعينيات، وعلى أيديهم وبفضلهم تم القضاء تماما على ظاهرة الشاعر النجم). كلام كلام ولا أسكت أبداً ولا يستطيع واحد من الجالسين إسكاتى إلا أحمد نعيمة الذى كان ينهرنى بشتائم نابية يخجل الأخرون من التفوه بها سأسافر معها، كلما حدثتُها فى الأمر سوَّفت وماطلت ولهتنى عن ذلك بالمتعة ومبلغ من المال تضعه فى جيبى، أنا قطتُها الطيعة، كانت ترتاح لى لأنى أحسن الإنصات إلى جسمها ولا أبادر أبدا، فتعلمتُ منها ما يجعلنى أميراً فى فنون العشق، فقط مع غيرها، لأنها دائما كان لديها جديد أتعلمه، كانت غادة مثل الشاعر الذى تعوزُه ورقة ليقبض على الخاطرة، ومن شأن ذلك أن يجعلها تطلبنى فى أوقات غير معقولة، تطلبنى وتُلح على فأسبقها إلى منزل عالية الشامية، الفتنة التى لا تموت أبدا. أبدا لم أشعر أنى سيدها أو كفؤ لها فى ظنى ليس هناك أسوأ من أن يأتى الرجل ما يحلو له مع امرأة يعشقها وهو عاقد ذراعيه على خصرها، لكنه يشك فى حبها له وينتظر اليوم الذى تزهده فيه شىءٌ ما كان يحدثنى عن أخرين اختبروا هذا الجسد ثم زهدتهم هى، شىءٌ ما يذكرنى على الدوام بالرجل الذى ارتطم بى على سلم بيتها، ولم أتبين وجهه، نزل فى ظلمة المدخل بأقدام غليظة متسارعة، خبطنى فى كتفى وقال شيئا وهو يهرب، حين سألت غادة عن ذلك أنكرت. لثلاث سنوات هى التى كانت تطلبنى، وأنا بذكاء قد تراءى لى وقتئذ قررتُ ألا أبادر معها على السرير، مهما تعلَمت فأنا نقطة فى بحر وهى الأستاذ.

أكيد أن أولئك الذين زهدتْهم غادة حاولوا بغرور قراءتها كبقية النساء. ولكن غادة ليست كبقية النساء، وإن كانت لتُمسك بكلتا يديَّ كاللجام وتعدو في عوالم لذتها الخاصة؛ تشهق وتصرخ، تضحك وتبكي، وأنا صلصالة مرِنة بين أصابعها أتَشكَّلُ كما يحلو لها، حصانا ونهرا وعرشا ونبيذا ونار المدفأة، لكنها لم تصنع مني فارسا أبداً لم أشعر بالقلق من ناحية عادل فهو ديوث بطبيعته، بل أحيانا كثيرة كنت أتمنى أن يغضب، ولكن هيهات، وفوق هيهات فإن غادة كانت تمسك مقاليد كل شيء؛ كانت تدير العلاقة بيننا - أنا وعادل - باقتدار يجعلنا نتحرك فقط في المساحات التي خصصتها لنا كل ذلك وهي جميلة وطيبة تُغدقُ علينا بالمال والهدايا كان ما يقلقني هو حسام، فأمه تعبده، ولو خيرتها الظروف بيني وبينه، فلن تحتاج لأكثر من ثانية لتنأى بجنبها عني.

*

بعد أن تخرجت من الكلية كنت أجرب المشي على خارطة قاسية التضاريس؛ فقد كان عليَّ أن أجد عملا يكلأني، خاصة وقد انقطع الراتب الشهري الذي كان محمود السبعاوي وصديقه المليونير قرراه لي، لأن تجربة السبعاوي أجهضت بسفر المليونير إلى إيطاليا دون سابق إنذار. سافر والفرقة تستعد لنجاح حقيقي، بعد أن درنا بعروضنا على أقاليم كثيرة وعرضنا في مسرح الهناجر، وبدأ أساتذة المسرح في التعرض لتجربتنا بالثناء والنقد، وإن كانت إلا خطوات نحو الشهرة. كان من المقرر الاستعانة بنجوم الدرجة الثانية

والثالثة، أصحاب الأجور الزهيدة، ثم التسويق لعروضنا فى قناة النيل الثقافية وشبكة الإنترنت، ولكن اختفى المليونير، وصدق حدس أحمد الصعيدى فيه أنه عيِّل أهبل. عندئذ استحال السبعاوى إلى شخص شديد الديكتاتورية وعديم التقدير؛ طالب الناس بالإنفاق على عروضهم، فقالوا له بصراحة إنهم غير قادرين، وكانوا كذلك، حاول إقناعهم بعمل الديكور من الورق المقوى، فصارحوه بسخافة الفكرة. تقدم بعضهم بحلول رفضها السبعاوى كلها؛ مثل أن يقوم عضو مجلس شعب عن الحزب الوطنى بالتمويل على أن ينضموا جميعا للحزب فيمارسوا العمل من خلاله

- أنا أريدكم فنانين، بينما أنتم مطيباتية.

انفرط عقد الناس واحدا واحدا، وعادوا لسابق عهدهم إلى قصر الثقافة بعزم ثابت على عدم المغامرة من جديد تحت أى ظرف، وأمام أى كلام حلو يعشمهم فى الشهرة. انعزل السبعاوى واكتأب لفترة ليست قصيرة، ثم بدأ من جديد يجمع فرقة صغيرة، يختار أفرادها على أسس أخلاقية، وإن أهمل فى أحيان كثيرة عامل الموهبة. حين نظر ناحيتى قلت له أنا معك يا سبعاوى، وأيضا أنا معهم. لكن الأمر بات معضلا، كيف سآكل وألبس وأشترى السجائر، ومن أين لى بإيجار الحجرة التى أسكنها؟ ترك محمد الحفنى الحجرة فكنتُ مرغما على دفع السبعين جنيها وحدى أول كل شهر، فلقد تخرج حفنى أيضا وسافر من فوره للقاهرة يعمل فى واحد من فروع محلات (التوحيد والنور)، ذات الراتب الكبير والجهد المضنى،

فصاحب العمل كان لا يسمح للعاملين عنده بالجلوس طوال الاثنتى عشرة ساعة التى يقضونها فى المحل، يبيعون ويحملون البضائع للمخازن ويكنسون ويمسحون الحمامات، ذلك لينفقوا دخلهم الكبير على علاج دوالى الساقين وخلل فقرات الظهر صحيح كان محمد الحفنى يتحصل من هذه الوظيفة على ثلاثة آلاف جنيه شهريا وربما أكثر، لكنه كان ينام ناصبا ساقيه على الحائط، وكانت الدوالى فى ساقَيه زرقاء ومنتفخة، وأظافر قدميه كانت مغروسة فى لحم أصابعه. هكذا كُنَّا نراه حين كان يزورنى مرَّةً فى الشهر كلما كان سليم الطبال يرى حفنى على تلك الحال كان يشفق عليه وينصحه بترك ذلك العمل الملعون

- يا أخى يلعن ديك إيطاليا

- خلاص يا سليم، اقتربت من تجميع فلوس العقد الذى سأسافر به.

غادة بدأت تضيق بى كلما طلبتُ منها فُلوسا وإن لم تعلن ذلك صراحة، لكنها كانت تكلمنى عن العمل، أى عمل ريثما تُدبر لى سفرا إلى دولة خليجية.

- الشيء الوحيد يا غادة الذى يجعلني أترك شبين لسنوات هو أن أكون معك.

ولكن بدا لى أنها قد أجَّلت قرار السفر المزعوم أو ربما ضربت عنه صفحا بعد رواج مشروعها فى تصدير العمالة للخارج، ما جعلها تفكر بجدية فى تأسيس مكتب سفريات كبير بالشراكة مع محام من أقارب زوجها.

- خلاص، أشتغل فى المكتب.

- بأى صفة؟

- أى حاجة، محاسب، سكرتير

- وماذا أقول لعادل؟

- عادل يعرف كل شيء، أنا متأكد.

- أنت مجنون.

كانت ثقتها فى حبى لها بلا حدود فكانت هادئة دائما، أما أنا فكلما اصطدمت بمسألة صفتى أمام الناس كانت تركبنى العفاريت وأهرف بما لا أقدر عليه (أنا لا أحتاج إليك يا غادة وسأرد لك كل مليم أخذته منك ذات يوم، أنا كيميائى لست مغنيا فى فرقة، أنت نفسك قلت إن تخصصى مطلوب فى الخليج، ويوما ما يا غادة أتركك هنا فى شبين وأسافر بغير مساعدتك، هل أحتاج مساعدتك أصلا؟ سأسافر وستبحثين عنى بلا جدوى). وقفت غادة أمام المرآة تضع الدبابيس فى حجابها بغيظ وهى لا تلتفت ناحيتى، ثم أخذت حقيبتها وصفعت الباب من خلفها. حينئذ بكيتُ لأول مرة على السرير النحاسى. رفعت رأسى بعد حين لأجدها واقفة تبتسم لى فى مَكْرٍ جميل. ابتسامة غادة مثل قبس النور، تلاطَفنا وتباسطنا ما يكفينا شهرا وزيادة، وافقت هى على عملى عندها فى المكتب الذى ستفتحه، وافقتْ كأنها تطلب منى، وستبحث هى عن مسألة الصفة وكلام تقوله لعادل.

- سنلتقى فى رمضان؟

- ولن تصوم؟ حرام عليك.

إذا قالت غادة إننا سنفترق شهرا فذلك ما كان سيحدث، ليس عليَّ أن أعرف السبب طالما أن غادة هى التى تدير الأمور، فالسؤال والعلة كيان واحد، سنبتعد قليلا لأن غادة أرادت ذلك، إذًا سأملأ روحى رمضانا شبينيا وبعدها تفرج. رمضان فى شبين الكوم، فى الشتاء خاصة، أسيان بالنهار مثل عاشق يحبس الدمع، أو يذرف قطرات من سحاب أبيض على شجر الورد الأحمر فى شارع الغزل (شارع العشاق)، ويبلُّ تراب الطريق والبرسيم فى الغيطان التى أمام محطة القطار، يركب (سرفيس خط ٤) إلى داخل البلد قُبيل المغرب ليوزع على الناس التمر ودعوات المغفرة، ثم يدخل الحى القبلى يبل العرقسوس، ويصنع عجينة الطعمية للفقراء وللذين أُتخموا من اللحوم فى العشر الأوائل، وبعد أن يطمئن على حسن الاستقبال فى موائد الرحمن، عند المهندس أشرف أشود، على الناحية الأخرى من النهر فى البر الشرقى، وعند الدكتور صالح ناحية مجمع المواقف، والحاج محمد البربرى فى (ميدان الكتعة)، يضع رمضان قوالب الثلج فى أوانى التمر الهندى للسائحين، ثم يأخذ تمرتين فى جيبه ليصلى المغرب فى مسجد (سيدى أبو الغار). رمضان فى شبين الكوم خيمة كبيرة فى سقفها مشاك تنثر نورا أبيض فى الليل. بعد التراويح كنا نجتمع فى الخيمة الرمضانية التى تُنصب سنويا فى حديقة قصر الثقافة، ويدعى لها أدباء كبار من القاهرة، ممثلون ومطربون ومنشدون، ويعود لنا الشبينيون الذين نفروا للقاهرة، الذين فضّلوا مقهى البستان على مقهى السنترال،

وفضّلوا (الأتيليه) والأوبرا على منتديات وعروض قصر الثقافة.
كانوا يتباهون أمامنا بمعرفتهم بالأدباء الضيوف، ثم يوزعون علينا نسخا من أعمالهم المنشورة مؤخراً ويدور بيننا الشاى والعصائر وحلو الكلام، فيقوم كل واحد إلى الميكروفون يُلقى قصيدة، طبعا بعد الفقرة الخاصة بالضيف. حتى نحن الملتصقين بشبين كنا نسمع نفس القصائد التى نسمعها طول السنة ولكن باستقبال مختلف فى الخيمة الرمضانية؛ فيخرج علينا أحمد الصعيدى بحضوره الطاغى فى واحدة من قصائده السياسية أو الصوفية التى لا تخلو أيضا من سياسة (أنا حتة نبى، عبدك الصالح، ساعة ما اشوف السما فاتحه لى بتصالح) أو (على باب سيدنا الحسين ولد مدبوح ودمه فيه).
كذلك يقوم عصام عيدة، أحمد البربى، طاهر البربرى، مصطفى صقر، يقولون الشعر خيمة أخرى هى خيمة الدكتور صالح حفيد شيخ الطريقة الحامدية الشاذلية، تتحول الخيمة إلى مجلس للذكر فى العشر الأواخر من شهر رمضان. ومما كان يقال وعلمتُ صحته فيما بعد، أن الدكتور صالح ذلك ليست له علاقة بالطريقة وإنما يوفِّى نذرا نذره جده، كان الدكتور يتحمل نفقات الخيمة كاملة لكنه لا يحضر بنفسه، لكنه أيضا رجل يتصدق فى رمضان وغير رمضان. سمعنا عن رواد خيمة الدكتور حفيد الشيخ أن منهم القضاة والسفراء واللواءات، لكن ذلك لم يتأكد لى ولا لأحد غيرى. كنا نرى رجالاً حسنى الهيئة بغير أُبَهة، تعرف فى وجوههم الشوق إذا أطرقوا فرادى وهم على حصير منسول يظهر تراب

الأرض من خلله، وإذا علَّقوا أبصارهم بثريات السقف وعادوا يتمتمون. ويدور علينا فلاح طيب بكتيبات تحوى قصار السور، أسماء الله الحسنى، وأورادًا من دعاء النبى والصالحين، وكل من أخذ كتابه كان يتقدم جالسا لينتظم فى الحلقة. نسألك يا من هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن (جل جلاله) الرحيم (جل جلاله) الملك (جل جلاله) السلام (جل جلاله).

وبعد الابتهال الجماعى يوزع القائمون على الخيمة أكواب اللبن الذى فضَّله النبى (ص) على الخمر يشربون فإذا هم سُكارى بسُكْر قلوبهم المشبوبة، ويقوم أقلهم صبرا على وجده يطوح جسمه يمينا ويسارا، ثم يتتابعون كل بحسب وجده، حتى إذا ازدحموا يظهر من بينهم فتًى أمرد تنشق الأرض عنه، فينتظم الجمع فى صفين وهو من بيننا ينشد

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتُك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى
يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا

الله الله الله الله الله

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرٌ أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفى نظرة أمَّلتُها فغدوت معروفًا وكنت منكرا

أحب التصوف وأجده أكثر المناهج الإسلامية والحياتية ثراء على الإطلاق، فالصوفيون لا يفرضون طريقتهم على أحد، بل لا يدعون إليها من الأساس، وفي أفكارهم رحابة تتسع للاختلاف وتفسح للكيانات الأخرى، بعكس الأصوليين المفرطين في التشابه. وعلى الرغم من وَلَهي بالحال كنتُ لا أجد دمعا أذرفه في خيمة الدكتور، ويهالُني ما أراه لكني لا أصعد صعودهم ولا أسقط. هكذا كنت دائما؛ على وشك أو بين بين، لي قصيدة أعرف أني سأكتبها يوما ما تتزاحم على حروفها حتى يلتجم لساني فأسكت وتبوخ روحي ويهبط قلبي كالمنطاد المثقوب. لي وظيفة، لي عائلة أكاد أسمع بكاء أطفالها ومرحهم في بيت مطليٍ بالأخضر، إلا نوافذه فهي بيضاء، كلما جلست في نادي التجارة أراه، وحدي، على الناحية الأخرى من النيل ولا يرونه.

اصح يا عم. أنت يا أستاذ

- خير يا أستاذ فوزي؟

- الإيجار أربع شهور يا سيدي.

صاحب السكن أصبح لحوحا يدخل على حجرتي وأنا نائم في النهار بعد سهرٍ للفجر في الخيام، يوقظني ويحدثني عن السعي على المعايش، وينصحني باستبدال عرق الوخم بعرق الكسب الحلال، وكأن ابن الحرام همُّه مصلحتي وليس الإيجار المتأخر هو موظف بقصر الثقافة، ولم أر من هو أكثر منه تحقيرا للمسرحيين والأدباء، عنده في مخازن القصر عيون المكتبة العربية يتركها في شماتة

للفئران والرطوبة والنشع الذى يطال الجدران، وكنا نتوسل إليه لينقل الكتب إلى قاعة أخرى فيرفض، وكنا نسرق منها كلما أمكن تغفيله. كان يتمنى لو تقلع له عين ونترك أنا وحفنى وسليم الطبال السكن عنده، فلما ترك حفنى الحجرة التى كان يشاركنى فيها طمع أن ألحق به، وظل يحدثنى عن الثلاثة آلاف التى يحصل عليها حفنى من (التوحيد والنور) شعرت بالصداع من كلامه الذى لا ينتهى عند حد وكذلك من امتناعى عن التدخين فى نهار رمضان فقلت له فى ضيق.

- يووه، كل يوم نفس الكلام.

- يا سيدى ادفع الإيجار وأنا أسكت

كنت أعلم أنه لو تمكن من فلوسه لطردنى من الحجرة فى نفس اليوم، لذلك كنا أنا وحفنى نُبقى له شهرا أو شهرين لا ندفع إيجارهما، تلك الحيلة تعلمناها من سليم الطبال الذى كان يدفع له بطريقة النقطة فى الأفراح، وفوزى نصار يصبر عليه وعلى النسوان اللاتى يأتين لسليم فى حجرته، المجاورة لحجرتنا، بلا انقطاع حتى فى وضح النهار. ولما رآنى أفرك يدى من الضيق به قال كل ما فى بطنه. ابن الحرام كان يريد أن أنقل له الطوب والأسمنت من الشارع للطابق الرابع الذى ينشئه، كل ذلك على كتفى فى نهار رمضان نظير الإيجار المتأخر على، وظل مبتسما بأسنانه الصفراء ينتظر الرد. عند هذا الحد من الكلام تجردت مثله من كل شفقة وقررتُ أن أنتقم منه بما هو أشد من الشتيمة والضرب، قررت أن أوقظ سليم

الطبال حتى (يطلع ميتين أهله).

- دقيقة واحدة يا أستاذ فوزى.

- خير؟

ولما رآنى أطرق باب حجرة سليم تغير لونه كفأر صغير ينتظر الشبشب الذى سيفدغ رأسه. وسمعنا صوت سليم من وراء الباب يتنخم ويبصق، قليلا ولبس الشبشب ثم قام يكحت فى بلاط الحجرة حتى وصل للباب وفتحه. كان سليم يحاول فتح عينيه بصعوبة، لكنه بمهارة لا يخطئها لسانه حتى وهو سكران قال (فيه إيه يا ناس يا ولاد ميتين الكلب؟)، فبادره فوزى نصار بذُل وخسة (صل ع النبى يا سى سليم، أنت مش صايم واللا إيه). كنت أنا نفسى أتحاشى سليم رغم كونه صديقا لمحمد الحفنى الذى هو أعز أصدقائى، ورغم كونه كريما يحمل إلينا أنا وحفنى الأكل المشوى والخمر، ويُقرِضنا فلوسا يعتبر من العيب عليه استردادها، لكنه كان لا يتورع عن سب أهل وديك الذين يحبهم، على سبيل الود، فما بالك لو كان غاضبا؟ لذلك كنت أرسم بحذر خطوطًا حمراء بينى وبينه لا نتجاوزها إلى الصداقة المهينة، ولم أعتقد أبدا أنه سيربطنى به علاقة قوية كالتى ربطتنى به فى تلك الأيام وما تلاها، حتى إنه أصبح فى فترة ما صديقى الوحيد الذى أطمئن إليه. بمجرد أن ترك حفنى الحجرة جاءنى سليم بدافع من الوفاء لحفنى يعرض على خدماته. أما فوزى نصار فكان أكثر ما يخشاه هو سليم ونسوان سليم. ذات مرة احتدم الخلاف بينهما، وكان قد أعد لسليم مجلسا من الرجال الكبار فى الحارة وجاء معهم (صبحى عكارة) البلطجى،

بترتيب من فوزى نصار، حتى إذا تهور سليم وفتح مطواه غلَّطَه الكبار وتصدى له صبحى عكارة (بالسنجة)، وصبحى كان دائم الحسد لسليم على نسوانه اللاتى لا يشارك أحدا فيهن، فكان بوده أن يصنع بالسكين علامة تقابل الأخرى التى فى صدغ سليم ليبدو كمن يحمل قرنين فى وجهه، وذلك له مدلوله بين الناس، لربما حينئذ ينفحه سليم ببطة بيضاء زوجها مسافر، تصرف عليه من فلوس زوجها وتُمتعه كما يفعلن معه. وسليم رغم كونه طيبا إلا أنه كان داهية ابن حرام وماكرا، داهن الكبار وتظاهر بقبول حُكمهم عليه بدفع الإيجار المتأخر، بل ودفع شهرين مقدمين، ولف صبحى عكارة فى جيبه حين بالغ فى إكرامه بسجائر الحشيش. على ذلك بدا أن الموضوع قد انتهى وسليم هو الذى أذعن وخاف. لكن لم ينقض أسبوع حتى سمعنا بخبر أخر؛ كان فوزى نصار يشترى من (سوق عمر) بناطيل قديمة لابنه الذى التحق بالجامعة، وعلى غفلة منه وهو ماشٍ فى السوق ارتطمت به آنسة بيضاء وجهها طفولى، تلبس إسدالا أبيض يغطيها من رأسها لقدميها، ولم تتركْ له فرصة ليعتذر. صرختْ كالمكلومة على الناس فجاءوها من أمام كل فرش.

- ماذا حدث يا بنتى؟

الرجل العايب.

وخمن الجميع حين بكت هى أن فوزى نصار قد تحرش بها فى زحمة السوق وغفلة الناس، بمقارنة بسيطة بين وجه فوزى نصار ووجه ذلك الملاك الذى كان يبكى دموعا من لؤلؤ، ويتمنى كل رجل

لو كانت ابنته أو أخته جعل الناس يضربونه بغلٍّ عظيم انتقاما منه ومن أمثاله من المتحرشين. كان سليم أول من زاره وهو على السرير منفوخ الوجه مضمدا مثل المومياء، فأشار فوزى نصار لزوجته التى دخلتْ ساكتة لتحضر فلوس سليم ملفوفةً فى ورقة كما أخذوها منه. منذ ذلك اليوم وفوزى نصار لا ينادى سليم إلا ب (سى سليم)، أى سيدى ولم يكن فوزى نصار فى حاجة إلى مشكلة جديدة معه، ولكن قسوة بقسوة، هو الذى أرادنى أن أحمل الطوب والأسمنت على كتفى فى نهار رمضان. طلبت من سليم وهو واقف فى فتحة الباب يفتح عينيه بصعوبة أن يُقرضنى خمسين جنيها

الأستاذ فوزى يريد الإيجار حالاً

- عاوز إيه يا فوزى؟

سلامتك يا سى سليم.

كان سيطردنى.

- تطرد مين يا بن القحبة؟

- يا سى سليم صل ع النبى. رمضان كريم.

- خلاص الفلوس عندى يا فوزى.

بلع فوزى لسانه من الخوف وقرر أن ينسحب لكنى لم أكتف بذلك وبالغت فى انتقامى، ففتحت موضوع الطوب والأسمنت أمام سليم، وكان الرجل يضع يده على فمى ليسكتنى دون جدوى. ما إن سمع سليم بالموضوع حتى انتصر لى بكل ما فى قواميس الشتائم وقلة الحياء، فخرج فوزى نصار عن طوره وخرج الناس من حجراتهم يحولون بينهما

ويسألون عمًا حدث، وبدا أنه نسي سريعا علقة السوق فهلفط ببضع كلمات كانت وبالاً عليه. ما حدث بعد ذلك لم أكن أنا سببه ولكن الخلافات القديمة بينهما والتى نبشوها بأصابعهم وأنا واقف. وقف سليم كالمجنون بين الحجرات يحاول أن يمسك رقبة فوزى نصار الذى كان يهدده بالبوليس والبلطجية وبالطرد من منزله كالكلاب. لكن الأمر الذى أفقد سليم صوابه أكثر من هلفطة فوزى نصار هو (عتمان) الأعرج الذى كان يسكن حجرة بالسطح، وكان الله قد ابتلاه بالداء الأسود فاستغل الشجار وجعل يتحسس سليم الطبال ويحتضنه كأنما يمنعه عن فوزى، فكان سليم الطبال يصفعه بغيظ لقرفه من شذوذه المُلِح حتى فى تلك اللحظات، فيقول عتمان الأعرج وهو مُكلبش بيديه على سليم الطبال.

- خلاص يا سليم يا حبيبى، حقك علي.

- وأنت مالك يا بن الـ.

-اضربنى وما تعصبش نفسك.

انفلت سليم منه إلى حجرته وعاد بالمطواة، وقبل أن يلمع السلاح كان فوزى نصار وعتمان الأعرج يفران صعودا على السلم. وهدَّأنا سليم أنا وعم حسن بائع (الفشَّة)، ومنعناه بصعوبة أن يشرب سيجارة فى نهار رمضان. سليم رغم فحش غضباته وعيوبه كان يسمع للطيبين إذا طلبوا منه أن يستغفر الله، وكان ينسحب كطفل أقر بخطأه. أعطانى الخمسين جنيها التى طلبتها وأكد على أن أفطر معه فى حجرته جيبه كان لا يخلو من الفلوس والحشيشة

وثلاجته كانت لا تخلو من الطبيخ والبيرة، حتى وإن احتاج إلى الفلوس كانت واحدة من نسوانه تبيع قرطها أو سلسلة رقبتها من أجله عن طيب خاطر، وربما دون أن يطلب. كان ذائع الصيت بين الأرامل والجميلات اللاتى اغترب أزواجهن للعمل فى الخليج أو فى إيطاليا، وحتى بين طالبات الجامعة من هواة الزواج العرفى. يشاع عنه تمكنه من قيادة السرير وبقاؤه على اللذة لفترة طويلة يخور عنها العنتيل، بل وأكثر من ذلك أنه كان يحدد نقاط ضعف أى امرأة بنظرة واحدة، ويحب المتمنعات منهن بالخصوص، حتى إذا نظر لواحدة منهن نظرة ذات معنى كانت ترتبكُ له كالماء يغلى فى آنية من نحاس. سمعنا أنا وسليم أذان المغرب من الجوامع البعيدة لكنه كان يصر أن يكسر صيامه بعد سماع الشهادتين من الزاوية التى فى آخر الشارع. كان متطَرفًا فى فجوره وورعه لا يلمس وسطًا، وضع بيننا صينية كبيرة عليها فتَّة وحمام وفراخ ولحم بقر، نقر منها نقرة العصفور ثم أشعل سيجارة الحشيشة، وأكلتُ أنا أكلة الطفل وأشعلت سيجارتى. فتح زجاجة البيرة وبدأ يلتقط الطعام بشهية أفضل.

- عاوز بيرة؟
- لا شكراً
- من غير كحول.

أفهمته أننى سأصلى التراويح فسحب الزجاجة إليه وهو معجب بى (الصلاة، يا سلام! أنت رجل ابن حلال صحيح)، وطلب منى أن

أدعو له الله بالهداية. في تلك اللحظات بدا لي سليم الطبال ودودا وعبيطًا، ليس هو الشخص الذي كنت أخشاه، وبدا لي أن حفني كان على شيء من الذكاء حين صاحبه، وكما يحدث أن يلتقط أحد الجالسين من على لسان الأخر بادرني بالحديث عن أحوال محمد الحفني.

- حفني سيموت في التوحيد والنور

- أنا نصحته أن يترك الشغل هناك.

- لكن لا مؤاخذة، اسمه في النهاية شغَّال.

فطنت بسرعة أنه يلمح لبطالتي واستدانتي منه فأخرجت الخمسين جنيها التي لم تسترح في جيبي ورددتها إليه فاحتج علي في غضب

- يا جدع على الحرام من ديني ما قصدت.. (وأجلسني بالقوة وأخرج لي سيجارة).

كنوع من الحفاظ على ماء الوجه أخبرته أنني سأعمل قريبا في مكتب سفريات صاحبه عادل المصري.

- يا نهار أسود ومهبب، عادل المصري؟

عادل صاحب فرقة وسليم طبال، وكثيرا ما جمعتهما الليالي الطوال، وكم استحل عادل المصري عرق سليم وأكل عليه أُجرته كما فعل ويفعل مع أخرين أكثر من أن يحصوا لكن ليس لذلك السبب وحده كان يكره سليم وعادل أحدهما الأخر، وإنما لصولاتهما في عالم النساء وتعدى كل منهما على حريم الأخر

- أنت تكره عادل لأن النسوان يحبونه.

- عادل ما خطفش منى غير واحدة، رقاصة من طنطا

- هه؟

- وشرفك رجعت لى بعد شهر تبوس رجلى.

- يا رجل!

عادل كل شغله بالكيميا، لكن أنا شغَّال باللحمة والحشيش.

وفيما كان الكلام سيأخذنا أكثر سمعنا دقا على شباكه من الخارج، ففتح الشباك شيئا وعاد يستأذننى لأنصرف، فخرجت من عنده ودخلت بعدى عباءة حريمى تتمايل. خرج سليم من قريته حافيا، هاربا يضع ذيله بين أسنانه، ومن خلفه عشرات الفلاحين بالفؤوس والهراوات. كان الملعون فى مراهقته قد جعل من موسم الذرة فى القرية موسما للدعارة، وكان يدعى أمامنا أن أولاد وبنات تلك القرية التى تركها هم أبناؤه وبناته. عاش مَلكًا فى كوخه المبنى من القصب عند الترعة، إلى أن اشتجرت جارتان فى القرية وجاءا فى شجارهما على اسم سليم لتُشهر إحداهما بالأخرى، فانتبه الناس لكلامهما وهبوا من فورهم إلى كوخ سليم، وهناك تعرف كل فلاح على شىء من لوازم امرأته؛ قميص من الحرير، سروال أحمر، عقد من البلاستيك الملون اشتراه أحدهم لزوجته من مولد السيد البدوى، كذلك وجدوا صعوبة فى البقاء طويلا داخل الكوخ بسبب الطعام المتكدس الذى تغيرت رائحته من الحَر؛ (فَطِير مِشلتِت)،

(زَفَرٌ) ، وأوعية فخارية مملوءة لحلوقها باللبن المتخثر أمسك فلاح منهم بذَكر البط المُحمر بعناية وروعة ، تعرف عليه فى آنية بيته. جعل المسكين يمزق ذكر البط بأسنانه ويرمى لحمه ، ثم جلس يضع الطين على وجهه ورأسه.

- بنت الكلب تجول لى (تقول لى) البطة خطفها الكلب ، البطة خطفها الكلب.

وظل المسكين يردد هذه الجملة لبقية حياته ومن خلفه صغار القرية ، أبناء سليم على حد زعمه. لم يعد سليم يذكر عن القرية التى جاء منها سوى قفزة عالية عبر بها الترعة ، قفزة حوّلته من نفرٍ يعمل فى غيطان الفلاحين إلى طبال فى الأفراح والليالى الملاح. الآن كبُر سليم فى السن ولم يتزوج ولم ينجب ابنا شرعيا واحدا ، فكان يأخذه الحزن كلما خلا لنفسه أو لصفى له مثل حفنى. ذات مرة فى جلسة صفا بينهما طاف الحشيش بدماغيهما وسأله سليم إن كان من الممكن أن يدخل شخص مثله الجنة ، وعلى الفور شخر له حفنى (جنة إيه يا بن الوسخة ، كان فاضل لك جنة؟) ، فلما تغير وجه سليم داعبه حفنى قائلا (يا عبيط ، النار أحسن لك) ، فاندهش سليم لكلام حفنى وسأله عن السبب فأجابه حفنى أن النبى (ص) قال (أكثر أهل النار من النساء)

* *

غادة تعمل نادلة فى كازينو فى إيطاليا ؛ محل خشبى يقدم القهوة وشرائح اللحم بالنهار ، وفى الليل يقدم النبيذ والرقص ،

تعزف فيه فرقة مغمورة. تلبس غادة زى المُضيفات وشعرها الأسود ملموم حول قبعتها الزرقاء الصغيرة، تنورتُها الزرقاء ضَيِّقة وقصيرة إلى ما فوق الركبتين. وكان (فيتو كورليونى) زعيم المافيا فى فيلم العرَّاب لا يحب قهوة الصباح إلا من يدى أنا، وأنا كنت من خلف الخوان الخشبى ألبس المريلة البيضاء فوق قميصى، وأتَسمع ما كان يقوله لغادة وجعلها تضحك هكذا بسحرٍ ومُيوعة، ثم تستدير ناحيتى فتضحك أكثر أرضية الكازينو من ألواح الخشب المصفوفة، وكانت الموائد كلها مفروشة بقماش كاروهات، وعليها فازات صغيرة يخرج من أعناقها الضيقة ورد أحمر، الضوء الداخل من النافذة التى خلف فيتو كورليونى كان يلمس الوردة الحمراء وفَرش المائدة ثم يلقى حزمة على الأرض تعبر عليها غادة بساقيها المكشوفتين. جذبها العرَّاب إليه برفق ثم شبك الوردة الحمراء فى صدر قميصها

- صدقينى، أنا لم أُهد امرأة وردة من قبل.

ثم قبَّلها فى رقبتها العالية، وكنتُ أرى ظهرها وهى منحنية عليه حتى ارتفع التنُّور عن ورِكيها شيئا، ثم بدأ ينقر بأصابعه فوق تنورتها المشدودة. عند ذلك الحد لم أحتمل غطرسته فسكبت دون وعى الكثير من النبيذ على شرائح اللحم التى أشويها فارتفع الصوت والدخان، ومن ثم خرجتُ له من وراء الخوان شاهرا سكين اللحم الكبير، فلما أَحس بى ضحك (مارلون براندو) بطريقته الواثقة، وسعل وغطى فمه بقبضته. كنتُ مستعداً للحظة التى

سيخرِج فيها المسدس من صديريته، ولكن على العكس من توقعاتى المُتحفَزة، مشى ناحيتى وربت على كتفى كصديق ثم قال بصوته المبحوح.

صدقنى، حتى فيتو كورليونى كان ليترك كل شيء من أجلها، أنت محظوظ.

وفرقع بإصبعيه فدخل كل من سيد جابر ومحمد الحفنى وهما فى زى رجال العصابات، قَدَّما له حقيبة جلدية أخرج منها رزمة فلوس من عملة لا أعرفها، وأخذ سيد جابر يغنى لنا بطريقة عبيطة أغنية مضمونها (الحب ينتصر يا ليل يا عين) صحوت من نومى لأجد الجزء الثانى من فيلم العرَّاب أوشك على نهايته، وقد انضم إلينا فى مكتبة خالد علام الجديدة كل من د. أشرف الجمل، أحمد الصعيدى، وأحمد نعيمة. كنتُ أنا وخالد وطاهر البربرى قد استأجرنا الفيديو والشرائط كعادتنا فى كل وقفة لعيد الفطر بعد الفيلم أكلْنا وضحكنا ثم تطرقنا لمواضيع كثيرة، أغلبها مسائل خلافية مع الأصوليين الذين كانوا قد انتشروا فى شوارع شبين الكوم وجوامعها الصغيرة. ذكر أحمد الصعيدى واحدا من هذه النماذج؛ كان لصا ثم دخل فجأة فى الجلابية البيضاء واللحية الطويلة بنفس السرعة التى كان يقفز بها على البيوت، لم يعرف الصعيدى كيف تمكن الولد المقصود من منبر الجامع القريب من بيته وخطب فى الناس، بل وأكثر من ذلك حاول التشهير بالصعيدى علانيةً (اتقوا الله يا ناس ولا تسيروا خلف الشيوعيين و(اليساريون)، أتباع

ماركس و(ماكجيفر). بخلاف الأخطاء النحوية الكثيرة لم يستطع الولد نطق اسم (جيفارا) فقال ماكجيفر، بطل المسلسل الأجنبى الذى كان يعرض حينئذ. لم يستطع الصعيدى صبرا أكثر من ذلك فاستوقفه (ماكجيفر يا بن الجاهلة، وحياة أمك ما أنت مكمل).

عقَّب (عصام عيدة) أن النقاب يضيف سحرا للمرأة، وحكى عن منتقبة تتبعها هو فى منوف حتى إذا عبرت من فوق شريط السكة الحديدية ارتفع ذيل جلبابها فنورت، وكان له شعر فى هذا المعنى يقول (رفع الهواء تنورتها فاطمة فبان قلبى). كانت المشكلة أن أولئك الأصوليين على درجة كبيرة من الدأَب، وبهذا الدأب اخترقوا ممثلين كثيرين فى الفرقة القومية وجلسوا على طاولة نادى الأدب يخضعون كل جملة لمعايير التكفير، ويقولون القصائد والفتاوى عن إرضاع الكبير وغير ذلك من الكلام المُستفز سأل خالد علام الدكتور أشرف عن المكان الذى سيصلى فيه العيد، هل ستصلى فى الخلاء كما سن النبى (ص)؟ تحير الدكتور أشرف فى الإجابة ثم قال (الله لم يكلفنا فوق طاقتنا يا خالد ورؤية هؤلاء ترفع الضغط عندى، سأصلى فى الجامع). دار الحديث ولف بينهم طويلا ثم عاد إلى نفس البداية ولكنهم انتبهوا فجأة أننى لم أشارك فى السجال كعادتى السخيفة فى تلك الأيام، فبدأوا يتفكهون بذلك. من جملة كلامهم فهمتُ أنهم قلقون على وغير مرتاحين لبطالتى وثرثرتى، وأكثر ما كان يضايقهم هو إصرارى على قول الشعر فى المحافل. حاول الصعيدى أن يخلص لى النصيحة بأن يفهمنى من بين كلامه

ومن تحته أنه ربما يكون البنى آدم مثلى طيبا وكفى، ليس من الضرورى أن يكون شاعرا أو مخرجا مسرحيا، لكننى اعتبرتُ نصيحته إهانة مباشرة فتجرأتُ عليه، وهو من هو بين الجالسين، وقلت له إن كل القصائد التى كان قد كتبها فى الفترة الأخيرة مباشرة وفجّة، وعلى الفور ردّنى الحاضرون لحجمى أمام شاعرٍ تحفظ شبين كل سطرٍ كتبه، فقمتُ من بينهم غاضبا، ولفرط حبه لى حاول الصعيدى أن يجلسنى ثانية، لكننى أزحت يده عنى وخرجت. الليل كان مزدحما بعناقيد النور والمحتفلين بوقفة العيد فمشيت فى شارع السوق أتخبط فى أكتاف الناس وأعتذر كان السؤال ملحا كأن كل الناس فى السوق يسألوننى من أنت؟

فى مكتب الأستاذ محمد صالح فى شارع الكنيسة قابلت غادة التى بدا عليها الفرح بلقائى، جعلت تعاتبنى فى صالة الانتظار بصوت خفيض لا تسمعه السكرتيرة السمراء، قالت إنها كانت تنتظر أن أتصل بها ولو مرّة خلال الشهر الكريم، كنت فى حال سيئة يا غادة، فسألت (تعبان؟)، قلت اسمعى يا غادة أنا بصراحة راجعت نفسى ووجدت أن العمل فى مكتب محام لا يناسبنى، واستدرتُ بوجهى ناحية السكرتيرة السمراء التى كانت تضع أحمر شفاه يزيد من دُكْنَتها وتردُّ على التليفونات بصوت مسرسع. قالت غادة أنا محتارة فى أمرك، الآن تنسحب بعد أن رتبت لك كل شىء؟ أريد أن أسافر يا غادة فى أقرب وقت، قالت (تسافر وحدك؟)،

فقلت وحدى، قلتُها بعين مهزومة ويد ترتعش فابتسمت غادة وسألت السكرتيرة عن ميعاد وصول الأستاذ. قالت البنتُ كلمات غير مفهومة بصوت زاد من ضيقى، وانتهزتْ السكرتيرة فرصة الحديث لتسأل غادة عن الحنَّاء التى على ظهر كفَّيها، كان السؤال نفسه يغيظ، فسمرة كفَّيها لن تسمح بظهور الوشم عليهما، ولكنها ظلتْ تُنصتُ إلى غادة التى شمرت عن ذراعها كأنما قشَّرت إصبع موز من فاكهة الجنة، بينما البنت السوداء ترمُقها بحسد لا تخطئه العين، لدرجة أننى خفت على غادة فغيرتُ مجرى الحديث، سألت إن كان الأستاذ سيتأخر أكثر من ذلك؟ الأستاذ الذى انتظرناه ساعتين لم يكن أكثر من شاب فى مُقتبل حياته المهنية، سلَّم علينا بفتور ولم يعتذر عن تأخيره بل وطلب منا الانتظار لدقائق أخرى ثم دخل لمكتبه. حملت إليه السكرتيرة بسرعة فنجان القهوة وأغلقت الباب دوننا، فنبهت غادة إلى قلة ذوق هذا الأستاذ وحداثة سنه، فردَّت على بأنه يضع عطرا من زجاجة ثمنها بالدولار يفوق الخمسمائة جنيه.

- أنا لا أفهم فى العطور

ولكن أنا أفهم.

بعد دقائق خرجتْ السكرتيرة من عنده وأشارت لنا بالدخول. لاحظتُ أنه قد أعاد تصفيف شعره الأسود، وكان يأخذ الرشفة الأخيرة من فنجانه، ثم أخرج سيجارا غليظًا كالذى كان يدخنه المليونير صاحب السبعاوى وجلس يستمع فى هدوء إلى غادة. كل

الكلام كان يدور حول الشكل القانوني والتراخيص اللازمة لمكتب السفريات، كانت غادة تطالبه بسرعة التحرك وتؤكد على رغبتها في شراكته. فهمتُ من كلامه القليل أنه كان متخوفًا من هذه الشراكة بسبب عادل المصرى.

- عادل ابن خالي خارج أى اتفاق يا مدام غادة.

حين أكدت له غادة ذلك بدأ يشرح لها ميزة العمل بشكل غير رسمي في السنوات الأولى كى لا تقاسمهم الحكومة رزقهم، ولَمَّا بدا على غادة أنها غير مقتنعة ومترددة قال (يا مدام، مكتبى هذا مكتب سفريات في المقام الأول) نظرت غادة ناحيتى فوجدتُ نفسى مشاركا في الحديث (أيضا دخول الناس وخروجهم سيتم بشكل طبيعي لا يلفتُ الأنظار) فأمَّن هو على كلامى، وحين اقتنعتْ غادة بصعوبة سألها ليتأكد أن عادل لن يحشر أنفه الخبيث في هذا المشروع (من سيباشر حصتك في المكتب؟) فأشارت غادة إلى.

فسأل هو (حضرتك محاسب؟) فأجبته

- إننى كيميائى فردد خلفي متعجبا، (كيميائى!)

الفصل الثامن

خلعت خاتم زاوجي من يدى، وضعته فوق الطاولة، أين أبو يوسف؟ الشمس تنزلقُ على معدن الخاتم، يرتطم الأمس بالغد..
ظلٌّ عطَّل النور وسألنى (ماذا تشرب؟) سألتُه أين أبو يوسف؟ قال (سافر) قلتُ أشرب شايا حلوا، حلقى ممرور، تخيَّلْ يا أخى أنا النملة التى سقطَت فى كيس السُكَّر حلقى ممرور! أتعرف يا فلان، قال (اسمى صلاح) أتعرف يا صلاح، أبو يوسف لن يعود، أنا أيضا ربما لن ترانى ثانية بعد أن أشرب الشاى الحلو؛ كنا - أبو يوسف وأنا - نأتى من أجل الناس، وطالما أن قصر الثقافة يتم ترميمه فلن يأتى الناس. قال (والنجدة أيضا أزالوها، سيبنون مكانها مساكن للضباط) قلتُ نعم، شبين تتغير؛ أزالوا مبنى مديرية الأمن وسيضعون مكانه مبنًى كبيرا يستوعب كل أجهزة الداخلية فى

شبين، وأقاموا أسواقًا زجاجية مكان سور نادى الجمهورية، شبين تتغير ولكنى أحدثك عن قصر الثقافة وناسه الذين كانوا ملازمين لهذا المقهى، سأل (وأين سيذهب الناس؟) قلت سأعرف، وأكيد سأعرف بعد أن أشرب الشاى، قال (لا تجلس فى وجه الشمس)، الشمس تقف على معدن الخاتم، نقلوا محتويات قصر الثقافة وموظفيه إلى مبنى التأمين عند محطة القطار، والناس يا صلاح، ألم تر أحدا؟ قال (لا أعرفهم، وحده أبو يوسف كان يعرفهم) أىّ شجن! المقهى خال من الناس تقريبا، سحبت الكرسى للخلف لأسند ظهرى إلى ظهر المبنى الذى كان مثلى منهكا بالذاكرة، أما واجهة المبنى فى الشارع الرئيس فكانت أسياخ الحديد الصدئة تخرج من الخرسانة البائسة، كراسى صالة المسرح مكومة فى مكان الحديقة، سقالات حديدية، ولافتة مكتوب عليها (مشروع ترميم قصر ثقافة شبين الكوم، شركة.)، الشمس تدور على معدن الخاتم، وقف صلاح فى باب المقهى يضرب كفا بكف لقلة الزبائن، ما أشبه اليوم بالأمس، لولا بدلتى الكتان البيضاء وقلقى لكنت ذلك الولد الذى جاء من قريته ليدرس فى الجامعة، سمِع عن الفنانين والمسرح فجاء بكشكول ملىء بالقصائد العمودية، وجلس بالصدفة ثم طلب شايا، وكان أبو يوسف ينفخ لقلة الزبائن أيضا، وشنطة ملابسى كانت تحت الطاولة، يومها سألته إن كان يعرف مسكنا أُجرتُه هينة، فقال (اشرب الشاى ثم تفرج) الآن وحقيبة ملابسى فى شنطة السيارة لن أسأل صلاح شريكه فى المقهى ولن أسأل أحدا

فأنا بتُّ أعرف شبين جيدا. بعد أن قدم لي الشاي رص صلاح لنفسه حجر معسل وجلس كالزبون على طاولة عن يساري ينفخ ويلعن أبا يوسف (الله يسامحك يا أبا يوسف، ضحكت على)، سحب من الشيشة حتى سعل فعاد يلعنه ولم يرُقني ذلك فبادرت إليه.

أخذ منك فلوسا؟

ستة آلاف جنيه، قال لي شاركني في الكنز، ابن النصاب!

أبو يوسف لا هو كذاب ولا نصاب.

يا باشا، أنا أعرفه أكثر منك.

هززتُ له رأسي بالنفي فعرف عندي حكاية واقتربنا أحدنا للأخر هذا المقهى يا صلاح كان صالون حلاقة لرجل من قرية ميت الموز، تركه وفتح محلا آخر في شارع الاستاد، ثم جاء أبو يوسف من بورسعيد - بلده الأصلي وأخذ المحل، وضع أبو يوسف عربة كبدة وساندوتشات في الخارج وثلاث طاولات للزبائن داخل المحل، فكما ترى، المكان ضيقٌ، ولكن حتى مع هذا الضيق لم تكن لترى الطاولات عامرة أبدا، كان أغلب زبائن أبي يوسف من المُخبرين وعساكر النجدة، وهؤلاء يا صلاح إن رأى واحد منهم النبي (ص) لسألَهُ عن بطاقته ولَطش الفلوس من جيبه، عاني منهم الأَمرين. سأل صلاح وهو يقترب برأسه (وماذا أفعل أنا معهم؟) ثم أشار بطرف عينه لألتفت، كان على الطاولة المواجهة لنا مخبرٌ أعرفه يلبس جلبابا وفي يده جهاز لاسلكي يخروش، الرجل كان يضع ساقًا فوق ساق ويتابع الناس وهو يدخن وشوشت صلاح (افعل

كما فعل أبو يوسف) بدأ أبو يوسف يضع فضلات الباذنجان المقلى واللانشون ويشوحها مع البصل والكبدة حتى تأخذ جميعها طعم الكبدة ولونها، ثم يملأ رغيفا كبيرا بهذا المخلوط ليأكله الأَبْعدُ منهم، حتى إذا دفع أحدهم إليه كل حين ثمن ساندوتش كبدة حقيقى، يكون قد دفع ما يعادل ثمن خمسة ساندوتشات من هذا المخلوط العجيب. نظر إلى صلاح مرتابا فى صدق حديثى (ولم يكشفوا اللعبة؟) قلتُ له أنا نفسى أكلت من هذا المخلوط فى بداية معرفتى بأبى يوسف، وصدِّقنى لو قلتُ لك إنه كان ألذ من ساندوتش الكبدة الحقيقى، بعد ذلك عرفتُ أن أبا يوسف لا يضع الكبدة الحقيقية إلا لأصدقائه الذين أصبحت مع الوقت واحداً منهم.

بدا صلاح كأنه انجذب للحكاية، فأهمل المخبر والرجل الصعيدى الذى يبيع سجاجيد الصلاة وسألنى ماذا فعل أبو يوسف بعد ذلك؟ قلت اشترى بوتاجازا وقطعة رخام ثم بدأ يقدم الشاى، فى البداية كان يحمله بنفسه إلى الصيدليات المجاورة ودكاكين البقالة وصالونات الحلاقة، ثم انتهز فرصة صيف ما فنقَع العنَّاب وعصر الليمون وأنزل صندوقين (كوكاكولا). كنتُ أنا حينئذ طالبا فى الكلية وأعمل فى محل مانيفاتورة لدى رجل طيب اسمه الأستاذ عاطف. الله يرحمه كانت له أفضال على الجميع، وعلى فكرة، هو أول من افتتح هذا المقهى، بحكم العادة، كمقهى للفنانين؛ هو أول من شرب اليانسون ساعة العصر هنا، دائما كان يجلس مكان هذا المخبر ويضاحك أبا يوسف، يهون عليه وينصحه، أبو يوسف دمه

خفيف والأستاذ دمه خفيف، والعصر حلو في شبين يا أخي، فبدأنا نتسرَّب واحداً واحداً إلى هنا واشترى لنا أبو يوسف دومينو، ورقعة شطرنج وطاولة نرد، وبدأ يرص الطاولات لنا في ظهر قصر الثقافة كما أجلس الآن، وغرس شجرتي الفيكس هاتين، شيئا فشيئا بدأ أبو يوسف يتسمع كلامنا وفهم أننا غلابة، ليس لنا في المكر ولا النصب، كل ما كنا نتمناه هو أن نعرض مسرحية يصفق لها الناس، ونظل نتذكرها مع (العناب) في الصيف و(السحلَب) في الشتاء.

لم تكن الأمور سهلة دائما مع أبي يوسف، سألتني كيف؟ أقول لك، من أصعب الأشياء على الإنسان أن يغير عاداته، ولقد تعود فنانو القصر لسنوات على شرب شاي العصر في (بوفيه) الثقافة، وفي الليل كنا نجتمع برابطة المعلم في مقهى السنترال؛ نغني و نمثل ونحكي، فلما مات الأستاذ عاطف بدأوا ينسحبون من عصرِ هذا المقهى لأنه كان يذكرهم بالأستاذ، وكنوا في (بوفيه القصر) لفترة، حتى أبو يوسف ظهر عليه الحزن وترك لحيته. عقَّب صلاح (يا سلام! وأنا كنت أسأل عن سبب تركه لحيته منذ زمن)، قلت له لو عرفت الأستاذ لما استغربت، صدَّقني كلنا قلوبنا نبتت لحيتها من الحزن عليه، المهم يا سيدي، فوجئنا في الأربعين بصوت الشيخ المنشاوي يصدح من ميكروفون علَّقه أبو يوسف على جدار القصر، وكراس مرصوصة والناس جالسين من أول الشارع حتى الفرن، وداخل المقهى، وفي نفس المكان الذي تعود الأستاذ أن يشرب فيه اليانسون وضع أبو يوسف صورة كبيرة للمرحوم داخل بروازٍ، وكان

قد أخذها من المرحوم وكبرها، ولا أخفيك سرا نحن المسرحيين تعجبنا هذه الحركات، جلسنا إليه نواسيه ونواسى أنفسنا وعادت المياه لمجاريها. عند هذا الحد من الحكاية أشار المخبر إلى صلاح بقلة ذوق أن يأتي له بشاى، فاستأذن وغاب شيئا ثم عاد يكتم ضحكته، ابتسمت له كمن يسأل فقال (المغفل أخذتُ كوب الشاى الفارغ من أمامه ثم غليتُ له التُفل من جديد فشربه)، ونظرنا أنا وصلاح إلى المخبر فإذا هو مستمتع بالشاى والسيجارة، فقلت له غالبا ما يكون معدمو الضمير فاقدى الذوق أيضا، ولكن حاذر منه فهو ذئب. تفَرَّس فى صلاح وقال (لا تؤاخذنى يا باشا، منظرُك يشى بأنك ابن ناس، فمن عرَّفك بهؤلاء الصعاليك؟!) قلت وماذا تعرف أنت عن هؤلاء الناس؟ وعددتُ له من مجموعتنا أسماء لممثلين فى التليفزيون، مطربين، ملحنين، وأدباء، فتعرَّف على المطربين أكثر وسألنى إن كان أبو يوسف يعرفهم، فقلتُ كلهم لو علموا أن أبا يوسف مريض لعادوه، وإن قصدهم فى خدمة أجابوا، وإن كانوا ليتصلون على تليفونه المحمول فيمرر هو علينا التليفون واحداً واحدا نسلم عليهم، كلهم نجحوا فى حياتهم وربما أنا أقلهم نجاحا، قال (العفو، لا أقصد الإهانة يا باشا، إنما عنيتُ أبا يوسف، صعلوك طول عمره، أنا قريبه وأعرفه أكثر من أى واحد، ليس له زوجة ولا ولد، حتى يوسف يا باشا ابن أخته وليس ابنه، أما أنا فلى زوجة حامل. عندك أولاد يا باشا؟) قلت لا، فنظر إلى الخاتم المُلقى على الطاولة وقال (ربنا يعوض عليك) يا صلاح، أبو يوسف صاحبى،

ثم ماذا تعرف أنت عن الصعاليك؟ أبو يوسف لا ينتمى للصعاليك ولكنه (طيارٌ) لا أعرف إن كنت ستفهمنى، ولكن نحن فى مجموعتنا الكبيرة كنا نُقسم أنفسنا إلى مجموعات أصغر، فَمنَّا كان الصعاليك، والطيارون، وبط الدار؛ المجموعة الأخيرة هم من لهم وظائف ثابتة وبيوت مستقرة وعادات لا تتغير، يقف على قمة هذه المجموعة الكبار (أ عاطف، أ هاشم العدوى، أ حمدى حافظ ثم من الجيل الثانى أحمد الصعيدى، أحمد جاد، حتى يوسف النقيب من الممكن اعتباره واحدا من هذه المجموعة بعدما تعين فى الثقافة). أما الطيارون فهم الملازمون طالما ظروفهم الحياتية على ما يرام، ولكن ما إن يتغير طعم الكأس أو تنفد الحكايات حتى يبحثوا عن مكان آخر وحكايات جديدة، وهكذا كان أبو يوسف (طيَّارا) نزل علينا (بالبراشوت)، صاحبنا وسمع الحكايات ثم سافر حين تغيب الناس كما ترى. ومن هذه المجموعة خالد علام وطاهر البربرى وكثير من الأسماء عددتُها لك، وهم غالبا الذين ينجحون فى الحياة. أحيانا ما يمارس الطيارون أفعال الصعاليك ولكن العين الخبيرة لا تخطئهم؛ فالصعاليك هم المرتبطون بهذه المدينة بلا وظيفة، ولا طموح سوى أمل أن تصبح أحوالهم يوما على ما يرام، هكذا مثلما يفركُ الواحد خاتم سليمان. وعمليا هناك ثلاثة صعاليك عرفَتْهُم مجموعتنا هم أحمد نعيمة - وهو الأشهر والأكثر غلاوة عند أبى يوسف والناس- ولقد ترك شبين منذ سنوات وهرب إلى ليبيا، محمد الحفنى. وقد مات، ثم أنا لكل واحد منا ميزة؛

محمد الحفنى (الله يرحمه) كان يستطيع أن يتدبر لك مكانا تركن فيه عظامك للصبح، ويصاحب العقارب وشرار الناس فيخرج من بينهم بلا أذى، أحمد نعيمة كان يستطيع تدبر أمور الأكل والشاى والسجائر والفلوس، كان - الله يمسيه بالخير - موسوعة. قطع كلامى شابٌ كان قد جلس على الطاولة القريبة دون أن نلحظه وسأل (أنت لم تقل شيئا عن نفسك؟) ثم سحب كرسيه وجالسنا ولمحت عينى صلاح تلتمعان بالفرح للزبائن الذين التفوا حول الحكاية. قال الشاب (عفوا على فضولى) قلت له لا عليك، وعن سؤالك، فإننى يا سيدى لا أتميز بشيء تقريبا سوى أننى تعرفتُ على كل هؤلاء، وكل هذه الأسماء هى شبين الكوم نفسها نحن الثلاثة (الصعاليك) فَرَكْنا الخاتم (خاتم سليمان)؛ أما أحمد نعيمة فخرج له مارد قليل الحيلة طلب منه فلوسا فلم يجد معه فلوسا، سأله أن يزوجه بحبيبته فلم يقدر على ذلك أيضا، طلب منه أن يسافر فحمله المارد على كفِّه إلى ليبيا، وأما حفنى المسكين فبدلاً من أن يخرج له المارد خرج له من الخاتم مَلَكُ الموت، وأما أنا فلقد خرج لى عفريت غبى ظل يصفعنى ويركلنى، سخطَنى نملة وحبسنى فى كيس السُّكَر قال رجلٌ آخر واقترب بكرسيه (احك لنا عن أحمد نعيمة) فابتسمت، صدقونى أنا تعودت ألاَّ أغار منذ زمن، بل كلما حكيت عن غيرى أجدنى أستوفى حكايتى دون قصد، المهم يا سيدى، وكدتُ أحكى لولا أن استوقفنى صلاح قائلا (لا، اللَّمة الحلوة يلزمها الشاى الحلو، على حسابى، لكن لا تحك فى غيابى).

(لا أحد يعرف إن كان يكذب أو كان يقول الحقيقة بكل دمه، وأظنه هو نفسه لم يكن يعرف، لكنه قرر ببساطة أن يعيش ما يحكيه عن نفسه، وإن كذَّبتْ الروايات بعضها مرة بعد مرة، وأحسن ما قيل فى أحمد نعيمة أن جليسه لا يملُّه، ويصدقه ويكذب عقله، أحمد نعيمة الكذبة البيضاء، يبيع جليسه ساعة من الوهم فى مقابل ساندويتش، كوب شاى وسيجارة وربما جنيهين. لا أحد يعرف عدد المخادع التى غاص فيها والشبابيك التى قفز منها، ولا حبيباته أو أسماءهن الحقيقية، هل كُن موجودات أصلا أم كن عرائس تراءين له فى دخان الشيشة وابتسم لهن، لا أحد يعرف عدد الليالى التى قرصه فيها الجوع والبرد فالتف على نفسه يبكى ويرتعش. أحمد نعيمة الشاعر الصعلوك الذى أراد أن يكون نقشا تنحته بنات مدرسة التجارة فى لحاء شجرة المنتزة الكبيرة، ظريف؟ نعم، غروره ظريف وكان يقترض كمن هو صاحب حق، ويسمى القروض بغير أسمائها؛ فهناك قرض جماعى كان يسميه اكتتابا، إذ يجمع الفلوس لعشوة فى مقهى السنترال، والجنيه بعد الجنيه يأخذه منك يُسميه عشما، وكانت لا تُعجزه الحيلة أبدا، فكان حينما يحس بالبخل من أحدنا يقرر استخدام رأس البخيل كصفيحة زبالة يرمى فيها كل الحكايات القديمة وأبيات الشعر التى كتبها فى بداياته، إذ يتأبط ذراع البخيل ويلف رأسه فى منديل الحكايات التى لا تنتهى، يحكى عن أمه الفلاحة التى تحب شعره، حبيبته المُتعصية عليه، وأبيه الذى كان يفتعل معه الشجار إذا طبخوا فى البيت (المحشى) بلا لحم ولا مرق، كان يطرده أبوه ليوفر الأكل لأخواته البنات اللاتى لا

يستطيع طردهن، ثم يعود أبوه ليصالحه في يوم آخر (قُرديحي) أي بلا طبيخ، لذلك فقد تعود أحمد نعمية أن ينسحب في هدوء إلى خارج البيت في يوم (المحشي) الملعون. حكايات سمعناها ألف مرة وكان يعيدها على البخيل حتى تنهار قواه على الصبر ويحس أن رأسه مَبْوَلَةٌ عمومية فيسأله البخيل (كم تريد يا نعيمة؟) فكان يأخذ منه ضعف ما تعود عليه، أي يأخذ أربعة جنيهات، ثم يوبخه أحمد نعيمة على بخله ويعده بحكاية ممتعة في الغد. ظلَّ أحمد نعيمة متربعا على عرش الصعلكة، إلى جانب كونه شاعرا مطبوعا وناقدا فذا يقصده أغلب الشعراء بقصائدهم المكتوبة، فيتذوقها حرفًا حرفًا ثم يحذف بجرة قلم ما يعز على الكاتب حذفه، وتخرج القصيدة من تحت يديه عروسا ولأن شبين تحب الهزر والتنكيت قالت نغيظ أحمد نعيمة، فجاءت بصعلوك آخر يشبه أحمد نعيمة إلى حد بعيد، كان أنا، فكلانا جاء من قريته ليدرس في الجامعة، وكل منّا طويل وأسمر، لولا خلل في عصب عينه اليسرى يجعلها تحور، هو كان يلبس (بلوفر) رماديا صيفا وشتاء، وأنا لا أغير قميصي السماوي إذ كنت ألبس من تحته كل فانلاتي في الشتاء. كاد أحمد نعيمة يجن، كيف حدث ذلك؟ وزاد الطين بلّة حينما حاولتُ كتابة الشعر فكنت دون أن ألاحظ أُقلد طريقته في الكتابة، فمزّق الورقة وشتمني أمام الناس «أنت لن تكون أحمد نعيمة مهما حاولت» ومرّة ثانية قال لي بكلام يفهمه القرويون (أنا القمح وأنت الحامول، اسرح كما شئت ولكن إياك أن تكون تُجالس من أجالسهم». عند هذا الحد من الحكاية ضحك الجالسون وكانوا ستة، قام

صلاح ليأتى بطلباتهم من داخل المقهى وهم يتفكهون بالحكاية (عمر الحامول ما ترك القمح فى حاله)، (ربنا يؤتى العبيط ليغيظ الناصح) فضحكت لنفسى على أساس أننى ذلك العبيط. كانت الشمس قد غابت تماما، ومعدن الخاتم يكاد يلمسه نور من اللمبة (النيون) على واجهة المقهى، المخبر يتفرس فى ويبتسم بخبث كل حين، كان يريد أن يتأكد إن كنتُ أنا أنا، ذلك الشاب الذى كان يذهب للعقيد فهد الكاشف ويجلس معه فى مكتبه، هل هو ذلك الولد الذى عجنَّاه من الضرب حتى كان وجهه مثل شقة البطيخ، كيف أصبح باشا؟!

فيما كنت جالسا دخلت الشارع آنسةٌ سمراء تمشى كالغزال المُتعب وتحمل على يديها بضاعة، وبدا أنها توسمت فى الثراء فسَلَّمت وفرشت بضاعتها على طاولتى.

- اشتر منى يا بيه.

كانت البضاعة عبارة عن لعب أطفال فى أشكال سيارات السباق، وبط يقفز حين تدير الزمبلك، ابتسمت لملامحها الحلوة؛ وكانت لها سنَّة بارزة تجعل ابتسامتها فتنة.

- أنا، ليس عندى أطفال.

- ربنا يعطيك يا بيه.

اشتريت لعبتين ودفعتُ لها ثمن أربعة، فابتسمت السمراء برضا وهى تجمع بضاعتها من أمامى، ولكن قبل أن تنصرف استوقفها المخبر بصوته البغيض.

- الخاتم يا بنت الـ ...

صفعها فقمتُ أمنع يده عنها، ولكن حين أخرج خاتم زواجي من جيبها الصغير في مقدمة البنطلون الجينز، ارتبكتُ شيئا، ثم ملكتُ دهشتي ووقفت بينهما

- وما شأنك ؟ أنا قلتُ لها تأخذه.

خلَّصتُ السمراء من قبضته وهي تبكي، حاولتُ أن أضع الخاتم في راحتها ولكن قبضتْ أصابعها دونه وهي تحاول الهرب، ثم انسحبت مسرعة كالغزال المرشوق تتماسك لأخر الشارع حتى توارت فشيعها المخبر بالتهديد إن رآها بالصدفة.

- عدم المؤاخذه يا باشا، أنت رجل طيب، وبعض الناس لا يصِح معهم المعروف.

ثم وقف ينتظر مكافأته في خبث وخنوع وكل خاء تصدرت كلمة مقرفة، ماعت نفسي وتواترت على من الذاكرة لطماته على وجهي وقفاي بلا رحمة في مكتب فهد الكاشف. ظلَّ يبتسم وأنا أفتش في جيوبي عن قروش أصرفه بها، لمحتُ الخاتم مسْودا تحت ظلّه الجاثم على، تذكرت فهد الكاشف وأيامه السوداء، وخيانتي، لولا هذا الخاتم ما هزمني فهد الكاشف، وما ضاعت من عمري تلك السنوات، أمسكتُ الخاتم بإصبعين وأنا أحدق في وجه (عبيد) المخبر ثم أسقطت الخاتم في كفّه المبسوط (حلالٌ عليك) لم يشكرني بل ثبَّت عينيه في وجهي باسترابة ما عُدتُ أخافها ثم قبض على الخاتم وهو يبتسم، استدار ناحيتي بعد أن كان قد انصرف ثم سألني (أنا رأيت سيادتك قبل اليوم؟) فهززت رأسي بالنفي ليعود إلى طاولته.

اقترب من أُذني رجلٌ وهمس لي (لو كنت مكانك، لأعطيت الخاتم للبنت) فقلتُ بطيب نفسٍ (هذا خاتم ملعون) انكتم الجو فوضعتُ جاكت البدلة على ظهر الكرسي وشمرتُ. جاء صلاح ينقر بالفتّاحة على زجاجة (بيبسي) وكوب ماء وضعهما أمامي، جلس والتفَّ الناس حول طاولتي، فأخذت شهيقا وطردته ثم استأنفت الحكاية.

(على أن أهم فترة قضاها أحمد نعيمة في شبين الكوم هي التي تحوَّل شعره وكذبه فيها إلى أفيونة للسامعين، المُرهقين بأيام متشابهة ليس فيها متنفسٌ للروح ولا طاقة للنور كان عليه أن يجالس كثيرين جاءوا من أجله، وكلهم جهز في جيبه ثمن الساندوتشات والشاي، ولما أمسى من الصعب مجالسة كل هؤلاء في ليلة واحدة اخترع فكرة عبقرية؛ قرر أن يكون له ركنه الخاص في المقهى، وحكاية واحدة لكل من جاءوا يطلبون الخيال. في البداية رفض صاحب (مقهى السنترال) وسخر منه وعاتبنا فيه، ولكن حدث أن انقطع أحمد نعيمة عن المقهى، وبالتبعية انصرف جلساؤه واجتمعوا تحت سقيفة في ميدان عمر، ولما شاهد صبيان مقهى السنترال عدد الجالسين إلى أحمد نعيمة في كافتيريا الميدان نبهوا صاحب المقهى الذى جاء بنفسه ليستمع، بعد الحكاية سلَّم على أحمد نعيمة وقال له (نجرِّب) وضربوا له ستاراً يقسم مقهى السنترال. كنت حينئذٍ أعمل في مكتب سفريات في شارع

الكنيسة، وكانت أحوالى رائجة، مرتب محترم، مواعيد للعمل، وكنت أصارع من أجل الزواج ممن أحبها، فخرجت بذلك لفترة من قائمة الصعاليك، لم يدم ذلك طويلا ولكن هذا ليس موضوعنا حين دخلتُ لأجلس فى ركن أحمد نعيمة الذى أمسى ذائع الصيت، رأيته يقف معتمدا برجله اليسرى على كرسى والأخرى ثابتة على الأرض، منحنيا بجذعه إلى جمهوره الذين كانوا منصتين وأعينهم مفتوحة كالُمنومين إلا أن تلسع أحدهم السيجارة التى ذابت بين إصبعيه، حين رآنى نعيمة غمز لى بعينه السليمة فجلست ولم أكن أقل إنصاتا من الجالسين. سأل صلاح (عن أى شيء كان يحكى؟) قلت إنه كان يحكى عن الفقير الذى طال بيديه نجوم السماء، كل حكاياته كانت تبدأ بشاب فقير تكيل له الأيام صفعا وركلا، إلى أن يرى حبيبته وهى تفتح الشباك وتبتسم له. سأل آخر (ومن أين كان يأتى بالحكايات؟) قلت على كل حال هذه الحكايات منثورة بين الناس أكثر من التراب نفسه ولكن أحمد نعيمة كان يصوغ من التراب الذهب، وكان أحيانا يقتبس من بعض الكتب مثل الأغانى، الرسالة القشيرية، الإمتاع والمؤانسة، العقد الفريد، وغيرها، يخلط الحكايات ببعضها ويأخذ منها قطعة صلصال يضعها تحت قَمر كامل، ثم يعود إليها بعد يوم فإذا هى آنسة عارية يسألها الناس عن اسمها وأهلها، فيأخذها من بينهم ويغطِّيها ببعض ملابسه لتأخذ رائحته، ثم يتمشَّى بها فى شبين الكوم ليعرِّفها بالشوارع والبيوت التى ستحكى عنها سأل ثالث (والناس كانت تصدقه؟)

قلتُ لكم وأقول لكم أكثر ، كاد بعض الناس يُفتنون به ، وترجَّاه أبو يوسف أن يُخصص لهذا المقهى ليلةً فكانت ليلة الجمعة. كتب عنه شعراء جيله ، وجاء إليه من القاهرة أساتذة للمسرح يرصدون تلك الظاهرة منهم (د. عبد الرحمن عرنوس) ، كتب عنه أكثر من مقالة ، ولكن هذا العملاق حين أراد أن يتشبه بأبطال حكاياته ، حين أراد أن يتزوج بالبنت التى فتحت الشباك وقف كل العالم فى وجهه ، حتى أقرب أصدقائه) عند ذلك الحد من الحكاية ربت خالد علام على ظهرى ، كان يستمع منذ وقت قصير ، ولما استدرتُ له قال من شعر مهيار الديلمى (ضاع الهوى ضياع من يحفظه) فعقَّبتُ فى شجن ، أحسن لو قال (ضياع الهوى ضياع من يحفظه) تركت ما اشتريته من السمراء هدية منى لابن صلاح الذى فى بطن أمه ما زال ، ركبنا السيارة أنا وخالد وسألنى عن أخبارى فقلت (خرجت من كيس السُّكَر ، تركت لزوجتى البيت ويحدث ما يحدث)

فى مكتب الأستاذ محمد صالح مكثتُ أسبوعا كاملا ، كل يوم من الساعة التاسعة صباحا حتى الرابعة عصرا لا أعرف لى وظيفة ، فقط أجلس أمام (شادية) كالحة السمرة والتى كانت تُصر على تأكيد قبحها بأحمر الشفتين الفاقع وأحمر الخدين الذى يقف على وجهها مثل الكدمات. فى حجرة الاستقبال وضعوا لى مكتبا مواجها لمكتبها ، فكرت فى البداية أنها ترقبنى برغبة عانس فى الزواج إلى أن رأيت هيامها بالأستاذ فقدَّرت أنها غير مرتاحة

لوجودى فى المكتب، كانت حين تنظر ناحيتى تبتسم بمجهود واضح، فأضحك فى سرى (سامحك الله يا غادة). كنتُ أقضى الوقت على مكتبى فى القراءة ونسخ الكُتُب التى لا أستطيع شراءها، فنسخت بخط يدى مسرحية (بعد أن يموت الملك) وديوان (أحلام الفارس القديم) لصلاح عبد الصبور، ولم يكن أحد يمانع أو يسأل، كل ما كان محظوراً على؛ أن أقف فى الشُرفة أو استخدام صابونه الأستاذ أو منشفته لو دخلتُ الحمام، أما الأستاذ نفسه فلم أكن ألتقى به إلا ساعة فى الصبح ليُلقى سلاما فاترا ويدلف سريعا إلى حجرته، عندها تنتفض شادية مثل الزئبق الأسود تُعدّ قهوته، وتقف منتظرة تعليماته فى وَلَه وخشوع، ثم إذا انصرف تتبعه حتى الباب، فيتوقف ليسألنى (كل شىء تمام؟) فأهزّ رأسى وأرفع كتفى فى حيرة لا تعجب شادية؛ عيناها كانتا تحضّانى أن أتكلم بأدب وأقول (كل شىء تمام يا أستاذ) بصوت مسرسع مثلها، يؤكد على الأستاذ فى كل مرة أن لا أنصرف قبل أن أتصل به ليأذن لى، فأهز رأسى بلا مبالاة تستشيط لها كالحة السمرة، ثم يبتسم الأستاذ وينصرف، لم أكن أراه مرتين فى يوم واحد. فيم كل هذا الغرور من جانبه والتوقير من جانب شادية؟ لم أفهم، ولماذا تُصر غادة على شراكته، وأنا لم أر زُبونا واحداً يبارك عتبة المكتب، لا من أصحاب القضايا ولا من الراغبين فى السفر للخارج؟! على ذلك لم يكن يتحرك إلا منفوشا كأنه ابن كمال الشاذلى، سيارته فخمة، البدلة، العطر، والسيجار تراءى لى أنه ابن ناس كبار يحب الفشخرة،

ولكن ما هي وظيفتي في المكتب يا غادة؟ أشكو لها فتشكو من تبرمي على الدوام وتوصيني بالانتظار، حينئذٍ لم يكن بد من أن أجعل شادية تتكلم.

- الظاهر أن الأستاذ رجل محترم.

- الأستاذ رجل عظيم

- قريبك يا شادية؟

لا

- لكن يعاملك بمودة.

- رجل طيب.

- أعرف ناسا رأيهم غير رأيك.

للحظة توهمتُ أنها ستشتمني حين رفعت رأسها عن الورق الذي بين يديها وحدجتني بغيظ، أكدت لها أن ذلك ليس رأيي، فأهملت الورق وتخلّت عن تحفظها جملة لتدافع عنه.

(الأستاذ، ومن مثل الأستاذ؟ هل رأيت مثله؟ رجل يضحي براحته لخدمة الناس ليل نهار وأفضاله على كل من يعرفه. أنا دبلوم تجاري، كان بوسعه أن يوظف في مكتبه واحدة ببكالوريوس لكنه فضلني أنا، أنا التي تعرف قلبه الأبيض، وهل هذا كل شيء؟ سيوظف أخي في شركة (بتروجت) بفضل علاقاته ومعارفه، وكثيرون سافروا للسعودية، قطر، الإمارات والكويت بفضله. قلت لها (إنه يتقاضى عمولات يا شادية) قالت هو لا يحتاج إلى عمولات، هل تراه يحتاج؟ هذه الفلوس تذهب للكبار في الحكومة،

وهو واسطة خير، لا يأخذ لنفسه مليما، هل تظنه يأخذ؟ أنا بعينى رأيتُ أمهات يتوسلن إليه ليوظف أبناءهن، فكان يتدخل ويُكمل المبلغ المطلوب من ماله هو سألتها (ومن هؤلاء الكبار يا شادية؟) قالت (الكبار الكبار)، أنت تراه صغير السن ولكنه عبقرى، الرجل ترك العمل فى النيابة ليخدم البسطاء، (هل قال لك ذلك؟) أجابت (نعم قال لى وسيترشح عما قريب لعضوية مجلس الشورى، فعلاقاته ضخمة).

- قال ذلك أيضا؟

نعم قال لى

أنت لا تصدق؟ أنا بعينى رأيت فى هذا المكتب رجالا مهمين.

من؟

هيئاتهم فخمة.

من؟

رأيت بعينى.

- يا شادية أنا لم أر ناموسة دخلت المكتب

- لأنك تنصرف عند الرابعة، أما أنا فأبقى معه.

الأستاذ يحب الليل، وابتسامته فى الليل أجمل، يستقبل الناس ويلاطفهم ويطمئنهم، حديثه حلو، وأخلاقه سورة فى مصحف، كل من عامله دعا له الله ليزيده من نعيمه، واستجاب الله، ألا تراه استجاب؟ عيبه الوحيد أنه يعشق القهوة بلا سكر، سادة خالصة،

ويشرب السجائر الغليظة، وحين عصرتُ له البرتقال مرة أعطاني خمسين جنيها، وطلب مني بأدب أن لا أدخل عليه إلا بالقهوة. أرى لو تزوج من سيدة تحبه لاستطاعتْ أن تنظم له أكله وشربه وترعى صحته، لكن للأسف، ليس للنساء في حياته مكان، كل وقته للشغل، لخدمة الناس، الله يبارك له. انتهت شادية من كلامها فحدقتُ في وجهها وكلي أسف على سذاجتها، لم أجد على لساني سوى جملة واحدة حبستها على مرارة (يا بن النصابة يا محمد يا صالح!) رأيت من واجبي أن أنبه غادة المسكينة، الموعودة بالنصابين، ولكن يا خلق الله! إن عادل المصري ملاك مقارنة به. كنت أعلم أنها مهمومة بحسام الذي حقق مجموع درجات تافه في الثانوية العامة رغم كل الفلوس التي صرفت عليه، نعم مرت كل هذه السنوات وأنا أعيش في ظل غادة بغير صفة ولكن من يهتم. بدت حزينة حين فتحت لي الباب، متعبة فجلست، فكرتُ أن أبوس عينيها لكنها ردتني بفتور

- أكلمك فيما بعد؟

- لا، أنا بخير

بدت غير مستعدة للكلام، فكسرتُ أنا الصمت وتكلمت في موضوع حسام. في البداية لامتني أنني لم ألازم حسام كما فعلنا في الإعدادية، فأخبرتُها أن حسام بات صعب المراس وهو في رأيي كان في حاجة للانضباط أكثر من مدرسين ملازمين له فأمَّنت على كلامي ثم عادت للصمت.

- وماذا ترين ؟

سأدخله صيدلة غير حكومية.

- جميل.

- أبوه غير راض.

- طظ في أبيه.

بغلبة العادة كانت آرائي دائما مناهضة لأراء زوجها، كان يرضيني أن أبقى على خلاف معه، فبينت لها وجاهة منطقي حتى بدأت تتخيل معي ابنها دكتورا ولمعت عيناها

- الفلوس خُلقت لتجعلنا سعداء، وحسام أغلى من أي فلوس.

نظرت إلي بود وأشرق وجه غادة الذي أعرفه، عاتبتها في شأن ذلك الحزن، غنيت لها ممازحا، فحبست صوتي بكفيها وهي تقاوم الضحك.

- تشرب شاي؟

- شاي إيه، أنا عاوز عسل

قمتُ أداعبها بأصابعي فكانت تضحك وتردني وهي لم تتخلص تماما من الحزن، إلى أن ملكت خصرها وشربت عسلاً أبيض.

- أنا هاعمل لك شاي، إياك تيجي ورايا المطبخ

فلما مشت خطوات مني نقرتُ لها على مستطيل الرخام فوق طاولة (الأنتريه)، فرقصت وظهرها لي ثم انسربتْ إلى المطبخ. أكدت لي غادة كلام شادية عن علاقات محمد صالح الواسعة، لكنها زودتني بمعلومة جديدة؛ أنه بدأ عمله في مكتب مسؤول

كبير، وظل يجمع الكروت وأرقام الموبايلات ويقدم الهدايا، حتى وصلُوه بصلة، والآن فى ذاكرة هاتفه المحمول أرقام يهتز لها العفريت فى المصباح ويخرج ليحقق الأحلام هكذا وفرقعت بإصبعيها ولكنها شاركتنى القلق لَمّا كان يجنبنى ويعمل وحده فى المساء، فقررت مع حرصها على شراكته أن تفتح معه الموضوع بصراحة.

*

المكتب بدا مختلفا تماما عنه فى النهار؛ شادية تدور كالنحلة بملفات كثيرة وترد على أسئلة المنتظرين فى حجرة الاستقبال، الأستاذ الذى خرج ليكمل حديثه مع أحد الزبائن التفت إلينا، فحدجته أنا بتحدٍّ ولا مبالاة، لم يرحب بنا ولكن بما يشبه الضيق فرد ذراعه لتدخل غادة إلى مكتبه، وانتظرت أنا فى حجرة الاستقبال أتحاشى نظرات شادية أو أردها بنظرة واثقة. قبل أن تدخل غادة إلى مكتبه كانت تتراءى لى أوهام حلوة والأمور كانت تتحرك لصالحى، فالانفصال واقع لا محالة بينها وبين عادل الذى لن يتحمل فكرة أن ينفق ربع مليون جنيه على حسام فى الصيدلة الخاصة، وها هى جاءت لتخبر الأستاذ أننى المسؤول عن مصالحها فى المكتب ولن ترضى هى بتهميشى، أوهام حلوة ما لبثت أن عطَّل متعتها على ابن الحرام محمد صالح فى تلك الدقائق التى خلا بها فى مكتبه، حين ابتسم لى قبل أن يغلق الباب دونى توجست، ولكن لم أحسب لضياع كل شىء سريعا كأنما هو السحر الأسود. وبعد أن سحرها

أذن لى ودخلتُ لأجدها مبتذَلة على كرسيها تبتسم وفى منفضة السجائر واحدة عليها أثر شفتيها، نشوانة كما كنت أجدها بعد لقاء ساخن على السرير النحاسى، عاشرتها لثلاث سنوات وأبداً لم أر هذه النشوة عليها وهى فى ملابسها، طبَّلت الشياطين على قلبى وصفروا فى أذنى فوقفت أرى ولا أسمع لولا هى التى نبهتنى لأكف عن التحديق فى الأستاذ. أوصتنى أمام شماتته أن ألتزم بما يمليه على، وأوصته على مثل طفلٍ يتيم فصغَّرت بى، وانصرفت، لم تنتظر للقائنا عند عالية، ذلك اللقاء التى كانت تلح عليه فى طريقنا إلى المكتب وتقبض على أصابعى فى التاكسى. نبهنى هو فالتفت إليه

ابتداء من الغد ستعمل مع شادية للتاسعة مساء.

- لماذا؟

- الشغل

أخرج مائة جنيه مدَّ بها يده فقلت وأنا أنسحب

أول الشهر، كل شىء بأوانه يا أستاذ.

فوق مكتبى جوازات سفر، عشرات الصور الشخصية، أصول لشهادات الميلاد، التخرج، والخدمة العسكرية. الشغل سهل إنما كثير، كنت أقوم بالترتيب، أنسخ الأصول على ماكينة النسخ الصغيرة جوار مكتب شادية، ثم أُدبس لكل زبون ثمانى صور شخصية مع الأصول وصورة البطاقة، الأصول أضعها فى ملف

أحمر، والنسخ فى ملف أصفر للتمييز، ثم أدخل على الأستاذ بالملف الأصفر ليضع عليه حروفًا وأرقاما وحده كان يفهم معناها مثل (ن-٦) أو (ك)، أكيد لها علاقة بالفلوس. المكتب بالفعل يتعامل مع عملاء كثيرين، لا كمكتب محام، وإنما مكتب توظيف وإرسال العمالة للخارج، إن كان ثمة مكتب بهذا الاسم. محمد صالح مزهو بنفسه والناس تناديه بـ (محمد بيه)، حتى إذا مشى فى الشارع كانوا يلاحقونه وهو يسرع الخطى بينهم ليصعد إلى المكتب أو حين يمشى الخطوات القليلة إلى سيارته بعد مساء مزحوم بالطلبات والتوسلات والدعوات، تليفونه المحمول يرن كل دقيقة حتى اعتدت على نغمته كواحدة من تفاصيل اليوم الطويل المُمل، ولكن ثمة نغمات خاصة كان يقف لها ويتحدث بصوت خفيض، كأنما يتلقى أوامر من شخص ما. من الكبار، كل ما سمعته فى واحدة من هذه المكالمات هو رقم سيارة أجرة يمليه لمحدثه حتى يستقبلها فى موقف عبود بالقاهرة، واسم السائق، لم أفهم، هل كان يرسل ملفات الأصول الحمراء للكبار بتلك الطريقة؟ ربما دخل عادل المصرى ومعه حسام، شاب طويل ورث كل وسامة أبويه وأناقتهما، سلَّم على بود يكِّنه لأستاذ قديم، أما عادل فظل يعاتبنى فى عدم السؤال عنه، ويسألنى عن أخبارى ويشد على يدى، ثم لم ينس أن يكون وضيعا فأسرَّ لى أن أنتبه لمحمد صالح وأعد أصابعى بعد السلام عليه، ربت على صدرى وبشرنى أن الأيام قادمة بخير وفير

- بارك لحسام يا أستاذ.
- صيدلة؟ مبروك يا دكتور
- لا، صيدلة إيه، حسام مسافر إنجلترا

استقر لى أن ذلك كان رأى محمد صالح، هو الذى أقنع غادة بالعدول عن حلمها، وبالفعل أكد لى عادل أن محمد صالح هو من رتب لحسام السفر، الإقامة، والعمل هناك أيضا

- وهناك يا سيدى يدرس ما يشاء، الفلوس أهم.

هكذا يا غادة دون علمى؟! فقط جلسة واحدة مع هذا الشيطان فأصبح يملى عليك أحلامك، أصبح سرك عنده وأنا مكشوف، حتى عادل يعرف عنى كل شيء ويوصينى بشأنك / شأنكما، وأنا خارج اللعبة، فقط أرتب الأوراق، على جثتى يا غادة أو جثة محمد صالح. لا تحدثينى عن الجنون إن كان هو كل ما أملك حتى هذه اللحظة.

*

غادة تليفونها مغلق، لألف مرة مغلق، وأنا لم أكن لأهدأ حتى تُجيبنى أو أذهب إليها فى بيتها، ولما رآنى أُحدق فيه بمرارة سكت يتأملنى قليلا ثم اقترب من مكتبى بدلاً من أن يخرج وطلب منى أن أنزل معه

- خير

خير

من داخل السيارة أشار لى أن أفتح الباب فركبت معه، واستدار

لنخرج من شارع الكنيسة إلى شارع الجلاء البحرى، كان يخطط لأن يفثأ فقاعة الحقد بيننا ويروضنى، ثم كمن لا بد أن يتكلم قال.

مدام غادة قالت لى إنك شاعر

وإنك تعرف شبين أكثر من أى واحد، صحيح؟

الظاهر أن مدام غادة قالت أشياء كثيرة.

للأسف، بعض الناس كيفهم فى الخسارة!

- أعنى، لو كنت تعرف شرم الشيخ، أسوان، الأقصر، كنت لتكسب الذهب!

- عندك لى وظيفة؟

- أنا عندى وظيفة لأى واحد مهما كان، لكن بفلوس، كل شيء عندى له ثمنه، حتى مع أصحابى وأهلى، ومن يجعلنى أخسر فمعرفته نفسها خسارة.

- ليت شادية تسمعك!

ضحك لتعليقى بشدة وخبط على فخذى كصديق ثم سأل.

- تغدَّيت؟

- لا

- تتغدى؟

- ما دمت مصمما، فى مطعم المشد.

- يا معلم يا معلم، ماشى يا سيدى.

موهبتي، أو بالأحرى الشيء الذى أجيده أننى أعرف شبين جيدا، ذلك ما عاد سراً، أما وظيفتى الجديدة التى اقترحها على -وفقا لموهبتى- هى الإلحاح على العملاء؛ فبعضهم كان يماطل فى سداد القسط الأخير من المبلغ المطلوب للعقد، وبعضهم اقترض من كل من عرفهم فى الدنيا حتى ما عاد يعرف واحدا يقرضه لسداد المبلغ المُتبقى، فيطمع أن يتسامح المكتب معه فى جزء من العمولة، أو أن يكتبوا على أهليهم إيصالات أمانة تُستوفى بعد السفر كل هذه الحلول لم تكن لترضى محمد صالح، فكانت وظيفتى أن أقف على رؤوسهم مثل العفريت، وأُشعرهم بخطر ضياع الفرصة من أيديهم، فيفعل الواحد منهم أى شيء ليستوفى المبلغ. هذا نوع سهل، أما النوع الأصعب فهو العميل الشكاك، الذى كان يؤدى فقط المصاريف المُعلنة لتحريك الأوراق وهى (٢٥٠) جنيها على أن يسدد باقى ثمن العقد نفسه خلال أيام، ثم لا يرجع أبدا، تركبُهُ الشكوك فيقرر التضحية بالقليل الذى دفعه، لذلك كان عليَّ أن أظهر له حيثما التفت، حتى لو أقفل بابه أطرُقُه عليه، وأُطمئنه بالضمانات المناسبة وهى إيصالات أمانة موقعة من محمد صالح، فلقد رفضت من البداية أن أضع اسمى على أى ورقة، وإن كان العميل كسولاً أو قليل الحيلة (لَخْمة)، أمشى له فى الإجراءات من خلال موظفين - عرَّفنى بهم محمد صالح فى السجل المدنى والجوازات، أُمهد لكل شيء حتى لحظة تسليم الفلوس، وهى الأصعب، كان محمد صالح بمهر الإيصال باسمه بثقة بالغة حتى

من قبل أن يتسلم المبلغ من العميل، ثم يضع المبلغ بفتور فى درج المكتب وهو يواصل كلامه. كان إذا لاحظ من عميلٍ كثرةَ سؤاله وتردده يفتعل الغضب، ويصر أمامه أن تُرد إليه فلوسه وأوراقه فى الحال، وخلال ما كان الأستاذ يستقبل مكالمةً من إيَّاهم، يتوسل إلى العميل أن أعيد للأستاذ المبلغ، فيطرح محمد صالح الفلوس على سطح المكتب، لا فى الدرج، ويرفع عينيه إلى الزبون المبتسم فى توسل، وخلال ما كان ينقر بالقلم على جلدة المكتب، يسترضيه الزبون، أو أم الزبون التى تمشى لابنها فى شُغل أو سفر، تُطيل الاعتذار والدعاء له حتى يزفر أخيرا كأنما بذل مجهودا ليسامح، ويُنهى اللقاء نصف زعلان (مع السلامة) زاد راتبى وأخذت مكافأة عن كل عقد أنجزتُه، لم يكن ذلك هو المكسب الوحيد، بل والأهم عندى هى غادة، أخبرتنى بالتليفون أنها سعيدة بثناء الأستاذ على، ولكنها رغم ذلك لم توافينى عند عالية فى أى موعد، وكان لها عن كل غياب عُذر، ولكن أكدت لى أنها بمجرد سفر حسام ستتفرغ لى تماما هكذا وجدتُ نفسى أنسحب من حال الصعلكة لأول مرة منذ أتيت شبين الكوم، دخلت اللعبة كما كان يحلو لغادة أن تقول. كل ما كان يشغلنى هو محمد صالح نفسه، هل أطمئن إليه؟ بالفعل تابعت بعض العملاء واتأكدت من تأشيرات وعقود سليمة اتصل بى أصحابها بعد السفر إما ليشكرونى أو ليخبرونى أن الشركة المتعاقدة فرضت عليهم راتبا أقل، وهذا شائع جدا ولا ذنب للمكتب فيه. فبدأتُ أطمئن إلى كون محمد صالح رجل أعمال موهوب رغم

حداثة سنه، وشيئا فشيئا بدأتُ أفتح قلبى له بل وبدأتُ أَتَشبه فيه بعض أصحابى؛ فهو له نفس غرور سيد جابر؛ والذى كان كل من يعرفه يكرهه في البداية لطريقته فى الكلام، وهو مثل أحمد الصعيدى حين يتكلم يراوح بكفّه لتبسيط المواضيع الضخمة كأنما لديه الحلول دائما بل والذى حيرنى أن صوته كان أليفا لدى منذ البداية، سمعته قبل ذلك، ولكن أين؟ عملتُ معه بإخلاص وزاد من أسهمى عنده أن رآنى جماعة من قريتى فى مكتبه فعرفونى وسألونى عنه فقلت لهم عرفت من سافر، وسمعت عمن توظَف، وعلى كل حال فهو يوقِّع على نفسه إيصالات أمانة (لا داعى للخوف) فتشفعوا بى إليه ليخفض من عمولة المكتب، ففعل. اعترفتُ لنفسى رغم الوسواس الواقف على أُذنى أننى كنت غيورا أكثر من اللازم، خاصة وغادة كانت تكلمنى بانتظام، راضية عنى، أما هو فكان يتباسط معى كشابين فى نفس العمر تقريبا حين كنت أراجع معه بعض التفاصيل فى مكتبه، وأحيانا نسخر كلانا من شادية ومشيتها كالمُكَبلة فى (جيبتها) الضيقة، ما دفعنى فى واحدة من تلك الجلسات أن أكلمه فى شأن محمد الحفنى وحلمه بالسفر إلى إيطاليا، فأبدى ترحيبا لخدمة كل أصدقائى. كدتُ أسلم له تماما، لولا أن سمعته مرة يهاتف امرأة وحين انتبه لوجودى دعاها باسم رجل، لم أعلم من هى، ولكن الشيطان ركب رأسى من جديد، هل لا يهتم فعلا إلا بالفلوس كما أخبرنى؟ أليس فى حياته نساءٌ كما يؤكد كل من حوله؟ ألا يرى جمال غادة ويطمع فيه؟ ولكن غادة

ليست كبقية النساء، تُغوى العابد فى صومعته، وتخبل النساء قبل الرجال بمِشيتها. أخيراً استقر لى أنه لو كان ما فى نفسى منه لا يتعدى سوء الظن فسأكون خادمه وذراعه اليمنى، أما إن صدق سوء ظنى

* * *

مرت الشهور بطيئة حتى سافر حسام، جلدى سينطق باسمك ويفضحنى، سيشهد على قبل يوم الحساب يا غادة. أنا أدور فى الشوارع، أطرق الأبواب، ومحمد صالح يلاحقنى بالهاتف يأمر وينهى، يحركنى بكلمة منه من كفر طنبدى إلى العزبة الغربية، أصبحت أتوهم رنة المحمول دون أن أسمعها، وحتى ساعات المقيل ضن بها علَى. وبإلحاحك وإلحاح الناس على تعظيمه وجدت نفسى أتشبه به؛ أضع (الجيل) على شعرى، ألبس حمالات بدلا عن حزام البنطلون، أحمل قماشة صغيرة لتلميع حذائى كلما فرغت، أضع ساقًا فوق ساق وأراوح بكفى لتبسيط الأمور، رأسى مملوءة بصور وأسماء وتفاصيل ومواعيد، كل ذلك وأكثر هين عندى يا غادة، فأنا أدور فى فَلكك منذ ثلاث سنوات ولم أنحرف، تشكلت فى يديك كألف شيء فى ألف ليلة، ولم أسألك من قبل عما تفعلين، أنا الخاتم فى إصبعك وزجاجة الخَمر وقارب يغرق. الآن الآن يا غادة، أريد اسما وقامة فيعرفنى الناس إن شاهدونى معك، سافر حسام، والبحار التى تفصلك عن عادل أسبح فيها منذ ثلاث سنوات، ليس أنسب من الآن. جهزت عشوَةَ الوِفاق وشمعتين فى شمعدان الباشا عند عالية، واشتريت

خاتمين، أما خاتمى فكان من فضة وأنت لك الأغلى. دخلت تبحث بيديها عن مفتاح النور فأضاءت اللمبة الصفراء، وبهت الشمع أكثر حين سألتنى عنه بسخرية، فقلتُ شمعٌ كان ليذوب لو شئت، ثم التفتت لما أعددت، ولَما أخذتُها من يدها إلى طاولة الوفاق امتنعت ولازمت الكَنَبَة البعيدة، كانت تحرِّك بيديها الهواء مثلما تندب ميتا فانقبض قلبى، أخذت من الصحن قطعة لحم وأقسمت عليها بخاطرى عندها فردَّتنى وبالعشرة فردَّتنى، ونفخت من الحَر قمت لأفتح الشباك فصرخت فى ظهرى.

أنت مجنون؟

تكهرب الجو وجلستُ أنا عند المائدة أنظر إليها، هل أؤجل الكلام؟ إما الآن أو لا قمت إلى وسط الحجرة أنَحى المائدة قليلا، وقفتُ ممازحا مثل الساحر فى السيرك انحنى لجماهير عن اليمين وجماهير عن الشمال، وأحاكى بصوتى تصفيق المشجعين، أحاول أن أخفى الخاتمين بين أصابع كفَى للخلف بحيث يبدو من الأمام كفاى فارغان، ثم كما يخرج الساحر الأرنب من القبعة أخرجت الخاتمين من وراء أذنيها، ثم قدمت إليها الذهب. اتسعت عيناها دهشة وأمسكت بالخاتم (بأى مناسبة؟) قلت خاتم الخطوبة. استغرقت فى ضحكة ابتذلَتها وكلما انتهت نظرتْ فى وجهى وعادت تضحك، إلى أن قالت الضحكات معانى لم أحتملها، فشددت على ذراعيها (أنت مجنون؟) قالتها غاضبة. ساد صمت ثم همتْ أن تقول شيئا فعادت ثم همت ثم عادت، ما الأمر يا غادة؟

جعلتْ تحرك رأسها وتشير بيديها وتستهلك كلمتين فى جملٍ متشابهة ؛ العشرة والعيش والملح ، وحقهما عليها أن تساعدنى لأبدأ حياتى . أنا لست موهوبا ، ولكنى لست غبيا ، ماذا ستقول امرأة لفتش عن كلامٍ وتجلس على مبعدة أمتار من رجلٍ كانت منه مثل اللبن فى الإبريق ؟ إنها النهاية . نحن نعرف النهايات دائما حتى وإن خدعنا أنفسنا عنها ، وتأولنا البواكير بشكل يرضينا أو يُلهينا قليلا ، قليلا كثلاث سنوات مثلا أعرف أن لا عذر لى ؛ امرأة جميلة وطموحة هل تمتزج فى كأس واحدة مع صعلوك ؟ قل ما شئت عن نشوتها فوق السرير النحاسى ، هى لم تكذب عليك ، منذ اليوم الأول قالت لك إنك تصنع حولك عادات يألفها الناس وإنها تحب أن تعبدها ، هل كان سلاحك الوحيد هو العادة ؟ كف عن تذكيرى بجمالها إنه الشرَك . محمد صالح قال لها عنى إننى أجامل معارفى وإننى لا أتحرك إلا بدفعٍ منه يستغرق أغلب وقته ، باختصار لست موهوبا رغم كل ما بذلته من جهد . وهى عرضت على عقد عمل كحارس أمن فى أحد الفنادق بالإمارات ، وفاء للعشرة والعيش والملح . قامتْ تُربت على كتفى وتنصحنى كأخت ، هكذا قالت ، أن أسافر وأجمع دراهم وأن لا أقف ساكتا لهذه الدنيا بنت الكلب . أما أنا فحين وقعت عينِها على دمعى كنت أريد أن أطلب منها للمرة الأخيرة أن تصعد معى على السرير النحاسى فتشكلنى للمرة الأخيرة كرجل يستطيع أن يحبس دمعه لو أراد .

م8- قميص سماوى(الهيئة العامة لقصور الثقافة)

متى نقول إننا نعرف المدينة؟ سؤال سألته يوما لأحمد نعيمة فأجاب (حالَما تتخلص من هذه الابتسامة العالقة بوجهك) وخلال الأيام التى كانت غادة تتهرب فيها منى رآنى هو فى المقهى ساهما، فقال (أظنك الآن تعرف). ذلك اليوم فتَّش في جيوبه كثيرا حتى وجد سيجارة فدفعها إلي ولم يمانع أن أتمشًى معه إلى بيت السبعاوى وفى نصف الطريق سألنى (لماذا تريد أن تكون مثلى؟ يا أخي أنا شحاذ عديم القيمة) قلت له لست كذلك عندى. سألنى (ترضى أن تزوجنى أختك؟) قلتُ له لو كانت عندى أخت لزوجتك إياها، قال لو عندك أخت لفكرت ألف مرة قبل أن تُعطيها لشحاذ مثلى، صدقنى أنا أنصح لك، اهرب قبل أن تُصدق نفسك، ربما لا يسعدك أن تعرف المدينة كما ترغب. ألا تذكر (شكرى سرحان) فى فيلم البوسطجى، لقد ظلَّ على ما يرام إلى أن تورطَ وفَض المظاريف، بدأ الأمر معه بلعبة وانتهى بكارثة، ابحث لنفسك عن عمل وبنت فقيرة وشقة بالإيجار، لماذا لا تتزوج من أرملة أخيك؟ قلت لى مرة إن قريبها من بعيد عضو فى مجلس الشعب.

نعم وعدنى أن يضعنى مكان أخى فى المعهد الدينى إن تزوجت الأرملة.

- عظيم، وماذا قلت له؟

هربتُ.

هل هى دميمة؟

- زوجة رجل أعرج (فاستغرق نعيمة فى ضحكته حتى سعل).

- علام تضحك ؟ !
- على أبيك الذى أنجب معتوها وأعرج ، والأرملة ماذا فعلت ؟
- تزوجت بعقد عُرفى حتى لا ينقطع معاش الحكومة .
- يا خسارة !
- فُضَّها سيرة ، أليس هناك أمل فى نمو موهبتى ؟
- أى موهبة ؟ ! لن ينمو لك غير أذنين وذيل ، أنت حمار

عندئذ تراجع بحدة عن بادرة الود التى أبداها وسبقنى إلى بيت السبعاوى . ثم مرضت فى الليلة التى تركتنى فيها غادة فدخل على أحمد نعيمة طويلا فى فتحة الباب ، كنت ألفُّ نفسى فى بطانية وأرتعش فاقترب منى - لا أعرف على وجه اليقين إن كان ذلك قد حدث أم توهمته- خلع المرآة الصغيرة من مسمار الحائط وقربها لوجهى ؛ فوجدتُنى شاحبا منكوشا مثل الديك الميت وبياض عينى مثل الياقوت أحمر جلس هو على طرف السرير لا يتكلم ، كان حزينا ، ثم رفع عينيه إلى وقال (نصحتُ لك يا عنيد)

كان بيننا دائما فى جلسات نادى الأدب عينٌ للأمن لا نعرفه . وكانت تدور الشكوك على رؤوس بعض النماذج من قليلى الموهبة الصامتين والمبتسمين على الدوام ، المُمسكين بأقلام وورق مسطور يرسمون عليه علاماتٍ وأحرف ، أو المُنحازين للقالب العمودى دون غيره . ورغم التخمينات القريبة والمعقولة لم نفلح أبدا فى اكتشاف (تلك العين) بيننا . وكنا نجدهُ إذ تنقضى مهمته آخر من يصل إليه

شك. كيف يختار الأمن رجاله بيننا؟ لم أعرف ذلك حتى صرتُ أنا نفسي (عينا) على يد العقيد فهد الكاشف. الأمر هنا يقتضي قفزات واسعة بين الأحداث لأقف على اللحظة التى ملَكنى فيها فهد الكاشف.

* * *

تحاملت على نفسى ومشيت نصف محموم إلى مكتب محمد صالح فى شارع الكنيسة، طوال الطريق كنت أفكر أن شبين لا بد أن تنتصر لى من ذلك الغريب، وأن غادة لو علمت قتالى عليها لربما راجعت نفسها، وكثير من الأفكار المحمومة مشيت بها إلى مكتبه. لم يأذن لى بالدخول ولكنى اقتحمت عليه حجرته، وارتفع صوتانا حتى توتر الناس فى حجرة الاستقبال فلما فَتح باب حجرته ليطردنى وجدتهم واقفين، فأغرانى ذلك أن أتهمه بالنصب فشتمنى وانبرت لى شادية كلمة لكلمة، استفسر الناس وهم يهدئوننى، لكنه لم يسمح بكلام كثير، اعتذر للناس عن تلك الفوضى ونصحنى أن أجد لنفسى وظيفة بدلاً من التسول.

صدِّقنى، إذا احتجنا لموظفين سنتصل بك (وأخرج لى خمسين جنيها رددتُها)

بمقارنة بسيطة بين منظرى وهيئة الأستاذ تراجع الناس عنى وجلسوا كمن صدقوه.

- الشغل كثير يا أستاذ، صل على النبى!

انسحبت من بينهم مخزيا وعلى السلم أدركتُ أننى كنت قد

قطعتُ آخر خيط كان يصلنى بغادة. خرجت شادية من مكتب الأستاذ تتصل بكل عملاء المكتب الذين يعرفوننى وحذرتهم من أن أتقاضى منهم أى فلوس لأننى طُردتُ.

كان خالد علام فترة النهار يفرش بالكتب والمجلات على الطوار المجاور لمحلات (صف صف) فى شارع جمال عبد الناصر، وكان يعانى من مضايقات رجال البلدية الذين كانوا يلقون بضاعته فى عرض الشارع المزدحم ويصادرون بعضها ليستردها خالد بعد ذلك ناقصة وبغرامة مالية كبيرة حتى فاض به الكيل نصحه الطيبون أن يقصد ضابطًا فى مديرية الأمن يشكر الناس فى أصله وحسن خلقه. من حسن حظ خالد أن كان ذلك الضابط يكتب القصة فى مراهقته، وله برغم وظيفته آراء غاية فى الليبرالية. تصادقا وامتنع رجال البلدية عن مضايقة خالد تماما أمسى من المألوف أن يشرب خالد الشاى على عجالة فى مكتب العقيد، وهو يهديه أحدث إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة، ودار الهلال، وفصول. إلخ، بل ويميز له بالقلم الرصاص مواضع وأعمالاً يقرأها أولاً كان العقيد منقولا من السويس، أصله من العريش واسمه فهد الكاشف.

كان أحمد نعيمة يعيش تجربة حب حقيقى مع واحدة من الفتيات اللاتى كنا ندرس لهن كنوع من المساعدة التى نقدر عليها- فى دار تربية البنات (اليتيمات). عرَّفنا بالدار محمود

السبعاوى ثم انتظمنا عليها، إلا أن أحمد نعيمة تجاوز الخط الأحمر، البنت الصغيرة كبرت على يديه وأحبته، وأثناء مرور السيدة مديرة الدار على حجرة الدرس ضبطته ممسكا بيدها طردته طبعا، وسارعت بالعتاب على محمود السبعاوى، وطلبت منه أن لا يدخل الدار أحد غيره. توقع أحمد نعيمة من صديقه الفنان أن يتفهم حبه الصادق ورغبته الأكيدة فى الزواج من البنت، ولكن على العكس ارتطم نعيمة بحائط سميك من المبادئ التى كانت على الدوام حائلا بين السبعاوى وبين أقرب الناس إليه، وطرده السبعاوى أمام دهشتنا، هكذا كما كان الجبلاوى فى رواية (أولاد حارتنا) يطرد أبناءه بلا رحمة. خرج نعيمة من البيت يفكر فى الطريقة التى يجمع بها فلوسا للوقت الذى تستطيع فيه البنت تزويج نفسها بنفسها وجد وظيفة مندوب مبيعات فى شركة لإنتاج وتوزيع الإسطوانات المدمجة، الدينية والعلمية منها، وأمسك إلى جانب راتبه عمولة كبيرة جعلته يفكر، لو أنه سوَّق لحسابه لتضاعفت العمولة، فبحث عن شريك. فعرَّفه أُناس من مجموعتنا برجل بن ناس ميسورين يشغل منصبا هاما ويقابلهم على فترات متباعدة فى نادى الموظفين يكلمهم فى الأدب والفنون، أخذ منه نعيمة خمسة آلاف دون أن يطلب الرجل إيصال أمانة، لأنه ببساطة يعرف كيف يأتى بنعيمة من بطن أمه، كان ذلك الرجل هو العقيد فهد الكاشف.

كان خالد علام يختار النخبة من مجموعتنا للقاءاته بفهد الكاشف فى نادى الموظفين، مثل د. هيثم الحاج على، د أشرف الجمل، عصام عيدة، أ حسين منصور. لذلك لم يدعُنى إلى واحدة من هذه اللقاءات ولم أقابل ذلك الشرطى الليبرالى المثقف الذى يتحدثون عنه. غير المرة التى أدركته فيها يركب كابينة البوكس الأزرق عند مدرسة الثانوية للبنات المقابلة لنادى الموظفين. سمعتهم يتواعدون بلقاء آخر قريب ورأيته يمازحهم وهو يشير إلى البوكس.

اتفضلوا معنا

الله الغنى يا باشا

بسرعة تناول منى خالد كتاب تجريد الأغانى وناوله للباشا، ثم رفع الباشا يده بتحية شملتهم وإذ كان البوكس يتحرك خصنى الباشا بنظرة واسعة ورفع يده ثانية بنصف تحية، ما جعلنى أرتبك ورفعت يدى مرات فى إثره ليرانى فى المرآة، وسألت خالد.

- هل رآنى ؟

- لا تهتم، إنه رجل طيب.

بطيئا تأكد لى أننى لن أفارق شبين الكوم، ليس بهذه السهولة، ومن قال إننى كنت سأرحل ؟ موضوع غادة ؟ لا، أنا مع الوقت أدركتُ أننى كنت فى شبين أنتظر شيئا أخر، ربما يشبه جمال غادة إلى حد بعيد ولكن ليس هو عدت صامتا كما كنت، أستمع وأقف فى الخلف البعيد مع جوقة الفرقة القومية. أحيانا يتحول الصخب من حولى إلى صمت سميك، وبطيئا تنفذ إلى من خلاله كلماتٌ تخصنى وحدى، رسالة ما،

ولكن ما إن أترجمها على ورقة حتى تستحيل كلاما فارغًا، فأقول لنفسي (ليس بعد) وأنام، عند السبعاوى أنام، عند سليم الطبال، أو في حجرتي. ما زالت تعاودني أحلام تقف فيها غادة على الجانب الأخر من نهر أو طريق تكلمني ولا أفهمها، فأفيق من نومي وأقول (ليس بعد) . عند منتصف الليل أفقت من حلم كهذا على أياد غليظة تضرب صدرى، شوارب غليظة تأمر وتلعن، وبالكاد تركوني ألبس القميص، وكلما حاول واحد من سكان الحجرات المجاورة أن يستفسر منهم عن جريمتي أمروه بالتزام حجرته، ثم وضعوني في البوكس إلى مبنى مديرية الأمن (القديم) كان زحام أمام مديرية الأمن والمسجد التابع لها، رجال ونساء تعرفت على بعضهم وهم يشيرون ناحيتي. أخذوني إلى مبنى القسم خلف المديرية وفي الممر ذى البلاطات الكبيرة رأيت (شادية) تبكي دما وحوْلَها أهلُها، حتى إذا مررت عليهم سألها صوت (من هذا؟) أجابته وهي تُنهنه (ده مالهوش دعوة) . فجأة قفز على عادل المصرى في بيجامة حرير حمراء يُقبل صدغي، وتوسل إليَّ أن أخبر البوليس بكل شيء، بماذا أخبرهم يا عادل؟ وقبل أن يتكلم سحبه أمين الشرطة من قفاه فرطمه بالحائط وجلس عادل يبكي كالنساء. احتجت وقتا لأتأكد أنني لا أعاين كابوسا، ثم بعد فترة تمنيت لو كان كذلك، دُفعت من قفاى إلى داخل حجرة بها نقيب شاب، بدا أنه استنفد صبره في التحقيق مع من سبقوني فبادرني حين سقطت أمام مكتبه.

- طبعا أنت مظلوم ولا تعرف شيئا.

محمد صالح وغادة سافرا بفلوس الناس، فلوس كثيرة. تطلب الأمر أسبوعا كاملاً من الغبية شادية حتى بدأت تشك. تطلب الأمر أن يحتشد الناس داخل المكتب يسألونها عن الأستاذ لتتبين أن غيابه لم يكن طبيعيا، تطلب الأمر أن تتكسر محتويات المكتب على دماغها ويجرها الناس من شعرها إلى القسم لتُحدث نفسها أنها ربما خُدعت. كان كل من يسألها تخبره يقينا أن الأستاذ سيأتى، أكيد سيأتى، ذلك ما جعل موقفها فى القضية (زِفت). أما أنا فلم يكن على شيء تقريبا، فلم أوقِّع ورقة باسمى، وكان الذين تعاملت معهم قد سافروا بالفعل، والذين يعرفوننى من المحتشدين أمام المديرية هم من حضروا طردى من المكتب، أنا بالطبع كنت مرعوبا حينها، ليس لى رأس تعى هذه الحسابات، ولقد حاول النقيب الشاب لثلاثة أيام - لم يدخل جوفى فيها سوى الماء أن يُقنعنى أننى سألبس الخازوق حتى قاعدته فقلت له إننى أول من شكَّ فى محمد صالح.

- بلَّغت البوليس؟

- وأنا ما لى؟ افرض سيادتك أنه كان وراءه ناس كبار فعلا؟

- للمرة الألف ما علاقة (ميتين أمك) بعادل المصرى وغادة السيسى؟

- أنا عاوز أدخل الحمام، بطنى بتتقطع يا باشا

تفاصيل كثيرة؛ مواجهات، ضرب وقلة حياء من العساكر والمخبرين، وأكثر ما أتعبنى هو عادل المصرى الذى ركب أذنى طوال

فترة احتجازنا معا، كان يحاول أن يملى على معلومات لا صلة لى بها لأشهد معه، فى شأن بيع عقارات مملوكة لأخرين وشيكات ومصائب متجاورة.

- يا سيدى حلْ عنى، الله يلعنكم.

- خلاص، أنا قصدى مصلحتك. (فيسكت لدقائق ثم يعود).

ما دامت هى باعتك، طلّع ديك أمها

اخرس يا عادل.

أنا كنت شاكك فيهما منذ زمن، وكنت سأطلّقها بنت الحرام.

كان حديثه أقذر من رائحة البول المنبعثة من الجردل الذى يتبادلون عليه فى جانب الزنزانة المزحومة. تفاصيل كثيرة؛ سيجارة طويلة ذات فلتر أحمر تناولتها من النقيب نافد الصبر - ومعدتى خاوية - جعلتنى أتقيأ على سجادته وأخرجته عن محاولة استجوابى بالعقل وبالرغم من أن النيابة أفرجت عنى بالبطاقة أعادونا إلى المديرية. ولما كانت العشاء فى مسجد المديرية تناولنى من الحجز صول طيب كبير السن كان يمسك ذراعى بوهن كأنه يتأبطنى ومشى بى إلى المديرية لا إلى القسم، صعدنا ببطء على رخامات السلم وهو يعتمد على الدرابزين الخشبى ويبرئ من حوله وقوته إلى الله.

- ربنا يتوب علينا يا بنى.

يهديك ربنا يا عم، أنا أموت من الجوع.

- حاضر

ولما دخلتُ الحجرة وقفتُ بدهشتى على اسم الرجل فى صدر المكتب (العقيد فهد الكاشف) وكان النقيب نافد الصبر يعلِّم الباشا كيف ينقل صورة من موبايل لأخر بالـ (INF.RED). العقيد كان سعيدا كالأطفال ويجرب بنفسه، ثم سأله النقيب.

- سعادتك عايز الولد ده؟

- أيوه، شوية كده.

ثم انتبه الباشا وطلب منى الجلوس، لم أكن أحب أن يكون هذا أول لقاء يجمعنى به، كنت أريد أن أتأدب ولكنى شعرتُ بالتعب فجلستُ الباشا طفل أبيض له شنب خفيف وابتسامة معدية كصديقنا أحمد عباس ولكن الباشا كان أضخم قليلا

- طبعًا أنت تعرفنى.

خالد علام هو الذى اتصل به ليستفسر حين علم بالأمر من صاحب السكن، أخبر خالد الباشا أننى عيل غلبان، واضطر الباشا بعد اتصالات كثيرة منه أن يرد بخشونة على خالد ليُلزِمه حده، وقرر عدم التدخل، لكن بعد التحقيقات ظل أمر واحد يثير فضوله، فقال لى.

- أنت محشور فى القضية كالخازوق!

- ما لك؟

- لا مؤاخذه يا باشا، أنا جعان.

ضغط على زرٍ ليدخل الساعي ثم طلب لي ساندوتشات ولنفسه قهوة. فأكلتُ بنهم الجوع ونهمٍ لأني لم أكن أعرف متى سيتركونني أرحل.

- قرأت لي؟

- قرأت لسيادتك الكثير

ورأيك؟

أحلى قصص في الدنيا

- أنا نسيتُ أنك نصاب.

والله أبدا يا باشا

أراد أن يعرف بشكل غير رسمي، وأكد على ذلك، طبيعة علاقتي بعادل المصري وزوجته، أزاح ناحيتي فنجان القهوة فأخذته على رشفتين وبدأت أحكي.

(ربما ستظن سيادتك أنني سأتكلم عن واحدة من النساء، لكن غادة ليست كبقية النساء، بدأ ذلك حين كنتُ أحكي لها عن شبين الكوم وقالت لي أنت تعرف شبين جيداً).

قضينا ساعات الليل كلها وأنا أحكي والباشا يستمع، لا يعلِّق على كلامي ولا يتثاءب، وبرغم هذا الوجه الطفولي عرفت له عين شرطي تعرف ما تسأل عنه، وتحركني نحو ما تريد قهوة بعد قهوة، ساندوتشات وعصائر، دخل علينا أذان الفجر ثم شق نور الشمس خشب النافذة وضرب وجهينا، حتى لم أجد ما أقوله.

- أنت عيِّل غلبان فعلا.

- والقضية يا باشا؟

- لا، محام بعشرين جنيها ينهيها، قم معى.

- لأين؟

- نصالح الرجل، خالد علام.

من السهر والدهشة سألته سؤالاً عبيطًا (هل سيتركوننا؟)، استغرق فى ضحكته وخرجنا من باب المديرية. على الرغم من إفراج النيابة وسيرى فى صحبته، قطعت المترات الأخيرة فى وجلٍ كأننى أهرب. ولم أصدق أننى خرجت حتى ركبت إلى جانبه فى كابينة البوكس. كان خالد ما زال يضع (الإستاندات) ويرص مجلاته فوق الطوار حتى انتبه للبوكس الذى توقف أمامه، فأسقط المجلات من يديه واحتضننى.

الفصل التاسع

منزل جديد، منزلي. ليس على النهر كما تمنيتُ، لا شبابيكه خضراء ولا واجهته بيضاء كما كنت أحلم، لكنه منزلي. طوال السنوات الفائتة كنت شريكا في السكن، حتى حينما تزوجت كانت تشاركني السكن امرأة غريبة وشبح (شبح زوجها الأول) الذى كان يترك فناجين القهوة في كل ركن بالبيت. الآن أخلع قميصي وجوربي، أجلس عاريا في ركن من الحجرة يصلُه منشور الضوء الداخل من النافذة.

- والآن؟

- أريد سلاما مع الناس، الأشياء، مع الشياطين لو أمكن.

- مطلب عسير، ربما لن يتركوك.

- كيف؟

- إيصالات الأمانة، مؤخر المهر، ربما أخذوا كل شيء، حتى هذا المنزل.

كل ثانية تأتي بألف ربما، ربما هم أيضا تعبوا

- ربما

- وإذا لم. ؟

- سأقاتل.

كنت تتحدث عن السلام منذ دقيقة.

أنا عشت مع الشياطين بحيث لم أعد خائفا

هل ستتزوج؟

- نعم، سمراء.

- طويلة؟

- طبعا

- ضع عليك ملابسك، الناس على وصول.

كأنني من كابوس عُمره خمس سنوات أفقت على جرس الباب، ودخلوا واحدا واحدا كأنني أقرأ اسم قلبي بلغات كثيرة. لا تصدق ما يمكن أن تفعله خمس سنوات حتى ترى بعينيك. السعاوي وحده ظلّ كما كان أبيض واسع الابتسامة، يرتدي قلنسوة توفيق الحكيم وعصاته العاج، محمود الحما فقد كثيرا من وزنه لكنه احتفظ بطابعه الكوميدي برغم اللحية الواقفة على وجهه.

- أصلي باعمل (رِجيم)، أعوذ بالله من الشيطان الرِجيم.

طاهر البربري ابيض شعره الكث وخرج من جسده النحيل كِرش

غريب مثل كرة صغيرة تحت قميصه.

- ما هذا الكرش يا دكتور طاهر؟

- الترجمة الكاملة لرواية حياة عادية.

أحمد الصعيدى، سيد جابر (صراحة لم أكن أصدق أنه سيأتى بعد ان أصاب هذه الشهرة)، أحمد عباس تركته طفلا فى الأربعين وعدتُ لأجده كهلا فى الخامسة والأربعين يبتسم، لم تعد ترى ذلك الطفل إلا فى أغوار عينيه. كنتُ أظنهم سيشيرون إلى اللحم الذى كسا عظمى ويتندرون بنحافتى القديمة إلا أننى رأيت فى وجوههم أن الزمن جعلنى أوفر حزنا

- أين نجلس يا مولانا؟

كانت الكراسى قليلة لكننا تدبرنا ذلك بصفحات الجريدة وشيء من ملابسى. تزاحمنا فى دائرة كبيرة نتناول الذكريات والحكايا كثيرا كثيرا، حتى ضحك أحمد عباس من قلبه وغنى سيد جابر وأحمد اللولى (هلت ليالى حلوة وهنية. ليالى رايحة وليالى جاية). وسط التصفيق والترديد وهز الرؤوس ارتطمت عينى بعين خالد علام فى حديث طويلٍ لا يفهمه سوانا

- أنت السبب يا خالد أنت من عرَّفتنا به.

- وهل كنتُ أقرأ الغيب؟

- أنا خائن يا خالد؟

- أنت عيِّل غلبان، لكن كنت لتتحمل أكثر من ذلك.

- الجميع استخدمونى.

- هؤلاء؟

- لا أقصد

انس ذلك الآن.

- أريد أن أخبرهم.

- لا تعكر صفو الليلة.

(هلت ليالى. هلت ليالى)

* * *

لم يكن فى مقدورى شىء لم أفعله وأنا أتابع ذلك الانحدار السريع نحو الهاوية، كلُّ ما حولى كان يبشر بذلك، صحيح، لكن شبين الملولة هى التى خرجت كالمجنونة تكسر المصابيح وتهربُ كالعفاريت فى النهر فجأة تخلَّت عن كل محبيها وسلكت مسلك العاهرات، باعت كل شىء، كل شىء يا شبين!

هل توقع أحدنا أن يعود ذلك العملاق؟ كان من الأفضل له ولنا أن يظل صفحة مكتوبة بماء الذهب لا يمكن التعرض لها ولو بالنقد البرىء. هاشم العدوى عاد؟! ازدحم قصر الثقافة بناس كثيرين؛ ممثلين معتزلين منذ انقطاعه، أساتذة من معهد الفنون المسرحية هم من تلامذته، وكذلك الكبار الذين اضطروا للتمثيل تحت مخرجين يصغرونهم بأعوام كثيرة؛ كل هؤلاء اجتمعوا للقاء الأستاذ ظَنا منهم أن عصرهم الذهبى سيعود، أجيال جديدة جاءت تشاهد ذلك

الكائن الأسطورى الذى يحكون عنه، وبالطبع كان من حول الأستاذ تلامذته الاقربون رأفت الشيات، يوسف النقيب، أحمد عباس، وغيرهم ممن لم يكونوا يحلمون بلقب مخرج إلا فى غياب الأستاذ. لذلك كان بعضهم حاقدا ويسأل عن سبب عودته. سلكت طريقى بصعوبة بين الأكتاف المتزاحمة عليه فى قاعة المكتبة حتى رأيته يجلس فى صدر طاولة الاجتماع التى نلتفُّ حولها فى جلسات نادى الأدب. وقارٌ لا يخفى على أعمى، إنه الأستاذ لكن الأمر المحير أن الأستاذ كانت له لحية حقيقية مثل التى كان يضعها يوم حادثة المحافظ الشهيرة، هل بدأ من فوره العمل؟ استغرقت ثوانى حتى تأكدتُ أن لحيته حقيقية، مثلها مثل لحى الممثلين المعتزلين المتناثرين حول الطاولة. كانت أمام الأستاذ أوراق كثيرة ومسودات يُقلبُ فيها محاولا أن يلفت المجتمعين حوله للترحاب به أكثر ما اجتمعوا للقراءة. بين ذلك الصخب وتلك الرؤوس لمحنى الأستاذ أحاول الوصول اليه فهش لى وأمرهم أن يفسحوا لى إليه.

- هاتوه هنا جنبى.

فكأنما موسى فرق البحر بعصاه، وجدت طريقى إليه بسهولة بين المحتشدين وتناولنى فى عناق أدهشنى، لم أحسبه يُكنُ لى هذه المشاعر، بل إننى رجوت الله وأنا أصعد إلى المكتبة فى الطابق الثانى أن يتذكرنى الأستاذ بعد أمارات كثيرة. كنت سأُذكره بنفسى قائلا (يا أستاذ أنا خشبة الجوقة الذى كنت تعيب عليه صوته الخفيض)، لكنه تذكرنى بلا عناء وأكثر من ذلك أمر محمود الحما أن يقف

لأجلس أنا على الكرسى اللصيق به. خفتت الأصوات أول ما أعلن الأستاذ عن بداية جلسة القراءة بأن أخرج نظارته من الجراب.

*

لم يكن ما قرأه الأستاذ مُدهشا ولا ملفتا، بل على العكس كان مخيبًا لكل التوقعات المرتبطة باسم هذا العملاق، المقدمة المنطقية كانت تقليدية تماما، هى خليط من مشاهد كتبها الأستاذ بنفسه ومن أعمال توفيق الحكيم الرمزية، وقتما كان الرمز مطلوبا وجديدا للمتلقى البسيط ليمارس لعبة الإسقاط على الأوضاع الراهنة، وكان على المتلقى أن يجد معادلا رمزيا لشخوص المسرحية؛ فمثلا صاحب الفرن الذى سرق البطة أو الأوزة هو إسرائيل التى لا تكف عن الاعتداء حتى إن صاحب الفرن بعد ذلك أجهض زوجة صاحب البطة حين دفعها خارج الفرن، لأنه لا يخشى زوجها الضعيف المتخاذل الذى لن يجد المتلقى صعوبة فى مضاهاته بالشخصية العربية، كذلك فإن قانون هذه المدينة كان ظالما بحيث لا يساند إلا الأقوياء أو من يخدمون مصالح القاضى نفسه الذى هو أمريكا باستخدام نفس مازورة القياس، ويأتى حكم القاضى منافيا لكل المبادئ العقلانية والإنسانية على حد سواء، حيث يحكم على الفرّان أن يملأ ما أفرغه، بأن يضع طفلا فى رحم زوجة الرجل صاحب البطة. ثم تعمل الأغانى الصارخة التى كتبها الأستاذ أيضا على إضفاء طابع ميلودرامى من اللا جدوى. بعد ذلك يخرج من نقطة ضوء بعيدة رجل مهيب لحيته بيضاء طويلة ويلبس صوفة بيضاء يلتقط

المشاهدين من حالة اليأس ويذكرهم بتاريخ أجدادهم وتنتهى المسرحية باستنهاضهم فيلتفون من حوله حاملين الشموع التى هى رمز لبصيص الأمل الذى بداخلهم. ما هذا الكلام الفارغ؟ الغريب أننى وجدت استحسانا من الجالسين، كلهم، وظل الكبار يتغنون بعودة زمن الفن الجميل الذى سيقصى الأعمال التجريبية غير المفهومة التى أقدم عليها بعض المخرجين الشباب فى غياب الأستاذ. بالطبع كان البعض يلمس سخافة ما قرأه الأستاذ ولكنهم أحجموا عن الكلام، لماذا؟ لأن ثمة شائعة تقول إن البعض يرفض عودة العملاق، الحقيقة أن الأستاذ نفسه أوضح فى كثير من المباهاة أن هناك من لا يرغبون فى عودته، فكان ينتظر أول ناقد ليرميه بالجحود والجهل، الأستاذ هو الوحيد الذى يتكلم ثلاث لغات ويقرأ النصوص بلغاتها الأصلية، الأستاذ هو الأكاديمى الوحيد بينهم، الأستاذ هو من ظلَّ تلامذته من بعده يسرقون من نهجه الإخراجى على اعتبار أن التاريخ غير المصور يمكن أن ينسى بسهولة. لماذا عاد الأستاذ يطلب المبارزة وهو ذلك الفارس العجوز الذى لن يرفع الكافر فى وجهه حطَبة؟ لم يتكلم واحد منهم بدافع من حبهم للأستاذ ولكنى للأسف كنتُ أشد حبا رفعت يدى للمداخلة وطأطأتُ رأسى وقلتُ كل شىء. كان الأستاذ يبتسم لى فى ثقة، ذلك ما خدعنى وجعلنى أستفيض حتى انتهيت من كلامى. كان الجميع ينتظرون سكوتى؛ الموافقون على كلامى والرافضون، وهؤلاء كالوا لى من الكلام ما يصبون به حقدهم على آخرين لم

يتكلموا، وجهوا من خلالى رسائل إليهم وإلى إدارة قصر الثقافة التى لم تنس يوم المحافظ. أصبحتُ أنا العدو الوحيد.

تعَلَّم قبل أن تجادل.

- السفسطة والهلفطة ضيعتنا

-هل هكذا تخاطب الأستاذ يا خشبة الجوقة؟

طلب الأستاذ من محمود الحما أن يجلس ليقرأ، وخرجتُ أنا من القاعة كالكلب المضروب بقالب طوب فى عجيزته. أسرعتُ بالنزول إلى باحة القصر فى الطابق الأرضى، ثم وقفتُ أمام الباب متردداً، هل أخرج مطروداً أم أنتظر الأستاذ فأكلمه على انفراد وأبين له قصدى، لن يتركونى أقترب منه. وحين هممتُ بالخروج من القصر أدركنى أحمد نعيمة ومحمد الحفنى مسرعين نحوى، لم أكن فى حاجة إلى مزيد من التبكيت من نعيمة ولا لهزار محمد الحفنى.

- فلنؤجل أى كلام فى هذا الموضوع.

- اخرس يا شيطان.

- عليك لعنة المسرحيين بدءا من سوفوكليس مروراً بأرسطوفانيس وصولاً إلى هاشم العدوييس.

ثم استغرقا فى الضحك أمام دهشتى وأنا لا أكاد أميز جدهم من الهزر اقترب منى أحمد نعيمة حتى كأننى أنظر فى مرآة ثم لكمنى، بود غير مسبوق، فى صدرى.

أحسنت يا ولد، الله ينور عليك.

ثم أمسك حفنى برأسى وقبّل صدغى بعنف.

- فعلها واحد من الصعاليك على الأقل.

دققتُ فى وجهيهما مليًّا لأتأكد من صدقهما، ثم سريعا ذابت كرة الغضب فى حلقى وابتلعت ريقى، ربما أيضا ضحكتُ ساعتها، لا أذكر طلبنا الشاى من البوفية وجلسنا على الدرابزين الرخامى الفسيح فى مدخل الثقافة.

- أنا أيضا كنت سأتكلم.

- لم ترفع يدك، أنت كذاب يا حفنى.

- طبعا، كان يكفى خروف واحد وكل عام وأنتم بخير

كان على واحد منكما أن يتكلم، لم لا يا نعيمة؟

- ألم تر لحاهم الطويلة؟ هذا فشلٌ جماعى، البلد كلها تفشل.

أخرج لى من الحقيبة التى كان يعلقها على كتفه أسطوانات مدمجة (cd)، كلها لشيوخ لحاهم طويلة ذات عناوين يمقتها نعيمة (العازف والأغانى)، (الشيعة وسب الصحابة)، (إسلام عفريت من الجن)، (فضائح من داخل الكنيسة يرويها قسيس سابق)، (الحجاب قبل الحساب).

- أنا أبيع هذا الوهم، ألا تفهم، كنت دائما موهوبا فى ذلك.

- أنا أصدق حكاياتك أكثر

- لأننا أفسدناك.

لا أنسى ما حييت تلك الليلة التى قربتنى من أحمد نعيمة فبتنا لا نفترق من بعدها. كان نعيمة يشعر بالذنب نحوى لأننى أردت

دائما أن أكون مثله وذلك، فى رأيه، ما ضيع على فرصة أن أكون رجلا عاديا هو حر فيما يعتقده، ثم ماذا حدث؟ عيرونى بأننى خشبة الجوقة؟ أنا لم تعد تشغلنى هذه التفاهات منذ زمن. مشكلة نعيمة أن روحه سهلة التعكير، وموضوع البنت التى أحبها وحالت دونهما مديرة الدار جعله ساخطًا ذلك أيضا رأيى، وبين الرأيَين حقيقة كان لا يمكن تجاهلها، شبين التى أحببناها كانت تتغير تلك الليلة كان نعيمة يخرج فلوسا كثيرة من جيبه ويعرضها على أفكارنا المجنونة.

- نذهب إلى الإسكندرية، الآن.

حفنى أيضا كان قد ادَّخر فلوسا كثيرة من عمله فى التوحيد والنور، لكنه لم يشرب السجائر الأجنبية، ولم يدمن على الشيكولاته الغالية والمُعلَّبات واللحوم والبيرة مثل نعيمة، بل ورفض تماما أن يشارك بفلوسه فى ثمن وجبة كباب لثلاثتنا من (كباب الجميل) فى ميدان (جَلْهُوم)

- هذه فلوس سفرى إلى إيطاليا، لن أعطى أبى منها مليما

تسعون جنيها أتمها مائة بالبقشيش وأعجبه أن يناديه النادل بال(بيه) فخرج من المحل يتبختر ويده فى جيبه ثم تبعه حفنى يُقلده وخرجنا من المحل نضحك. خلال الخطوات القليلة من نافورة الميدان إلى كوبرى عمر كاد يدهمنى موتوسيكل عليه ثلاثة مراهقين. المدينة صاخبة وأنوار كثيرة كانت تلتمع على سطح النهر

- أنا أعشق هذه المرأة يا ناس

كان حفنى يقصد (حميدة) بياعة الجرائد التى تفرش على رصيف وحديد الكوبرى؛ جميلة والحكايات عنها كانت تملأ شبين لكنها دائما تصد حفنى.

- انظرا، إنها تبتسم.

بدت فعلا كأنها تشاغل حفنى وهى جالسة على قفص من جريد النخل عند بضاعتها ناولَتْه حميدة الأهرام المسائى وعادت لتجلس على قفصها، ثم سألته ببرود إن كان يريد شيئا أخر، فانسحب المسكين حفنى وهو يعض على الصحيفة.

- ألم تكن تبتسم؟!

أنا كنت مطرودا من السكن، ونعيمة كان مطرودا من عند السبعاوى، ثم إن السبعاوى لم يكن ليستقبلنا أنا وحفنى بعد أن شربنا الحشيشة. تمددنا هناك على أريكتين بعيدتين أمام النهر المظلم، وبالقرب منا أخرون جلسوا للنهر بعيدا عن صخب تلك الليلة، فبدا ذلك كأنه اجتماع للصعاليك فى شأن هذه المدينة. كانت عينه على النهر لكنَّما يتحدث إلى.

- اسمع، ألم تكن تسألنى دائما كيف تعرف المدينة؟

- بلى.

تدخل حفنى وهو يغطى أذنيه من البرد.

- سؤال سخيف.

- الليلة سأجيبك

هناك ثلاثة أشخاص يهمهم أن يعرفوا المدينة؛ ساعى البريد،

المخبر، وابن البلد المُحب. الثلاثة يشتركون في شيء واحد؛ أنه لو سألهم فلاح من بركة السبع عن عنوان ما وليكن مستشفى الجامعة لأجابوه كلهم (اركب سرفيس خط٣ من تحت الكوبرى العلوى)، ولكن إذا أراد كل واحد من الثلاثة الوصول لنفس المكان الذى سأل عنه الفلاح، فإن ساعى البريد سيركب دراجته، والمخبر وابن البلد سيفضلان المشى؛ المخبر سيراقب الجالسين على الكورنيش بحقد وربما تحرش بالجالسين، وإذا مر على محل الورد القريب من نادى التجارة سيلعنه فى سره لأنه يرى الورد بطاقات للدعارة، وسيخطف برتقالة من الغجرية يأكلها فى طريقه ويوسخ بقشرها الكورنيش. ابن البلد سيمشى وهو حريص أن لا يؤذى مشاعر الجالسين بالنظر الصريح ناحيتهم، سيتذكر حين كان يجلس مكان هذا العاشق يقول كلاما لا يعرف كيف جمعه ساعتها، وحين يجد نفسه أمام محل الورد سيشترى وردة أو يتمنى لو أنه فعل، طوال طريقه يتذكر ويبتسم أو يتأسف على أيام لن تعود. ساعى البريد مدفوع من خارج المدينة، وكذلك المخبر مدفوع من حقده وذلك أيضا خارج المدينة، وحده المحب يخترع حوارا ولغة بينه وبين المدينة، وحده يقرأها ويسمع ما تقوله المنازل القديمة والجديدة والمرافق والملابس؛ وصدقنى حين أقول لك أفضل قراءة للمدينة تكون من ملابس الذين يعيشون فيها

كيف ذلك؟

- أقول لك.

منذ عشر سنوات أو أكثر قليلا حين جئْنا إلى شبين، كان أغلب الرجال يلبسون البنطلون والقميص وفوقه (بلوفر) صوف فى الشتاء والخريف؛ هذا الزى فى الغالب مقرون بالموظفين، وكانت الموظفة ترتدى (تايير) فضفاض عليه تحجيبة أو بدون. لم يكن ثمة كورنيش لكن الناس كانوا يجلسون فى مكانه، وكنت ترى الشاب أيضا يلبس (بلوفر) تحته قميص، ما يشير إلى أنه ابن موظف، وإن كانت ملابسه أنظف من ملابس أبيه قليلا، والبنت تلبس فستانا أو (تايير) مثل أمها كذلك كانت الغجريات يلبسن الجلاليب المرسوم عليها زهور فاقعة اللون أو الجلاليب السوداء المشدودة عند الخصر، وهناك الفلاحات من كفر طنبدى والقرى المحيطة يبعن السمن والجبن والخضراوات، يلبسن الجلاليب السوداء الفضفاضة، وهناك زىٌ موحد لبنات المدارس الثانوية وغير ذلك. بالطبع يمكن أن تُخرج من الحسبة الزائرين وطلبة الجامعة من البلاد الأخرى والميسورين. والآن إذا أردنا قراءة المدينة فى سطر واحد، أنت تحب أن تسمى شبين امرأة، أليس كذلك؟

- بلى.

إذاً فهى كانت موظفة زوجة موظف وأم طلاب فى المدارس والجامعات، تدخلها الغجريات بالفاكهة أو للتسول، وتشترى الموظفة من الفلاحة السمن والجبن، أليس كذلك؟ وعلى ذلك يكون مركز المدينة، المصالح الحكومية والمدارس والجامعة، ومن خلف ذلك البيوت البسيطة المُتأنقة، وعلى أطراف المدينة غيطان للفلاحين وعشش صفيح للغجر والبدو

- هو كذلك.

- تمام يا معلم.

تعال الآن نقرأ ما رأيناه منذ قليل ونسمى هذه المرأة/ شبين؛ رأينا صاحبة النقاب المغربى التى تحرش بها المراهقون وزوجها الأكرش يلعنهم، ثم حميدة بياعة الجرايد، على فكرة، هى لم تكن تبتسم لحفنى ولكن للولد فى محل القصب أمامها

- يا بنت الكلب.

ثم رأينا صاحبة الكورنيش التى بدا عليها القلق، وأخيرا الساقطة التى نزلت من التاكسى أمام نقابة المعلمين. الآن نرسم خطا مستقيما؛ من هى المرأة التى لا تعرفها ما دامت مع زوجها؟ لكن شيئا ما يجعلك تشك فى حشمتها، ربما مشيتها ولا أجدع راقصة فى النقاب الفاضح، تلك حشمة لا تنطلى على عيال كالذين لمسوها وهم على الموتوسيكل، ثم إذا غاب زوجها قليلا فهى تُشاغل رجلا آخر يعجبها كما فعلتْ حميدة، وإذا ضرب لها موعدا انتظرته كصاحبة الكورنيش، ميعاد بعد ميعاد حتى تصبح رخيصة كالتى نزلت من التاكسى، رخيصة لدرجة أن الشرطى لن يتوقف ليدفعها فى البوكس. الآن من هى هذه المرأة؟

تدخل حفنى حين كبر علىَّ أن أجيب.

- المومس يا خروف، المومس

ولأن الموظفة لها ذوق خاص، فلقد كانت شبين بيوتا من طابقين

أو ثلاثة على الأكثر ذات شرفات صغيرة، فيها يشرب الموظف الشاى، ويضع ابنه صندوق عصافير الكنارى وأُصص الزرع القليلة. لكن المومس لا ذوق لها. ما حدث أن عشش الصفيح زحفت حتى لامست بيت الموظفة، ثم تحولت العشش إلى مساكن خراسانية متراكبة ومتزاحمة، ودخلت الغجرية الجامعة فلما رآها ابن الموظفة في البنطلون الجينز كالماردة تزوجها رغما عن أمه. كذلك تقلَّصت الغيطان التى كانت تفصل شبين عن الكفور والقرى المحيطة، فلقد سافر بن الفلاحة إلى السعودية وإيطاليا وبنى فوق الغيطان عمائر ثم تقدم لخطبة بنت الموظفة التى كانت لترفض لولا أن رأت أن الغجرية هى سيدة البيت من بعدها وهى التى تحتفى الآن بالضيوف، فقالت الموظفة لنفسها (قضاء أخف من قضاء) المتشردون أيضا تكاثروا من داخل شبين. ظهرت الخوازيق المعمارية العالية بين المساكن البسيطة، وامتلأت الفراغات بمعارض السيارات والسوبر ماركت ومحلات أدوات التجميل. ولكن حتى المومس لها ضمير يحاسبها، لكنه ضمير غير واعٍ، ضمير (ماشوسى) يجلدها كلما اطمأنت. إنها تفكر بالتوبة، توبة قاسية لتعنف نفسها على خطيئتها وتلطم خدودها حتى تنام من التعب. لذلك استدعت شبين هاشم العدوى وغيره من المُعَنَفين. لم يعجبنى كلام أحمد نعيمة بل وأكثر من ذلك صدمت للمرة الثانية فى نفس الليلة، لم يكن ذلك الكلام الصغير هو ما انتظرته طويلا من صعلوك فى حجم نعيمة، هو أيضا انتظر أن يلمح فى عينى ذلك البريق الذى يُصاحب

الكشف الخطير، لكنى بدلاً من ذلك ضحكت فى سخرية ودفعتُه باستهزاء فى وجهه، حاول أن يبدو جاداً لكنه استغرق معى فى ضحك عنيف، منذ هذه الليلة وحتى سافر نعيمة أصبحنا نمشى فى شبين متلازمين كأن أحدنا يرى صورته فى مرايا المحلات الكثيرة.

*

أنا جنيَّة يا أستاذ.

كان الباب نصف مفتوح فأطلت برأسها الجميل ثم دخلت. من موضعى على الأرض تأملتُ ساقين طويلتين فى جوربين من شبَك فوقهما (جيبة) زيتونية محبوكة، وجاكت قصير من نفس اللون. جلست على الكرسى القريب من الشباك وأشعلت سيجارة خلال ما ارتديتُ قميصى.

- أنت لا تعرفنى؟

- وجهك ليس غريبا

كانت وهى تدخن السيجارة تشبه اللاتينيات فى الأفلام الأمريكية، تُمسك خصلة من شعرها وتلفها على إصبعها، لم أفهم ما يحدث لكنها جميلة بحيث لا أتجرأ على سؤالها ماذا تريد، ربما فى الأمر خطأ ساعتها ستمشى وأكون أنا الخسران.

- لم أسمع اسمك جيدا

- جنيَّة.

- صدقت.

- أأخلع الجاكت؟

- أرجوك.

رنَّت ضحكتها فى الحجرة فمشيت إلى الشباك أُحكمه، أما هى فبعد أن علَّقتْ الجاكت فى شماعة الحائط أغلقت الباب كمحترفة ومشتْ إلى السرير فمنيتُ نفسى بليلة سمراء ذراعاها وافران وقوامها ملفوف ولا أحسن. حدثت نفسى أن لو تأخر نعيمة ساعة، ساعتين

- ما كل هذه الكتب؟

- لتحضير العفاريت، يا جنيَّة.

صفر براد الشاى وكنتُ قد نسيتُه فقمتُ أملأ كوبين، وبحثت عن عود نعناع بين الكتب على الأرض فلم أجد. كانت قد سندت ظهرها إلى شباك السرير، متعبة لكنها تظاهرت بالنشاط وتناولت الشاى. من هذه الجنيَّة التى نذرتْ أن تغوى حتى وهى بالكاد تفتح عينيها؟

- أنت حفنى؟

- حفنى؟

لم أفقد الأمل برغم ما قالت، كانت تسأل عن رقم تليفون محمد الحفنى ومكانه لأنها تتصل طول اليوم ولا يرد، فأجبتها

- لا يسمحون له باستخدام المحمول فى الشغل.

- أنا من طرف سليم الطبال.

- تذكرتُ أين رأيتك.

ضاع الأمل تماما فيما رجوتُ، لو كانت لحفنى لَما مانع لكن سليم لا يقبل أبدا أن يشاركه واحد فى نسائه، بالرغم من أنه يشارك عشرات الرجال فى زوجاتهم، وبالرغم من أنه كان يقرضنا الفلوس

بلا حساب ونشاركه ملابسه وطعامه، لكنه كان يرفض الشراكة فيهن حتى مع حفنى حبيب قلبه. ولكن أين سليم؟ كان له أكثر من أسبوع بابه مغلق والقفل عليه، حسبناه مع الفرقة فى فرح بعيد لكن غيابه ذاك جعلنا نسأل حتى من قبل أن تأتى جنيّة تلك الليلة.

- سليم يموت يا أستاذ.

وبكت حتى سال كحل عينيها، سليم كان محجوزا فى مستشفى الهلال بطنطا منذ أن بصق دما فى منديله وهو ينقر خلف الراقصة فارتبكت أصابعه. حملوا إليه كوبا من البيرة الساخنة فهدأ صدره قليلا حتى أتمَّ الزفاف ولكنه كاد يلفظ روحه فى سيارة الفرقة فأخذوه إلى المستشفى.

- لن تعرفه لو رأيته أيها الطيب

- لا حول ولا قوة إلا بالله

يريد أن يرى حفنى.

اطمئنى، سنذهب كلنا إليه.

اختفت بهجة الليلة تماما وأفسدت جنيَّة زينة وجهها بالبكاء، لطمت خديها بقسوة حتى أشفقتُ لها قالت وهى تنعيه على صدرى.

- آه يا (برنس) الليالى

لكن لماذا دخلت جنية تبكى على صدرى، ولماذا حاولت إغوائى أول الليلة؟ ذلك ما انتظرت أن تفصح عنه.

(أنا يا أستاذ أعرف سليم قبل أى واحدة من حريمه، وأحبنى من ساعة أن رآنى أرقص فى زفاف صاحبة لى من العزبة الغربية، فنقر لى وغمز لى. أنا أرقص كالسمكة منذ صغرى، ولكن ليلتها رقصتُ كالجنيَة، الرجال كانوا ليبيعوا حبات عيونهم من أجلى ليلتها، لكننى ذهبت معه هو، وبعد أن انتهينا، (أنت مش غريب)، عرفت أننى لن يملأ عينى غيره، قلت له نتزوج يا سليم وأهرب معك، فتعلل بالفقر، وكنتُ ساعتها مخطوبة بذهب كثير لواحد من عشيرتى.

- أنت غجرية؟

- ما عدنا غجرا أيها الطيب، ضاع عزّنا من زمن.

- الآن يتزوجن خارج العشيرة.

- أنا نفسى فعلت حين سجن خطيبى.

القصد يا طيب، تزوجت من التاجر ومن صاحب الصنعة ومن ابن الأكابر دون علم أهله، كلهم حلفوا بليالى جنيّة، كلهم يقولون خذى المال وافرحى يا جنيّة، لكن جنية أيها الطيب تبيتُ دمعتها على خدها، والصبح كنت أجمع الهدوم والذهب وأهرب، تزوجنى يا ولد يا سليم، أنا كيفك وأنت كيفى، ولكن بينه وبين الزواج عفريت.

- والمطلوب؟

- كلِّمه أنت وأصحابك.

أنا أولى به فى آخر أيامه، هو يسميكم خيرة الناس ويحب كلامكم،

كلموه عنى، يقعد زى الملك فى البيت وأنا أطعمه الشهد.

- لكنه يموت يا جنيّة، ماذا تفعلين بميت؟

- يموت على صدرى.

قامت من مكانها واقتربت حتى كان أنفى يلمس صدرها وأنا جالس، ثم سقطت فى يدى تبكى وأواسيها حتى هدأت لى تماما وبدا أنها لن تمانع، الشياطين كلها هنأتنى بهذه الليلة، بينما ملاكٌ عاقلٌ قال لى سيشق سليم بطنك دون تردد لو علم أنك لمستها، فدفعتها بكلتا يدى ووعدتها بصدق أن أفعل ما فى وسعى، حملت الجاكت بين يدها وصدرها وفتحت الباب، قالت قبل أن تخرج.

- افعل ولك عندى هديّة.

فى البداية كان يجمع حكاياته بعين شرطى فيضع حاجزا بينه وبين القارئ، أخذ وقتا طويلا لكى يتخلص من الشخصيات ذات البعد الواحد وتسمية الأشياء بألوانها وبدأ فى التقاط مناطق غاية فى العذوبة، باختصار كانت عيوبه فى الكتابة هى ما تخص الشرطى ولم تكن عيوبه الشخصية بعيدة عن ذلك. كان جذابا بحيث يرغب كثيرون فى صداقته كُلَّما تناسى وظيفته ومازح الأخرين بقولته (يا أبو الليف)، عندما كان يترك كتفيه يهتزان من الضحك ويحكى عن النساء والمواقف الغريبة التى تعرض لها هو وأصدقاؤه الذين يذكرهم، لكن بعد وقت قصير يتبدل الباشا شخصا آخر وينتفخ صدره ويبدأ فى إسداء النصائح كمن هو على

علم بكل شيء، عندئذ يظهر الشرطي ويهرب الطفل. هنا يستدعي النادل ويوبخه، في كل مرة كان يوبخه لشيء؛ تأخره في إحضار الطلبات، القهوة غير المضبوطة، وإذا لم يضع علبة المناديل وسط الطاولة. لم يستطع أن يندمج في مجموعتنا وهذا كان متوقَعا من البداية برغم حماس خالد علام له، لأنه ببساطة كان يحب أن يتصدر الجلسة. بعد ذلك سمعنا عن مشادة كلامية حدثت بين الدكتور أشرف والعقيد فهد في حضور خالد علام جعلت الدكتور ينسحب تاركا عشرين جنيها على الطاولة عن فنجان قهوة وحيد، بعد ذلك انقطعت هذه الجلسات تماما بقي الباشا على اتصال بخالد علام وبي، لماذا أنا؟ كان الباشا يكتب رواية عن شبين الكوم، هذا ما قاله لي خالد، وقال لي الباشا إنه يريد سرقة حكايتي منذ تحدثت معه في مديرية الأمن، لكنه كان يجدني مُلغزا إلى درجة جعلتْهُ يطلب الجلوس معي مرات.

- من أنت، ماذا تريد؟

أنت بطل لا يمكنه النهوض برواية وتحريك أحداثها، بل تتحرك كأنك الأحداث نفسها (هذا نص كلامه) كلما حاول أن يتذكر وجهي ظهرت مكانه بيوت وقطاراتٌ وناسٌ أخرون غيري، وأنا لم أكن أستطيع أن أُعطيه الإجابة التي ترضيه فبدا يائسا مني وهو يدون ما أقوله، في واحدة من هذه المرات أخرج لي من جيبه بطاقة عليها اسم المدير العام لشركة بترول بلاعيم، قال.

- كلمتُه في شأنك.

- لا أريد هذه الوظيفة.

- لماذا؟

- وجدتُ وظيفة مساعد فى صيدلية.

- صيدلية؟ من أنت؟!

لماذا أصبح هذا السؤال فجأة هو كل ما أسمعه من الجميع؟ لماذا بات الجميع مشغولين بإيجاد وظيفة لى؛ أنت ونعيمة والدكتور أشرف، أنا لا أرهق أحدا باحتياجاتى يا باشا فهى بسيطة بطبيعة الحال، ربما كل ما أريده أن أرى كل يوم هذه الشوارع وهؤلاء الناس، أن أكتب قصيدة جيدة ذات يوم أقرأها فى نفس الأماكن التى اعتدتُ عليها وأحبها ربما لست بطلا، هذا كل ما فى الموضوع، هل ينبغى أن أكون؟ لم يكن ذلك سهلا على فى البداية ولكنى تقبلتُه، أنا يا سيدى لستُ طرفا فى أى نزاع ولا أحب أن أكون، استخدم بطلا سواى، أو قل مثلا إننى أغويت غادة وجعلتها تسرق فلوس الناس وتسافر أنا أُحسنُ أن أصفها لك، صدقنى كنتُ أحسن ذلك لدرجة أنها كانت تحب أن أصفها لنفسها هل انفعلتُ وأنا أتكلم؟ لكن الباشا كان يبتسم، كان ينتظر أن أكمل كلامى، ولَّما لم أفعل قدم لى سيجارة وقام يربت على كتفى.

عندى لك أخبار

- قبضوا على الولد المحامى فى الإمارات.

- وهى؟

كان يعيش وحده.

كان من الصعب عليّ أن أفتح قلبى لشرطى، بل وأكثر من مرة خطر لى أنه لا ينبغى أن يعرف كل هذه المعلومات عنى، كانت عيناه تلتمعان أحيانا بشكل يحسم الفارق بين الكاتب والشرطى، وحدَّثت خالد فى ذلك لكنه سخر منى، قال لى إن سينما (عاطف الطيب) أتلفت استقبالى للناس، ولكن ما حسبته وجدته. كنتُ قد تكلمت معه عن رغبة الأستاذ هاشم العدوى فى عمل تظاهرة بالشموع بعد عرض المسرحية، ذلك ما لم يكن يعلمه إلا قليلون أنا واحد منهم، بعد يومين بالضبط أُلغيت المسرحية من قبل إدارة الثقافة، فإما أنا أو واحد غيرى وشى بهم، فى هذه اللحظة قررت الانقطاع عن الذهاب إليه وفى نفسى شعور بالإثم لم أصارح به أحدا

كان علينا أن نعمل منذ أن توقفت شبين عن ترك عشائنا فى ورقة الجورنال، كثيرون لم يصدقوا أننى أقف بالبالطو الأبيض أقرأ الوصفات الطبية ثم أُحضر الدواء المطلوب، كثيرون أرادوا أن يشاهدوا ذلك بأعينهم، الغريب أننى أحببت هذا العمل وأجدتُه بدرجة أدهشت الدكتور صالح نفسه بعد فترة قصيرة من عملى معه. كان صيدلانيا على حق، يحمل شهادة الدكتوراة، عرفت منه متعة الكيمياء القديمة وفنون الدواء. كان معمَلُه من داخل الصيدلية عبارة عن حجرة كبيرة، وباستثناء جهازين متقدمين للميزان والخلط، وبعض أنابيب المُعايرة والتقطير كان المعمل يبدو للناظر

كمخزن للعطارة له رائحة صادمة منذ الوهلة الأولى. ساعة العصر كان المرضى يقصدونه لا لصرف روشتات الدواء ولكن للتداوى أيضا كان عيب الدكتور الوحيد أنه كثير النسيان بشكل لا يمكّنه من القيام بأمور نفسه، فقد كان ينسى مواعيد العمل والطعام وينسى أحيانا ما تحتاجه الصيدلية من أدوية. الدكتورة (عزة) أخته الصغرى كانت تمر على الصيدلية كل أسبوع لتطمئن عليه وتراجع متطلبات الصيدلية، رأيتها مرةً تُساوى له قميصه وتأخذه من يده ليأكل. وتركيب الأدوية كان كل شيء فى حياة ذلك الدكتور، يتكلم حتى وهو يمضغ الطعام عن المُركَّب الجديد الذى جهزه فتضحكُ له أخته وتمسح بمنديلها فمه.

كُل أولا يا شيخ عطا (هكذا كانت تناديه باسم جده أحيانا)

- حاضر

لها صيدليتها هى وزوجها فى شارع (جمال عبد الناصر)، وكانت كبيرة بالمقارنة بصيدليتنا، فالدكتور صالح كان صاحب صيدلية فاشلا بسبب معمله. وكان المساعدون يتركون له الصيدلية للأجر الزهيد وبسبب ذلك السيل من الناس الذين كانوا يأتون طلبا للدواء المُركَّب الذى يصنعه الدكتور بيديه، الحق إن بعض الناس كانو يقصدونه بسبب سيرة جده العطرة، الشيخ عطا كريم شيخ مشايخ الحامدية الشاذلية، قال بعضهم أن جدّه علمه هذه الوصفات قبل أن يموت، بل وزادوا فى ذلك أن جده (رحمة الله عليه) يأتيه من عالم الروح ويعلمه هذه الوصفات. حتى المنصفين كانوا يرون

نبوغه فى الطب البديل عطية من الله من باب (وكان أبوهما صالحا). ولا يُلام سواه فى كل هذه الأقاويل؛ فقط لو كان يُكمل هندامه وهو خارج للصلاة فى المسجد القريب، لو كان ينصت إلى من يحدثه ولا يهز رأسه كالأبْلَه لاختصار الحديث. من هو المساعد الذى كان سيسهر معه لتحضير كمية كبيرة من المركبات ويحرص على أن يطعمه بيديه وإلا لما انتبه هو لذلك، من كان سيتعامل مع مندوبى الدعاية ويباشر حساب الصيدلية ويتعامل مع فلاحى الكفور المحيطة القاصدين بركات الشيخ؟ أنا أفعل ولَّما جاءت الدكتورة عزة لتطمئن على أخيها وجدت الصيدلية مرتبة ونظيفة، وكنتُ أنا والدكتور صالح نأكل ونتحدث عن سهرة طويلة، فسَلَّمت علينا واحتضنتْ أخاها ثم نظرت إلى بعين العرفان.

فقط هذه الكلمات القليلة.

أخى /

لم أعد أحتمل، سامحنى.

ملحوظة. فكرتُ وأنا أحزم حقيبتى فيما قلناه تلك الليلة. ربما ليست مومسا ولكنها قاسية، لا تُنكر

(أحمد نعيمة. ٢٠٠٥ / ١ / ٢٥).

- هذا كل شىء؟

كل شىء يا باشا.

- فى رأيك لماذا هرب ؟

كان ينفق ببذخ فجار على رأس المال .

- فلوسى ؟

- فلوس سيادتك وفلوس غيرك .

- والمومس هى غادة ؟

- أى غادة ؟ ! هذه لغة خاصة .

- آه ، لغة خاصة .

لم أجرؤ أن أدير رقبتى وهو واقف خلفى ، هل ينبغى أن أقف أم أظل جالسا ؟ أى الوضعين سيتذرع به ليبدأ وابل الضرب والإهانات ؟ الحق أننى كنت سأتفهم أن يفعل ذلك بنفسه أو يترك مخبرا يفعل ، فتلك كانت ثانى واقعة نصب شهدها فهد الكاشف فى هذه المدينة ، وكنت أنا دائما فى نفس اتجاه الحدث ، الألعن من ذلك أنه كان الضحية فى هذه المرة .

سيادتك لا تصدقنى (قلتها بصوت خفيض) .

- إيه ؟

- أقول ، سيادتك .

فى مثل هذه اللحظات الحرجة ، فهد باشا لا يصرخ فى وجه أحد ، لكنه يجعلك تشعر بالذنب والخوف والضعة جرَّاء هذا الغضب الذى

يحبسه عنك. كل إشارة من يده تتحرك فى بدايتها مثل اللطمة، كل كلمة تبدو أنها الأخيرة قبل الانفجار لكنه لا ينفجر أبدا؛ يظل هكذا طابقًا على صدرك بدماثته ولمساته الخشنة، كأنه الصديق الغاضب لك وأنت الغبى الذى لا يعرف مصلحته ولا عدوه من حبيبه.

- أنتما أقارب؟ يا أخى تشبهان بعضكما

- حكيت لسيادتك عن ذلك.

- آه، افتكرت. الموهوب والمعطوب.

نحن اختبرنا ذلك من قبل ولم نفلح فى تكوين صداقة، لا على طريقتك ولا على طريقتى، فلا تحاول ذلك الآن، كن قاسيا حتى نقطع هذه الشعرة فأنا لا أحبك أيها السيد، وأكثر تمنيت لو كان عندى ما أخفيه عنك لأغيظك، بل إننى مع حزنى على فراق أحمد نعيمة سعيدٌ بأنه كسر غرورك يا سيادة العقيد، فنحن فى أحلك الظروف نستطيع أن ندهش الأخرين وهذا ما لا تفهمه وذلك ما جعلك نتوءا فى مجموعتنا، الأمر ليس خلافك مع دكتور أشرف، كلُّنا لن نطمئن لك حتى تخبرنا بما تريد.

- أنت لا تحبنى.

العفو يا باشا، سيادتك.

- لا تكذب، روح.

- بدون تحقيق؟

- روح يا أهبل

وقبل أن أدير مقبض الباب قال لى (صدقنى سأجعل منك بطلا)، فارتبكتُ واصطدمت بحامل القهوة وأنا خارج. حين مددت كفى لأشرب من (كولدير) مسجد المديرية شعرتُ بيد تعصر قلبى من الداخل وتحبس الماء لأُغص، أمسكت طريقى إلى (ميدان الشهداء) لأَمُر على خالد علام عند أبيه، ومنذ الخطوة الأولى سمعت دقات قلبى مُضاعفة وندى جبينى بالعرق فعرفتُ أن هناك من يراقبنى، كنت أستطيع أن أحلف على ذلك دون أن أرى من كان يتبعنى، هكذا بحاسة العادة ميزت ثقل الهواء على صدرى وعلى جناحى، وكنت أمشى كأننى كلمة بين قوسين، هدفٌ لحدقة عينٍ تلسع رقبتى وتجعلنى أتَعرق. كيف سيجعل منى بطلا؟ لماذا يراقبنى، شبين تفقد بهجتها وناسها وتعد علينا خطواتنا يا نعيمة.

كانت التاسعة مساء حين خلعت البالطو الأبيض ورزمت الفلوس استعدادا لإنهاء نوبة عملى فى الصيدلية، وإذا بى أسمع صرخة من داخل المعمل وصوت زجاج يتكسر بعنف، أسرعتُ إليه فوجدته يمسك يده الدامية بالأخرى ويعوى من الحسرة، حين رآنى قال (المشكلة أننى أنسى، دائما أنسى) كان الدكتور صالح قد فشل فى تركيب مستحضر للجلد، أعده مرَات قبل ذلك وقد اختلطتْ عليه التركيبة بوصفات أخرى. حين نظرت للورقة التى كان يكتب عليها وجدتها لا تصلح لشىء؛ كانت خطوطا صاعدة وهابطة، حتى الرموز الكميائية كان لا يكتب أوزانها اعتماداً منه على

معرفتها فلما انتهى كان قد فقد كل شيء إلا هذه الورقة التى كانت تُشبه كتابات السحرة.

- لماذا لا تكتب بنظام يا دكتور؟

- أنا أُغير باستمرار

- أُكتب التعديل أيضا

- إما أن أكتب أو أعمل، يدى لا تحسن إلا التركيب.

أخرجت شظايا الزجاج من يده وأطفأت الجروح ولم يزل يكلم نفسه محاولا الوصول لقلب التركيبة دون جدوى.

- هذا ذنبى لأنى لم أُصلِ العشاء.

- يا دكتور أنت صليتها مرتين.

الحق أن رأسه الكبير ذلك الذى يشبه قَرعة العسل لم يكن فيه مكان للذاكرة، ومنذ أن عرفته كان ينادينى بأسماء كثيرة ليس بينها اسمى، يشير إلى الأشياء ويخبط جبينه حتى أرحمه وأذكّره بأسمائها كنت أجمع أشياءه من أماكن كثيرة؛ ساعة يده من على حوض الوجه أو حتى حوض الوضوء من الجامع القريب إن وجدتُها أصلا، نظارته ومفاتيحه أطاردهم مثل الفئران الصغيرة فى كل ركن. ولولا أن أدخل عليه مرتين بالأكل فيأكل مثل جمل ويستأنف تجاربه وهو يمضغ مثل هذا الرجل لا يتزوج ولا يحسن وظيفة لها مواعيد ثابتة، وهذا أمر يفهمه أصحاب شركات الأدوية الكثيرة التى كان يعمل بها استشاريا وهو على كل حال لم يكن محتاجا إلى وظيفة فوصيَّة جده كان تحتها كنز لهما. مجنونا بالتركيب كان يطمح

للعقار الذى لا يترك وراءه أثرا إلا الشفاء، فتفرغ لمعمله وللفلاحين من القرى المجاورة وللصلاة. كان قد صنع ميقاتا كيماويا ينبهه للصلاة؛ يشبه الساعة الرملية القديمة ولكن هذا الأنبوب ذو الانتفاخين ينتقل فيه السائل من ناحية إلى أخرى بتأثير فرق الضغط الناتج عن التسخين ويتغير لون المحلول فى الانتفاخ الثانى فوق نار هادئة حتى يتصاعد دخان عظيم يرفع السدادة الرقيقة وتنتشر رائحة المسك فى المكان. أمسيتُ أنا نفسى أُميز مواقيت الصلاة بالرائحة كأن المسك كان يخرج من فم المؤذن. ذلك المساء الذى جرح فيه يده جرب أكثر من مرة إعادة التركيبة حتى يئس منها، فأمرنى أن أقفل عليه باب الصيدلية من الخارج، نعم من الخارج ولم يكن أحد يستطيع مراجعته. ولكنى بعد خطوات قليلة من الصيدلية حتى (كوبرى عمر)، رجعتُ ولبست البالطو الأبيض، كان يرتل أدعية تشبه كلام الصوفية، لعلها من كلام جده الشيخ، وكان يرتعش فلم يشعر بى. ثم بعد وقفة لى طالت فى باب المعمل التفت إلى بعين راضية.

- مرحبا يا أخى؟

- اعمل أنت يا دكتور وأنا أحفظ لك.

وقفت عند كتفه أنظر وأُدون بدقة نسب المحاليل والمساحيق فى كشكول حسابات الصيدلية. تلك الليلة مصبوغة بالسحر كيفما قَلَّبتها فى رأسى، ودون تحيز للرجل. كانت يده من المهارة ما يخيل

إليك أن الأشياء تتحرك إلى يديه قبل أن يقصدها، روحٌ تعبر الأجسام الزجاجية المُفرغة. القرقرة، بقللة الغليان، الدخان واللون حديثٌ تتبادله المُتراكبات كأنها تعرف ما تفعله، أو لا تعرف وإنما تنصاع لقفازى هذا الساحر الواقف يُتمتم بأسمائها حمل الجفنة كأنما بإصبعه يرفع ذقن امرأة بيضاء جمعت ذيل ثوبها لتطأ بقدمها الرقيقة ساحة اللون، فى تلك اللحظة كان يهيأ لها من كل وهمٍ، حتى ولو شاءت أن تطير فبإشارة من إصبعه ترتفع. وأُخرى فى مقصورة البلّور كانت تنتظر أن يدنى لها إصبعين تنهض لهما لحظات ويشتعل (الفالس) ويأتنس اللون باللون زمنا طويلا حتى يضع الساحر قفازيه، فتخرج نغمة الكمان الأخيرة من فوهة ضيقة ويتناثر الورد الأبيض مثل الدخان.

وإذا ضاع الكشكول يا أخى؟

هه؟

طوال إقامتى فى شبين لم أختبر ذهولا يحبسنى عن الكلام من قبل إلا فى حالات قليلة؛ الساعة الّتى كانت غادة تبتسم لى عن قرب، وعندما كان أحمد نعيمة يقترح نهايات بعيدة لحكاياته فى مقهى السنترال، وأخيرا عندما كنت أرى الدكتور صالح يعمل بيديه. كانت التركيبة الناتجة عبارة عن معجون (جيلاتينى) أبيض حمله الدكتور على كفه ووشْوش له باسمه الذى سيعرفه الناس به، فاهتز المعجون على كفه كأنه وعى، وطاشت بالرجل فرحته. كنتُ أحب تلك اللحظات التى يمرح فيها ويمازحنى مثلما لطخ وجهى ببعض المعجون ليلتها

- يا أخي لو ضاع الكشكول، ماذا نفعل؟
- الكشكول لك أنت يا دكتور

أنا لا يلزمني كشكول، فعيني وحواسي كانت دائما منافذ إلى ذاكرة فوتوغرافية قريبة اللون، وقفتُ أشير بيدي إلى المساحيق وأقول نضع من هذا قدر كذا ونخلط كيت بكيت، فكررتُ عليه ما فعله بالكلام ولم أنس شيئا، لا جرام الملح ولا مثقال الكافور غره ذلك مني فأفسح لي إلى طاولة التركيب ثم ربت على ظهري ووقف ينتظر هذا ليس عدلاً، حتى موسى عليه السلام احتاج أن يرى عصاه تستحيل إلى حية مرات كثيرة قبل أن يقبض عليها بيد مطمئنة، بينما أقف أنا أمام هذا الساحر بلا عصاه أصلا ولا أعرف ما يكون من أمر هذه القوارير ولقد صح ظني؛ تلك القوارير التي كانت ترقص منذ ساعة، ما إن لمستها حتى كأنها زجاج فارغ ليس أكثر بل واستعصت على فكسرتُ أنبوبين وأهرقتُ المحاليل بلا حساب.

ما لك يا أخي؟

هذا ليس عدلا فالأشياء تنحاز له، ليس لأحد أن يقف في مكان هذا الساحر إلا أن يعلم بم كان يتمتم في آذانها.

- ما لك يا أخي؟

مرتبك قليلا

كنت تعرف كل شيء.

ليس كل شيء، ثمة كلمات. قبض صالح على يدى الماشية إلى الدورق فاضطربت ونظرتُ إلى كفًى لأجد مكعبات الصوديوم بدلاً من حبات الصمغ العربى، كان الدورق لينفجر لولا ما أدركنى، فنفضت يدى وجلستُ على الكرسى القريب.

- هل كنت تحفظ فى الكلية؟

بدت خيبة الأمل عليه وهو ينظر ناحيتى وينقر بقبضته على طاولة التركيب. بقيت تلك النقرات فى أذنى أسابيع كثيرة، حتى وأنا فى حجرتى كنت أسمعها الدكتور يحتاج إلى مساعد حقيقى يركِّب بيديه الدواء، لا إلى شريط كاسيت يعيد عليه ما فعله. رأيتُ فى حلمى كأن النهر يجرى على الحائط وأننى أمد يدى فأخرج من الماء بلطيات كبيرة، فسألنى الدكتور كيف تصطادها بسهولة، فقلت نأخذ ما يكفينا والباقى للأستاذ عاطف فهو يحب السمك، لكن عالية الباشا عمياء لن تأكله، فقال يا ملعون أنا أعرف عنك أشياء، هل تفهم؟ وقَرب السمكة منى وهى ترقص فكأنها غادة.

المعجزة التى تحدث فى كل مكان بخرق العادة تظهر عندنا فى شبين من التصاقنا الشديد بعاداتنا، ولقد تفهم الدكتور صالح أننى لم أكن المساعد الذى يتمناه، لكنه قنع بهمتى فى القيام بشؤونه وقدرتى على إدارة الصيدلية، أما أنا فكنتُ أمسك بالكشكول وأجرب، أحاول ألا أكسر القوارير، أجرب أن أُسر إليها بأسمائها مثلما يفعل، لكن القوارير كانت تعاملنى كخادم للمعمل ليس من

حقى أن أطمح إلى أعناقها ، ثم تنتحر بين يدى . هكذا بدا لى أننى سأتخلى عن حلمى فى أن أكون كيميائيا بارعا كما تخليت من قبل عن حلمى فى التمثيل وكتابة الشعر ، لكنى حافظتُ على مواعيد البروفات ومواعيد الصيدلية . وأَرِقتُ ليلةً فحملت الكشكول تحت قميصى ثم مشيت به إلى الصيدلية ، أيقظت القوارير النائمة وحكيتُ لها عن غادة وعن شبين فبدا أنها تستمع . وجاء الدكتور صالح صباحا ونقر بإصبعه على ظهرى .

- ماذا فعلت ؟

- شيئا من الترتيب ، هل نبدأ الآن ؟

سمعت قلبى وأنا أمد يدى إلى الأنبوب ثم همست لها

* * *

فى أقل من شهر حفظت عنه عشرين تجربة كانت يدى أسرع إلى مساحيقها من يده . فأنا حين أصنع العادة أعيشها بنعومة الحركة فى أسهم ثابتة ، تماما كما كنت أستطيع أن أغمض عينى وأمشى فى شارع الغزل بالطبع كانت تواجهنى مشاكل ؛ فاللقطة الفوتوغرافية عندى لا تقبل التحريف ، وكم من مرَّة حدثت الدكتور أن لا يحرك المساحيق من أماكنها ولكن هيهات ، ربما لم ينتبه لكلامى أصلا كذلك إذا أراد الدكتور إضافة تعديل بسيط على مركب سبق وحفظتُ الطريق إليه لم أكن أحسن التعديل ولكنى كنت أحتفظ بالتجربتين من بدايتهما لم يفهم ذلك من طبيعتى ولكن احترمه واتفقنا فى النهاية على حل يريح الطرفين، ذلك حين قسمنا المعمل

بستار أسود؛ شطر لتجاربه الجديدة وأخر لإعادة التركيب. في لحظة ما تذكرت ذلك الستار الذى ضربوه لأحمد نعيمة في مقهى السنترال فابتسمتُ لنفسي أنني ربما كنت موهوبا في شيء ما لا أعرف اسمه ولم يصنف بعد كواحد من الفنون، لكن للمرة الأولى كنت أشعر بالسلام وأنا أجمع بيدى دواء الناس من أشياء كثيرة وأتحدث أنا وذلك الصالح عبر الستار حتى تخرج علينا رائحة المسك فنترك كل شيء لنصلي. ولكن هل كان الدكتور بريئا من الشائعات حول جده؟ الحق أنني بعد كل هذه السنوات لا أقول إنه كان بعيدا عمّا يشاع، ولكني لا أقول مثل الناس إن جده الميت كان يأتيه فيقرأ عليه من العلم اللدني، ولكنه كان شديد الاعتزاز بجده إلى حد يجعله لا يغضب من مثل هذا الكلام، وهو أحيانا درويش بكل معاني الكلمة. أذكر تلك المرأة التي كانت تعاني من تيبس في أطرافها يأتيها في الليل ويذهب عنها في النهار، جاءت إليه بعدما داخت من اللف على أطباء الأعصاب والعظام. كانت عروسا جديدة مع أمها التي سمعت عن كرامات الشيخ، سألها الدكتور صالح إن كانت تُصلي. فخجلت العروس من الرد وأجابتْ أمها أنها لا تقرب الصلاة فقال الدكتور كنت أعرف. أمسك الدكتور يدها وكتب على كفها بعنف (صل صل). أحيانا أخرى كان يفتر عن العمل وتأخذه الجلالة فيصبح ثرثارا؛ يجلس على مكتبه ويتحدث معي حريصا على أن أفهم عنه كل حرف، كانت عيناه تلتمعان ويجمع بكفيه الهواء كأنما يحاول ترميم عبارة حكيمة لكنه لم يكن يفلح أبدا،

كان غَشيما يتهته ويضل عن مقصده ويشُك فى استيعاب الأخرين لكلامه فيقول (هل تفهم؟) يقولها كثيرا وأكثر ما يكون مدبًّا مع من يحبونه ؛ أقصد أخته وزوجها أنا بعد فترة من عملى فى الصيدلية كانوا يعاملوننى كواحد منهم ؛ وإذا أَوْلَمت الدكتورة لأخيها كانت تسأله أن آتى معه، فكنتُ أجلس بينهم وبودى لو تنشق الأرض وتبلعنى حتى لا أضحك من الدبش الذى يخرج من فمه ليصيب أخته وزوجها

- أنتم صيادلة؟ أنتم بقالون.

كان يقول أى شيء ليغيظ الدكتور (حافظ) صهره، والمسكينة أخته تغمز له ليفهم أنه تجاوز الأصول ولكنه يتمادى. الدكتور حافظ كان رجلا ابن حلال عقله كبير يحب ذلك الغشيم رغم كل شيء ويعترف بعبقريته.

- لماذا لا تشاركنى فى مصنع صغير نجرب فيه وصفاتك؟

- وهل ستعمل معى؟

نوظف صيادلة وكيميائيين يساعدونك.

- الناس لها كرش واحد وزوجك له كرشين يا عزة.

وإذا مشينا من بيت أخته إلى الصيدلية كنت أمسكه من يده مثل طفل عملاق لأعبر به الشارع كى لا تصدمه سيارة وهو يتكلم بكامل تركيزه فى موضوع لا يخصنى، يا عم الدكتور أنا لست كميائيا إلا بالاسم، هل انطلت عليك خدعة المعمل؟ لا أنا ولا

أختك ولا زوجها نفهم ما تقول، أنت وحدك الموهوب بيننا، لذلك أنا أثق بك، وأحبك يا أخى، كما تدعونى لأنك تنسى اسمى، أحب رأسك الكبير وأسنانك العريضة والدبش الذى يخرج من فمك بغير حساب. لماذا نطالب الموهوب أن يكون لطيفا ومجاملاً فهو لن يعمل نادلا فى (كافيتريا صفصف)؟ تكلم يا أخى، قل ما تريد فأنا أسمع لك.

(اسمع يا أخى أريدك أن تحفظ عنى وتصنع بيدك الدواء لقاصدى الأجزخانة، هل تفهم؟ اصنع لهم كميات تكفيهم فأنا أريد أن أفرغ لنفسى.

- تتزوج يا دكتور؟

لا تكن سخيفا.

أنا فى رأسى أشياء، هل تفهم؟ أريد أن لا أرى مريضا بالسُكَّرى ولا الكبد والسرطان، الأمراض المعمرة، هل تفهم؟

- وهل عرفت دواء لها؟

فى رأسى أشياء، أنا يا أخى أجمع المساحيق بالنسب التى يمليها على الكيميائى الأعلى (وأشار بإصبعه إلى السماء)، هو الذى خلق الكيمياء وهو أول من ركَّب بيديه؛ ذرتين من الهيدروجين تصنعان شمسا، وأُخريين تجريان ماء، أنا وأنت أبناء أربع ذرات نيتروجين، الأمور ليست معقدة كما يظن الناس، هل تفهم؟ أقول لك إن الله وحده يعلم نسب التآلف بين الذر، حتى يكون ما يكون بأمره،

كذلك يعلم نسب النفور، المرض، ذلك الخلل فى التآلف لو تفهم. أقول لك إن الكيمياء الحديثة جُلّ ما تحاول فعله هو تأطير الجزء غير المتآلف حتى لا يستشرى فى بقية النسيج، لكنها خلال ذلك تنشر بُقعا سوداء من التنافر هذا تفسير ما تسمعه أن مريضا بالعظام بعد أن شُفى أصيب بفشل فى وظائف الكُلى أو الكبد. الكيمياء الحديثة تبخ البقع السوداء بلا حساب فتجعل قماشة التآلف تهترئ بعد حين. وما المُسَكنات إلا وهم يوحى بذلك التآلف الذى أحدثك عنه، والمضادات الحيوية ما هى إلا محفزات لذلك التآلف، هل تفهم؟ أنا أريد أن أُنصت إلى نسب التآلف التى يمليها على الكيميائى الأعظم دون أن يشغلنى شىء.

لكن لا تؤاخذنى، هذا شعر

- أنت مهذب، وهذا ألطف ما اتُهمت به.

ما رأيك فى الدواء الذى نصنعه سويا؟

- عظيم، والناس تصدقه.

- إنها البداية فقط، صدقونى).

لا أعرف وأنا أكتب هذه الورقة إن كانت مهارتى فى التركيب هى ما ساعدت الدكتور على إتمام تجربته الروحية، أم كانت وبالا عليه؟ أحيانا أحدث نفسى أنه كان صائرا لا محالة إلى تلك النهاية، كان يقول دائما فى رأسى أشياء، وعهدى به أنه لم يكن من النوع الذى يرضى

بأسئلة معلَّقة. أحيانا أخرى أقول لنفسي مثل هذا الرجل إن تُرِك لنفسه يفسد، ينبغي أن يعمل بيديه حتى ينهك ولا يجد وقتا يتحدث فيه إلى نفسه. إن صح ذلك فأنا بشكلٍ ما قد أفسدتُه، فلقد أهديت له فراغا يتحرك فيه ويتفلسف. الشهور القليلة التي تلت ذلك كان الدكتور صالح أهدأ بالا وأحسن منظرا؛ يمشط شعره ويحكم سوستة البنطلون دون أن أذكِّره، وتردد في زيارات كثيرة على أخته وبعض أهله. لكنه للحق لم يهمل معمله تماما؛ كان يقضي ساعات قليلة في المعمل ولكن بنفس حدة التركيز التي يعمل بها دائما أو أكثر قليلا، لكنه لم يكن ينتج شيئا، لم يطلب مني لفترة طويلة أن أحفظ عنه أي شيء جديد، فقط كنت أشم روائح لافتة للروح تستدعي داخلي مشاعر لا أسماء لها. ولَمَّا كان لا يحادثني حدثتني نفسي بسوء (أنا الذي يقف في الصيدلية أغلب اليوم وأقابل الفلاحين وأكنس وأمسح، كل هذا بملاليم؟ يشتري لنفسه ملابس جديدة وينفق بلا حساب في الصدقات ولا ينتبه لقميصي الذي أوشك أن يذوب علي)، نفضت يدي وأزحت الستار الذي بيني وبينه، وقبل أن أنطق بكلمة التفت إلي بابتسامته القديمة.

- أريد أن أزيد راتبك يا أخي، أنت تتعب.

كنت سأذكرك بموضوع سليم صاحبي، المرض يقتله.

شمرت ذراعي وضربت الستار بيننا حتى مسك الفجر المتطاير من الأنبوب. كنت راضيا بذلك، ليس بزيادة الراتب وإنما بكلمة يا

أخي، وكنت لأقضي بقية عمرى هكذا في شبين لكنها هى التى رفضت، أخرجت عليَّ كلابها وعفاريتها تنازعنى ذلك السلام الجديد؛ كلما خلعت البالطو الأبيض وخرجت من الصيدلية، كانت دقات قلبي تعلو كأنها خطوات من خلفى، كلما نظرت من نافذة حجرتى فى أى ساعة من الليل عاينت شبحا ينتظرنى عند أول الشارع، أهرع إلى ذلك الشبح لأسأله (لماذا تلاحقنى؟) ولكنه كان يختفى قبل أن أدركه، وتنبح كلابها فى وجهى لأرجع.

*

بعد هروب نعيمة زهدت فى الذهاب إلى قصر الثقافة وفى المساء كنتُ أُطفئ نور الحجرة وأراقب من النافذة ذلك الشبح الذى ينتظرنى عند ناصية الشارع، لا يبدو منه سوى ذيل جلبابه وحذائه المدبب، أقول لنفسى لو يستدير فأرى وجهه، لو ينحنى أو يهتز، ذلك يجعل منه إنسانا على الأقل، ولكن أبدا، دائما تلك الأقدام التى تلاحقنى فى النهار وعند المساء تنتظرنى وبالقرب منها كلبٌ يعبث فى أكياس الزبالة، أضأت اللمبة وحاولت إيهام نفسى أن تلك المخاوف كان مبعثها لقائى الأخير مع العقيد فهد وأنه لا شيء غير طبيعى، فلو أرادنى لأحضرنى إليه دون تكلف ذلك الجهد، واصلتُ القراءة وأنا أشعر بسذاجة ما أحاول إقناع نفسى به. الثوانى التى أخلصت فيها للقراءة قطعتها على صاحبة سليم (جِنيَّة) اقتحمت على الحجرة وفى وجهها شر كثير

- أنت بتعمل إيه؟ قم معى

سحبتني بعنف من يدى وأنا أستمهِلُها لأفهم. كان سليم قد خرج من المستشفى منذ أسابيع، ومكث في حجرته من دون عمل وأيضاً بدون نسائه اللاتي كن لا ينقطعن عنه، لم تعد واحدة منهن ترغب في سليم المريض، إلا جنية، هي التي كانت تطعمه وتناوله الدواء. أخذَتْني من يدى إلى السطح فوقفنا عند حجرة عتمان الأعرج (صاحب العادة السيئة)، كان الشر في عينيها لا يردُ، أمرتني فكسرت معها الباب ووقعت عيني على سليم الطبال يقوم من فوق عتمان الأعرج وكلاهما عارٍ، اضطر سليم أن يجارى عتمان في شذوذه نظير مبلغ من المال كان قد اقترضه منه، أخذ سليم سرواله يلبسه على عجل، وحين أبصرت جنية ذلك قفزت مثل النمرة على الأعرج الذى زحف برِجلٍ ونصف ليهرب منها خلف البوتاجاز لكنها أدركته. كانت تغوص بأسنانها في لحمه وتخرج بقطعة من جلده تبصقها وتعود لَمَّا هيَّأ الطبال نفسه قليلا حملها من خصرها ورماها خارج الحجرة وهى ترتعش مثل القط المذبوح، فلما انتبهت لصاحبها سعت إليه بأظافرها، لطمته ولطمها وركلها

مالك أنت، يا بنت الوسخة.

قامتْ إليه ثانية فدفعها بكل قواه وهو يمنع أظافرها عن رقبته فسقطت جنية عشر درجات من فوق السلم ظننت أنها لن تقوم بعدها، لكنها وقفت تطالبه بمزيد من العنف اجتمع الناس علينا يسألونني فأهز رأسي، ويمنعونهما عن بعضهما دون جدوى، بقيا يتلاطمان ويتراكلان ويتعاضان حتى خارت قواهما كانت جنيَّة

تلطم سليم وتلطم من يحاول أن يؤذيه فى نفس اللحظة. نزل بعض الناس من على السطح حاملين عتمان الأعرج لإسعافه، وانسحب الباقون إلى حجرة سليم الطبال الذى جلس على سريره يبكى ويحجب وجهه بيديه، خلصت إليه جنيَّه بشعرها المنكوش ووجهها المتورم فطبطبت عليه ثم أخذت وجهه فى صدرها.

- ما تعملش فى نفسك كده يا برنس الليالى.

وخلعت ذهبها تلقيه عند حذائه فبكى أكثر واحتضنته أكثر الناس ينفضون وأنا من خلف الناس أراقب، ما كان ذلك يا شبين؟! ما كل هذه الحكايات المقيتة؟! أحسست بصدرى مقبوضا ولا أكاد أجد الهواء الذى أتنفسه، أردت أن أخرج إلى الشوارع، أن أجرى دون أن يمنعنى شيء.

أريد أن أرى البيوت، الناس، والنهر الذى تختبئ فيه شبين بعد كلِ مصيبة. تبعتنى تلك القدم منذ أن خرجت من البيت، ليَكُن سأضللها عنى، لا أحد يعرف شبين مثلى، ولا يمكن أن يكون ذلك طبيعيا، إنها مريضة يا نعيمة، ليست مومسا ولا هى قاسية، الدكتور صالح سوف يعالجها، إنه يبحث عن التآلف وأنا أقف معه. حاول أن تتذكر شارع الغزل، شارع المحطة، شارع الاستاد، قصر الثقافة، مقهى السنترال، مقهى أبى يوسف، نادى التجارة، نادى الموظفين، نادى الغزل، الكورنيش الطويل، ميدان شرف، البر الشرقى، كوبرى عمر، نافورة الميدان، ودكانة الأستاذ عاطف

ومنزل السبعاوى، تذكر يا نعيمة أرجوك. تلك القدم التى كانت تتبعنى تعرف شبين مثلى تماما، لم أستطع أن أزوغ منها، حتى حينما جلست مرهقا على الكورنيش كنت أسمعها تضرب الأرض فى انتظار أن أقوم، هل يختبر صبرى؟ كانت تلك القدم لا تفارقنى إلا بالقرب من مديرية الأمن، تدفعنى إلى هناك دفعا، كأن شبين كلها حريق من خلفى ولا مأوى لى إلا هناك. حين دخلت عليه مكتبه وقف فاتحا ذراعيه يرحب بى.

- أهلا بصديقى القديم.

ماذا تريد منى يا باشا؟!

الفصل العاشر

في القاعة الصغيرة بمحكمة شبين الكوم الابتدائية، عند الحادية عشرة صباحا جاءوا لم أحسب أن قليلا من هؤلاء الذين جاءوا يهتمون لأمرى ويريدون أن يعرفوا حكايتى كما دخلت أنا حكاياتهم من قبل وبنيتُ أياما وعادات. جاء ولدا الأستاذ عاطف (رحمة الله عليه) وجلسا من خلفى يتهامسان. أعلم أنهما لا يحبانى، منذ اليوم الذى دخلت فيه مع والدهما أحمل عنه أكياس اللحم والخضراوات ثم جلستُ كما أمرنى ننتظر الغداء فى الصالون ونقرأ من مسرحية الحسين ثائرا (للشرقاوى) أذكر فى صوان العزاء طلب منى أكبرهما أن أجلس بعيدا فلم ألتفت له ووقفت إلى جانبهما أتلقى العزاء فى أبى، لكننى لم أبك أمام أحد. ها هو عادل المصرى؛ ذلك الذى سلمنى مفتاح الجنة يوم أراد أن ينصب على فى

أجرة مدرس مخصوص لابنه فعرّفنى على غادة. ذلك الوسيم صاحب الصوت العبقرى يدخل قاعة المحكمة الآن فى قميص فقير، لقد هدَّه السجن، يخرج من ذقنه الشوك الأبيض وتفوح منه عن بعد رائحة الكحول الرخيص. هذا هو الأستاذ شوقى صاحب مقهى السنترال، وهذا هو الشيخ جلال خادم مسجد سيدى أبى الغار الذى كان يترك لى باب (الميضة) نصف مفتوح، حتى إذا عضنى البرد أهرع إلى سيدى أبى الغار، أنام تحت النعش المنتظر دائما خلف الباب وأسحب على الغطاء الأخضر دخل القاعة سليم الطبال وفى يده الجنية التى شدت الأنظار لسمرتها العذبة وعودها الملفوف. الحق أنهما رغم تأنقهما الزايد لا تحسبهما دائما إلا لصوصا؛ تحيط بهما هالة من الريبة، ذلك بالطبع غير هالة الروعة التى تكتنف جنيّة، إذ تنظر بعين الزهو إلى كل من طالتهم بغوايتها رأيى أن وراءهما حكاية جديدة سأعرفها فور خروجى من المحكمة. قال سليم فى أذنى شيئا عن الفلوس فضحكت له (ربما نحتاجك بعد الجلسة)، فخبط بيمينه على جيبه المنتفخ نظرت إلى جنيّة بعين الغواية وعين العشم التى طالما رمقتنى بهما دون سبب، ثم ارتمت فى حضنى.

- حوش مراتك يا عم سليم.

- يا بنت الملاعين، سيبى الرجل.

ولما رأى عادل المصرى هذه الفرس تخطُر بين يدى الطبال ود لو يسلِّم عليها، لكن سليم أجلسه بدفعة فى صدره. دخل محمود

السبعاوى وعصاه فى يده، يبتسم ويشاور لمن يعرفهم مثل نجم سينمائى، ثم جلس جنبى يمرر يده إلى أحمد الصعيدى، محمود الحما، أحمد عباس، خالد علام، وأخرين. كثيرون حضروا إلى القاعة، حتى ممن لم يرد ذكرهم فى هذا الورق.

أم عصام (عمة زوجتى) ماتت قبل أن أعود من السعودية، لو لم ألتق بهذه المرأة فى صيدلية الدكتور صالح، لما وقفت الآن فى هذه القاعة أنتظر نهاية لعذابى فى السنوات الخمس الماضية. يرحمها الله، أقولها من بين ضرسى، لكننى قررتُ أن أخرج من هذه المحاكمة بغير عداوات، حتى مع الجالسين عن يسارى، أهل زوجتى الناظرين إلى بحنق؛ فلاحين من أعمام زوجتى ووجهاء يتوعدوننى بالثبور الدكتور مصطفى لم يأت، كنت أريد أن أضع عينى فى عينه؛ هذه واحدة من الأشياء التى تحضرتُ لها بالأمس أو ربما قبل ذلك. مكثت شيماء مع بعض عماتها وخالاتها فى سيارة كبيرة أمام المحكمة، ولما رأت فى عينى أننى لن أرجع عما فى رأسى ابتسمت لى فى ود لم أرها عليه من قبل. لماذا جاءت بى شبين إلى هنا؟ شبين تريد أن تحاكمنى أمام أهلها ليشهد الجميع وليسمعوا كلام الخائن عن نفسه، هل سنتحاسب أمام الناس يا شبين، ومن سيتحدث أولا؟ لا القاضى الذى دخل لتوه ولا المحامى يعرفان شيئا، الآن أعرف جرمى، أعرف أنه ليس للصعلوك أن يضعف بما تحمل من البرد والجوع، وبما عرف الناس أكثر من غيره. ولكن من جاء بفهد الكاشف إلى شبين، أنا أم أنت؟

قام فهد الكاشف من وراء مكتبه يصافحنى وشد على يدى كصديق، ثم أخذنى إلى الأنتريه المكسو بالجلد وطلب لى قهوة. كان لنا أكثر من ثلاثة شهور لم نلتق ولكننى لم أجد فيه فتورا، فقد حاول الباشا أن يبدو ودودا، كان يربت على فخذى ويسأل عن سبب غيبتى.

- أنا دائما أسأل عنك.

- من تسألُ؟

خالد علام، من غيره؟

ما الذى جاء بى إلى هنا؟ هذا الرجل بحره غويط، سأنصرف بعد فنجان القهوة، ولكن ماذا سأخبره عن سبب زيارتى له فى مديرية الأمن.

كنت أعرف أنك ستأتى.

كيف تعرف؟

خطف الباشا ضحكة واثقة وربت على فخذى بتودد أكثر وقال (المثقفون مملوءون بالوساوس). كانت هذه هى اللحظة المناسبة لكى أصارحه فيعرف على الأقل أننى لست غبيا

- ليست وساوس يا باشا، هناك من يراقبنى.

- ورأيت أحدا؟

- رأيت كلبا

انفطرت بعد ذلك فى وابل من الجمل غليظة النطق للدفاع عن نفسى أمام نظراته الحادة، كان مصراً على النظر فى عينى وأنا أتكلم

ولا يجفل أبدا (أنا لا أعرف ما يريده أي واحد مني، ما الذى تريد مني يا باشا؟ أنا لست نصابا ولا دخل لي بما حدث في المرتين السابقتين. أحلف لك يا باشا على المصحف والإنجيل إني برىء تماما كما أني يا باشا لن أنفعك في الأمور الأخرى)

- أية أمور؟

(أنا يا باشا لا أصلح أن أكون مخبرا، صدقني أولئك ناس لهم أن يختبئوا خلف الهواء، أما أنا فمفضوح، سيعرف أي عيل صغير أنني أراقبه. ما تزعلش مني يا باشا)

في صلب الموضوع مباشرة.

- لهذا جئت

- أكيد، ولكن ليس الآن ولا هنا

في شرفة نادى الموظفين المُطلة على شارع البحر، وتكشف حديقة المنتزه من جانبها الأيسر، وشارع (عمر) من الخلف، جلسنا على طاولة بعيدة عن الأنظار، كان هناك غداء لشخصين كما أمر الباشا بالتليفون. كنت شاردا وعيني على عصر ذلك اليوم المُبشر بمطر يغسل هواء شبين من تراب الصيف الفائت.

كُلْ.

أنا آكُل؟!

صدقني سنخرج من هذا اللقاء وكلانا مطمئن للأخر

- يا ريت يا باشا.

مضغنا مع الغداء كلاما كثيرا ، كعادة الباشا حين يكون مزاجه رائقا تكلم عن طفولته وشبابه كما لو كانت ترتيبات فوق العادة من يد القدر لصنع أشخاص مثله (من صغرى وأنا أُميز الكذب ببساطة تدهش الأخرين ، هذه المهارة ربيتُ نفسى عليها ؛ أعنى لم أتعلمها من أبى ولا تمرنت عليها فى كلية الشرطة . الضابط الحقيقى يولد ضابطًا والخبرة لا تفيد إلا الموهوبين . أنا من النوع الذى يعلم ما هو مجبول عليه ، حتى فى هواياتى ؛ فأنا مثلا لم أمر بمرحلة الشعر بل كتبت القصة مباشرة . وكنت يا صاحبى أميز الكذب بعين قاسية ، حتى قالت أمى وهى تنظر فى عينى مرّة (الله أعلم ، ولكن هذا الولد له حدقتين فى كل عين) لكنَّ أبى الحكيم عرف كيف يستعملها أرسلنى أبى وراء الديون أجمعها وهو على يقين أننى سأعود بها ، لم أكن أبذل جهدا ، فقط أضع عينى على عين الرجل وأتركه لمخاوفه تأتى عليه ، أقول ببساطة (لنا مبلغ كذا عندك) فيقف الرجل أمامى يشُرُّ عرَقًا مثل الفأر يا صاحبى وقع فى الجردل ؛ يظل يقفز ويحاول الخروج وأنا له بالمرصاد أُطفئ كل كذبة تصعد لعينيه حتى يتعب ، وفى النهاية يدخل بيته أو دُكَّانه ليعود بالمبلغ ، فينظر أبى فى وجهى ويقول (هذه ليست عينا ، إنها ثروة) . لم يلجأ أبى للمحاكم إلا مع الذين لم أفلح معهم وهم قليلون جدا ، كان أبى يقول عنهم (هناك صنف من الناس عيونهم ميتة وهؤلاء لا يتركون لك خيارات كثيرة) ، وكانت عينى عند الناس هى آخر نذير قبل الكارثة فاحترموها رغم سنى الصغير وقفت على قامة أبى فى سن

مبكرة فأوكل لى مزارع الزيتون والنخيل ومستودع الأنابيب وتفرغ هو لمجلس الشعب. لم أكن محاسبا ماهرا ولكن أحدا من المزارعين والعمال لم يجرؤ على الكذب أمامي. لم يشك واحد من أهلى ولا من أهل بلدتى أننى سأكون ضابطًا، حتى إنهم ضيعوا على فرحتى بالبدلة فى أول إجازة مشيت بها بينهم). كان النادل قد انتهى من رفع الأطباق ووضع القهوة أمامنا، مسح الطاولة بعناية من ناحية الباشا، ولما استدار لينصرف فاجأه فهد الكاشف بسؤال على الطريقة البوليسية.

- ماذا تريد؟

- سلامتك يا باشا.

- لا تكذب.

أمسك الولد بالفرصة التى كان ينتظرها وانحنى فى توسلات كثيرة لكى يتوسط الباشا له فى معهد أمناء الشرطة، استند الباشا بظهره للكرسى واستمع للولد إلى أن بدأ فى تكرار توسلاته فاستوقفه وطلب منه أن يمر عليه فى مكتبه فى المديرية، فانصرف الولد وهو يتعثر بفرحته.

ماذا ترى فى الولد؟

- أراك يا باشا، تحول البلد كلها لشرطيين.

كان مفتعلا وهو يضحك على تعليقى بشكلٍ اضطرنى أن أُثبت عينى عليه ليسكت، ولما رأى لعينى عليه انزعج، فانسحبت بابتسامة مثل لوح الخشب المكسور سألنى عن خالد علام الذى كان

قد انقطع عن زيارته منذ فترة. خالد علام، كما يعرف كثيرون من مجموعتنا، إما أن يميل بقلبه جملة أو ينصرف جملة، وطالما قد انقطع عن زيارة الباشا فالأكيد لدى من يعرفونه أنه لن يعود لذلك. كنت أعرف ذلك ولكننى قلت (ربما كان مشغولاً) فقال لى ببساطة (أنت تكذب). تذكُر المرَّة الأولى حين رأيتك؟ أعرف أنك تذكر، كنت واقفا على هذا الرصيف ورفعت لك يدى بالتحية من شباك البوكس. ليتنا لم نلتقِ ذلك اليوم، أقول هذا بصدق لأن على أحدنا أن يدفع ضريبة ذلك اللقاء. يومها أمسيت متوترا بلا سبب أعرفه، ورأيتُ كابوسا فى نومى، تعرف ماذا رأيت؟ فقط كان وجهك يقترب منى ببطء. وبقيت على جنبى ساعة أكرر هذا السؤال (ما فى هذا الوجه يجعله كابوسا؟) حتى عرفت الإجابة، إنها عينك، عينك ميتة. وكان أن سألت خالد علام فقال عنك (إنه صعلوك يرزقه الله كما يرزق الطير، يمثِّل ويكتب شعرا رديئا، لكنه ولد طيب يمكن الاعتماد عليه) بعد ذلك تعارفنا وسربت لى حكاية المظاهرة التى سيقوم بها هاشم العدوى بعد عرض مسرحيته لتنتقم من الرجل الذى أهانك أمام الجميع. قلت من فورى (لا يا باشا، لم أكن لأخونه، ظننتُ أنك من أوقعتنى فى فخ الصداقة فقلتُ كلاما لا ينبغى أن أقوله أمام ضابط شرطة، أنت تبالغ فى تقديرى وهذه مصيبة يا باشا) احتد فهد الكاشف كما لم أعرفه من قبل وأشاح بيديه (ولكنى أخرجتك من قضيتين لو تذكر، رفعت مؤخرتك من على خازوقين، وكنت أنتظر منك بعض الوفاء، أن تكون رجلا معى

بالمثل. هناك من لم أُقدم لهم أى معروف وجاءوا لمكتبى يعرضون صداقتهم. فقلتُ بحدة مماثلة.

- ألا يكفيك هؤلاء؟

- لا تتذاكى على يا بن الكلب.

طال أنفى بإصبعه ورأيتُ النادل يراقبنى بعينٍ تبخُ سما فعجبت لذلك الولاء السريع كان المطر فاصلا كئيبا بين كلامنا جعل الناس فى المُنْتَزه يتركون طاولاتهم للشتاء فملأتْنى الوحشة والخوف.

- جئتك بوظيفة لا تحلم بها

- وأنا لن أترك شبين يا باشا

إذا، فأنت لا تترك لى خيارات كثيرة.

لا أعرف إن كان ذلك يحدث فى كل بلاد الله أو يحدث عندنا فى شبين فقط. أقصد فى الصمت حين تصرخ الأشياء من خلفك لتحترز، هناك صمت عندنا فى شبين تتمسك درجات السلم بكاحلك فى طريقك للسابعة صباحا التى اعتدت عليها حتى إنك لن تلحظ ذلك التغير الطفيف؛ هناك صمت، وذلك الصمت هو ما تفزع منه الأشياء. ولكن عثرة السلم ربما لا تكفى وربما تحتاج لصرخة أقوى؛ فها هو سلك الكهرباء يفلت من رباطه ليتقافز الناس فوق بعضهم فى (ميدان عمر) بلا داع، فالسلك الذى سقط هو الطرف الأرضى (هكذا قال المختصون)، الأشياء لا تريد أن تؤذى أحدا ولكن تصرخ بيننا لننتبه، هناك صمت. ذلك المجذوب الذى

يسند ظهره لسور مسجد سيدى خميس لأكثر من عشر سنوات دون أن أراه يلتفتُ ولا حتى ليلتقط النقود التى تُلْقى فى حجرِه، فقط كان يهز رأسه ليجيب على أسئلة فى عالمه الخاص دون أن يسمعه أحد في واحد من تلك الأيام الصامتة قام ذلك المجذوب من مكانه ينزع المسابح الغليظة من حول رقبته ويصرخ فى قلب السوق (جلَّ من جلَ وزلَّ من زَلّ، يا واحد يا الله)، ولَمَّا لم يلتفت إليه أحد حمل على امرأة وقبَّلها على عين زوجها الذى أهلكَه رَكْلا وصفْعا حتى سَكن، فعاد يسند ظهره لظهر سيدى خميس ويهز رأسه الذى ظل يقطر منه الدم. كل ذلك يحدث عندنا؛ طوال ما تمشى تصرخ الأشياء خلفك؛ هناك صمت. لم أكن أتخيل أننى فى يوم من الأيام سأجلس بين أصدقائى أعد عليهم أنفاسهم ولكن ذلك حدث وبالطريقة الأسوأ؛ فقد لاحظت بعد فترة من كتابة التقارير أننى لست مغموما كما ينبغى، وكنت أُعد لساعة الليل التى أكتب فيها كوبا من الشاى. فقدرت أننى لم أعتنق فى حياتى مبادئ بقدر ما تمسكت بسلة من العادات لا تتنافر محتوياتها مثل المبادئ، ويمكن لجسد مثل جسدى أن يحتملها جميعا فيمكننى أن آكل مع أصدقائى فى طبقٍ واحد، وفى الليل أكتب كلامهم بخط جيد، وأحتقر الوشاة الذين عرفتهم وأكره فهد الكاشف بكل نفس فى صدرى.

لم يصعد لمهرجان المسرح عرض واحد من المنوفية، لكن الجميع قرروا أن يسهموا بعرض على هامش المهرجان، فكنت أوافيهم فى

المساء بعد جلسات القراءة، وفي مقهى أبي يوسف كنا نتكلم في أشياء كثيرة، حصيلتها الصمت. قال لي فهد الكاشف (لا أريدك أن تبذل تركيزا أكثر مما كنت تفعل من قبل، أريد أحسن النكات التي تلقونها وأنتم جالسون، لا أريدك أن تكتب لي هذا شيوعي وهذا إخوان، دع ذلك للمتطوعين بالوشاية وهم كثيرون، وإذا تعرفت على واحد من رجالنا فأخبرني حتى نغيره) كيف يبدو أولئك الوشاة؟ مررتُ بعيني على دائرة الجالسين دون أن أهتدي لواحد منهم، وكدتُ أيأس إلى أن لمحت في عين الأستاذ (أحمد درويش) بعضا من كلام فهد الكاشف (ابدأ حديثك معهم بعبارات واسعة تفتح الباب لمواضيع لا تنتهي، وعندما يبدأ أحدهم في الكلام حرك رأسك كالموافق. احتفظ بآرائك الشخصية لنفسك ولا تفكر في السخرية من أحدهم مهما بدا سخيفا أما إذا أخذت واحد منهم الجلالة وتكلم مثل الأنبياء عن حلول جذرية لمشاكل البلد فتبرع له خفية بعين معجبة، ساعتها سيقترب بكرسيه منك ويقول ويلعلع. لا تجلس كالبومة فينتقل إليه صمتك، ولكن ادعمه دائما بحكايات من عندك. إياك إياك أن يبدو عليك الاهتمام الزائد، أو تغضب إن قاطعكما ثالث، خذ هذا الثالث لحديث آخر واترك المواضيع المُعلَّقة تكتمل على راحتها؛ في ساعة، في أسبوع لا تنشغل)، نظرتُ في عين أحمد درويش الرجل الكُبَّارة صاحب الشيبة الأثيرة لنفسي، وبادلني هو نظرة متعجلة في البداية ثم وقف كلانا على عين الآخر (أنت يا أستاذ أحمد؟ لماذا؟)، اعتذر الرجل بالقيام إلى حمَّام قصر

الثقافة لكنه لم يعد من ليلته تلك ونسى على الطاولة كتاب (ملحمة جلجاميش) وجريدة على صفحتها الأولى رجل ذو شوارب يتكلم فى مسألة توريث الحكم.

بالطبع كنت أنتظر العقاب من شبين؛ كأن تنشق الأرض فى شارع مظلم وتبتلعنى، أو يقف على صدرى ميكروباص يكسر الإشارة فى التقاطع عند تمثال السادات المرشوق حديثا فى الميدان وفى يده عصا غليظة. ما حدث أننى مرضت، لم أمرض بالحزن ولا بالوساوس فهذه الأمراض الإنسانية جاءت مع ضياع كل شيء انتفخ بطنى بلا سبب وبلا علاج، لم تفلح معى كل وصفات الدكتور صالح الذى نصحنى أخيرا بالصوم، فكان علاجى أن يعضنى الجوع من قلبى، تماما كأيام الصعلكة الأولى ولكنى كنت أحتمل ذلك، وأحتمل أن أمشى كقاطرة محملة بالخنازير على أن أترك هذه البلدة. شبين هى اليابسة الوحيدة التى أثق فى سمكها والعالم من حولها بحر لا يشغلنى، خاصة أن من عادوا من هذا البحر برهنوا لى على صحة اعتقادى؛ ذاك محمد الحفنى الذى كان قد عاد ليجلس بيننا مغموما، وكلما سأله الجالسون أن يوحد الله ويستعوضه فى الفلوس التى بذلها حتى يعيش فى إيطاليا، كان يتنهد ويحكى عن الموت الذى أفلت منه، بدعوات الوالدين، على السواحل الأوروبية، وعن مهانة الترحيل من ميناء لأخر، فقد بينهم كثيرا من وزنه وكثيرا من روحه التى لم تبك على شيءٍ من قبل. عاد

حفنى ليجدنى قد انتشرت فى الفراغات التى خَلَّفها غيابه وهروب أحمد نعيمة، وأمسيتُ صعلوكا مُتوجا على برد الشوارع وقلوب أصدقائه حتى سليم الطبال، لم يتقبل حفنى ذلك بسهولة لكنه تهيَأ للمنافسة. لف ذراعه فى ذراعى وفى نيته أن يستريح لليلته عندى فى الحجرة التى طالما دفع هو إيجارها نيابة عنى وتصدى مليون مرة لصاحب السكن حتى لا يطردنى منها لم أعرف ما على قوله أو فعله، فلم أكن أستطيع كتابة التقارير لفهد الكاشف ومعى شريك فى الحجرة، كذلك كان القرب من صعلوك ذكى مثل حفنى غاية فى الخطورة، سيفهم كل شيء

لم ينس سليم الطبال أن حفنى هو من دفع له ثلاثة آلاف جنيه فى مستشفى الهلال بطنطا، ولم ينس أن حفنى كان أقرب الناس إليه، فأعد له احتفالا ضيقا فى حجرته. فرشت جنية جلابية نومها على الأرض وفتحت ورقة الكباب وزجاجات البيرة ثم جلست بيننا بحسنها وخفة دمها ونكاتها الخارجة، هذه المرأة لم تعترف بالحياء يوما ولا على سبيل التجمل، فكانت إذا قالت نكتة خارجة أمسكت بأعضائها وتأوهت ومثَّلت بيدها وفعلت كل ما يضعه كاتب بين قوسين للشرح. وسليم كان يبدو سعيدا بأنثاه، وإن نهرها وإن وضع كفه على فمها لتسكُت وإن كشَّر وقال لها يا بنت الملاعين. أتينا على الكباب والبيرة وخاض سليم وحفنى فى ذكريات كثيرة، كان سليم شاحبا من السل وحفنى كان مغموما، وجنية خائفة، وأنا

منتفخا ومهموما، لكننا ضحكنا وتمسَّكْنَا بتلك الليلة كحصن أخير دون مخاوفنا الكثيرة. غمز سليم لجنيَّة لتخرج الحشيشة من صدرها فأخرجتها بيد متباطئة وتوسلت إلى بعينيها الواسعتين ألاَّ أتركَه يدخن فيضيع كل مجهودنا فى العلاج. خطفتُ الحشيشة من بين أصابعهما وأسقطتُها فى جيبى.

- هذه لحفنى، لن يشاركه أحد فيها

وعندما شاء الله لليلة أن تنتهى وكررنا كلامنا بلا ضحك، كبُر على سليم أن يصارح حفنى، فعلى السرير كانت تقبع أنثى بردانة تنتظر رحيل الضيف لتفرد ساقيها الملمومين وراءها، وسليم لم يعد يحتمل السهر ما كان سليم ليخجل من مصارحة حفنى بأى شيء قبل ذلك ولكنه أشار إلى فى غفلة من حفنى أن أقوم به إلى حجرتى. فتظارفت وقلت لسليم (أرنى مؤخرتك)، على الفور رفع سليم جلابيته وأنزل سرواله أثناء ما نقلتُ المضاد الحيوى من العُبوة إلى الحُقنة ووخزته فى إليته بيد خفيفة. على باب حجرتى استأذن حفنى لينصرف، فخبرة الصعلكة تُخبرُك بالأماكن التى لن تستطيع قضاء ليلتك فيها، ترددتُ كثيرا قبل أن أقول (تستطيع قضاء ليلتك هنا)، وحكيت لحفنى سر هذه الصداقة التى ربطتنى بسليم وصاحبته جنيَّة.

(عناد سليم يا حفنى كان أقسى عليه من الدرن الذى أصابه، فلم يتقبل مشاعر الشفقة من أحد وأصر على تدخين الحشيشة فى السيجارة والجوزة والكؤوس، واصل ضرب جِنيَة وطردها كل يوم

لكنها كانت تعود. أحيانا كنت أُخبئها فى حجرتى إلى أن يهدأ، وأعطيتها نسخة من مفتاح حجرتى لتفعل هى فى غيابى. إلى الليلة التى سقط فيها سليم ثانية وكان عليه إما أن يتنازل عن عناده أو يتنازل عن حياته، فأخذ بمشورتى وسمح لجنية أن تُقيم معه فى الحجرة، وهى لم تنس لى هذا الجميل يوما وبدأ يتقبلُنا كشريكين لنا الحق فى تدبر أموره خلال مرضه. لكن كل ما فعلناه أنا وجنيّة لا يساوى شيئا قياسا بالتغير الذى أحدثه لقاء واحد مع الرجل الذى أعمل عنده (الدكتور صالح) وكنت قد كلمته عن سليم كثيراً حمل سليم فى يده صور الأشعة والروشتات القديمة وعلب دواء فارغة وأجلسته على كرسى أمام مكتب الدكتور الذى كان فى صلاته وسليم ظَلّ يراقبه حتى انتهى.

- هذا سليم يا دكتور

فاجَأنا الدكتور بكلام خشن حسن النية ولكن سليم لم يتقبله.

- لماذا تأخرت كل هذه الأسابيع؟ عدو نفسك أنت؟

- الله، بالراحة علينا يا عم ما تخضناش كده.

وقف له سليم دون مساعدتى، وانبرى للدكتور يعرّفه أن الله لم يخلق بعد من يصرخ فى وجه سليم الطبال، ولكن سرعان ما سعل سليم بشدة وجلس مُرغما فطالبنى أن آخُذه من هناك كما جئت به. نظرتُ إلى الدكتور معتذرا فطمأنَنى بتفهمه وطلب منى أن أُخلى بينهما. وقفتُ فى المعمل أحاول التقاط شيء من حديثهما، لكنْ أبداً، وظننت لأكثر من مرّة أن سليم ترك الرجل وقام لولا أننى كنت

أسمع حشرجة مثل البكاء من وقت لأخر، فخرجت برأسي لأرى سليم وهو يبكي ويعض على أصابعه، بكى كالطفل ثم كالمرأة المكلومة، ثم كما لم أعرف أحدا يبكي. ظهرت كرامات الرجل الطيب سريعا على سليم، وخرجنا من عنده وأخونا سليم ما زالت عينه رطبة ورائقة. فكان أن ألقى علبة سجائر عامرة بالحشيشة في النهر ووقف يعاهد الله.

أنا كنت ميتا وهذا الرجل أحياني

سلَّمته من يده لجنيّة وعدت لعملي ظَنًّا مني أن مشاكل سليم قد انتهت. ولكن حين عدت في المساء وصلني صراخ جنية وأنا في الشارع فهرولت إليها لعلمي أنه ما من أحد سيحجز بينهما بعدما تعود الناس على شجارهما المتكرر أول ما رأتني جنية أمسكت ناصيتي وسألتني ماذا فعلت برجلها سليم كان قد جمع عدة الجوزة التي يدخن عليها، وزجاجات الخمر والبيرة وكسرها جميعا، ثم استدار لجنية فحطم حلمها بالبقاء معه.

أنا لن أعيش في الحرام.

(فقلت له)

إذا تزوجها، ليغفر لك الله.

دار سليم في الكلام ولكني ضيَّقت عليه حتى أذعن في النهاية.

- خلاص هاتجوزك يا بنت القحبة، أستغفر الله العظيم.

زغردت جنية وباستني من فمي كهدية غالية جزاء ما فعلت لها، ولما دخلت ترتب لي حجرتي سألتني عما حدث فقلت ببساطة

(ربنا هداه)، فشخرت ولا كأجدع رجل وقالت بلهجتها القريبة من البدوية (هما يومين، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا). وبالفعل لم يعد واحد منهما للحديث عن الزواج، فلقد فُوجئنا بعراقيل كثيرة؛ منها أنهما ساقطان من قيد المجتمع وليس لهما شهادات ميلاد ولا بطاقات شخصية، حتى الزيجات التى عقدتها جنية من قبل كانت تتم بكلمة من كبير عشيرتها لذلك كانت تنفصل عن الزوج حين تقرر هى ذلك بلا مأذون ولا يحزنون، فقط كانت تسرق الذهب وتضعه فى حجر كبير العشيرة ليرد عنها الزوج الذى جاء يطالب بحقه فيها ولا أعلم ما هو المبرر الأخلاقى الذى تذرع به سليم ليبقى الحال كما هى عليه دائما سمع حفنى أطرافًا كثيرة من الحكاية، لم آت فيها بالطبع على ذكر التقارير ولا فهد الكاشف، فقال وهو يقلب بنطلونه وقميصه لينام فيهما (أرى أنك بذلت مجهودا كبيرا لتكسب ثقة هؤلاء الناس، فهم لا يحبون بسهولة. لكنى لا أرتاح لنحولك، ماذا وراءك؟) فقلت (يا حفنى شبين لم تعد لنا كما كانت، ارحل من هنا أنا أنصح لك) فقال (عليك أنت أن تقبل منافسا، ولكن ألم تلاحظ شيئا على شبين؟)

ماذا؟

- هناك صمت.

فى الأيام الأولى لكتابة التقارير، كنت أغلق على نفسى الحجرة من الداخل، لم تكن روحى تحتمل التدخل فى شجار يطرأ بين سليم

وجنية وكثيرا ما كان ذلك يحدث، بل إن حياتهما معا ما كانت إلا شجارا عنيفا يبدر من أتفه الأسباب، ثم من بعدها صُلحٌ وكباب وسرير يرتج طوال الليل مثل الميكروباص في المَطَبَّات. بعد واحدة من هذه المعارك سمعتُ كل كلمة فيها دون أن أتحرك من مكاني، انكفأت على مكتبي وحاولتُ كتابة أول تقرير لم أنتبه أن كل شيء قد هدأ إلا حين سمعت نقرات أظافرها المطلية بالأحمر على باب حجرتي، فقد جاءت لتختبئ عندي إلى حين ينام سليم، فتندفس في حضنه ويلف عليها ذراعه كأنه نائم لا يعي نقرت كثيرا ولم أفتح لها، وسمعت دقات كعبها حائرة بين البابين، وأخيرا نزلت المسكينة تنتظر في الشارع، راقبتها وهي ترفع رأسها إلى شباك حجرتي كأنها طاقة من الرحمة أُوصدت في وجهها، ورأيتها وهي تخلع شبشبها لترد المتحرشين. بعد ساعة كنت قد مزقت ألف ورقة ولم أكتب كلمة واحدة، وعادت المسكينة تنقر من جديد، ومشت كثيرا بين الحجرتين. ترجمت ذلك من دقات كعبها على بلاط الفناء بين حجرتي وحجرة سليم. كنت أسمع دقات كعبها سريعة في البداية كمن حزمت أمرها على ولوج واحدة من الحجرتين ولو عنوة، ثم ترجع الدقات بطيئة متخاذلة كأنها خافتْ أن تُرد، وأخيرا ماتت تلك الدقات كأن الأرض قد شربتها فبحثت عنها بأُذُني ولم أكن وحدي الذى يراقب دقات كعبها، فبعد قليل سمعت باب سليم يفتح وسمعته يقول لها بحنان خشن (تنامين على الأرض؟ ادخلى اتخمدى جُوه). في الصباح خرجتُ للصيدلية

وبذلت مجهوداً حتى لا أُسلم رأسى لفكرة أننى خائن، ولكن فى غفلة من قدرتى على تناسى الموضوع تبدى لى الأمر مُفاجئا، بل ومروعا بحيث لم يحتمله جسمى فسقطت. أفقت على فتنة الجنيّة الساهرة عند رأسى بالكمادات كما نصحها الدكتور صالح، وانتبهتُ لسليم يصلى قريبا منها، وبرغم مرضى وغياب عقلى كنت واعيا أنه يصلى فى عكس اتجاه القبلة، فابتسمت رغما عنى وحاولت القيام.

لماذا أنا هنا؟

طلبت من جنية أن تساعدنى فى المشى لحجرتى، وكأن سليم قد رفض تلك الفكرة فرفع صوته فى التكبير ولكنى قمت بالفعل وسندتنى جنيّة. أنهى سليم صلاته سريعا ليعاتبنى، فأقنعته أنى سأستريح أكثر فى حجرتى فأذعن وعاد لصلاته، نبهته بعد أن دخل فى صلاته إلى اتجاه القبلة فاستدار إلى اتجاه آخر خاطئ فضحكت ضحكة آلَمتنى.

عند الظهيرة كانت الصيدلية هادئة تماما فجهزت لنفسى كوبا من خلطة الأعشاب وجلستُ أراقب الشارع أمام كلية التربية. خلطة الأعشاب فى يدى مرّةٌ لكنى كنت أخفف بها وجع بطنى، والدكتور صالح وراء مكتبه كان فاترا عن العمل والتركيب، يريد أن يحدثنى لكنه يتراجع فى كل مرة. ليس أمامى سوى الانتظار دخلت الصيدلية وهى تفتح حقيبتها الصغيرة لتخرج الروشتة وثمن الدواء

فلم تنتبه لى، لكنى عرفتها وجهها أحمر مثل الأطفال، سمينة، أسنانها كاملة، وصحتها على ما يرام باستثناء عرجة خفيفة كنت أنا سببها، أو هكذا ظلت تعتقد، أنها سقطت من فوق السلم بسر دعواتى عليها حين أهانتنى هى وابناها وطردونى من حجرتى فى بيتها أم عصام! والله زمان أيتها العجوز

- هات لى يا بنى الروشتة دى.

هاتيها من الإسكندرية.

من أنـ؟

البسى النظارة يا عجوزة.

- هو أنت؟ يخرب بيتك!

التفت الدكتور لحديثنا لحظة ثم تركنا نتبادل السلامات والذكريات. قالت إنها تركت عمارتها فى (العجمى) للولدين وزوجتيهما وعادت لتموت فى شبين، فى البيت الذى كان وجه السعد عليها، أنا أعرف أم عصام وأعرف أنها من الذين يحسنون الادخار ولقد جمعت من دم الطلبة منذ الثمانينيات ما جعلها تشترى قطعة أرض فى العجمى وتبنى عليها عمارة، ولو كنتُ أخمن لقلت إنها تركت شقتها فى العجمى لتؤجرها للمصطافين وعادت لتجمع الفلوس من بيتها هنا

ومن يعيش معك يا عجوز؟

ابنة أخى.

تقصد المرأة التى أصبحت زوجتى فيما بعد (شيماء)، ولما جاءت

على ذكرها أطالت النظر فى وجهى كمن تتعرف على من جديد، وغابت أم عصام فى حسبة عويصة خرجت منها غير راضية، لكنها ابتسمتْ.

- والله زمان يا ولد يا أهبل.

حكت لى عن الروماتيزم الذى طالها من العجمى وأخرجت ورقة مكتوب عليها اسم مرهم كانت ترتاح عليه، فأكدتُ لها أن الشركة لم تعد تُنتجه.

قال لى كده وأنا ماصدقتوش.

من قال لك؟

دكتور قريبى.

كانت تقصد الدكتور مصطفى (خال شيماء)، أخذتها من يدها إلى الدكتور صالح الذى كان يحاول القراءة فى كتاب تذكرة داود الذى أهديته له؛ نسخة قديمة وجدتها عند خالد علام.

خطيبتى يا دكتور (تبرع الدكتور بابتسامة للعجوز ثم أجلسها أمامه)

- احك للدكتور عن وجعك.

واسترسلت العجوز فى وصف وجعها ساعة، والرجل كان يهز رأسه فى ملل ويبتسم، إلى أن دعانى الدكتور وطلب منى أن أُحضر لها تركيبة يعرفها كلانا، كنت سأصفها للعجوز بدون استشارته لولا الخجل منه. دعانى الدكتور أمامها بلقب دكتور، وكررها أكثر من مرّة حتى سألته أم عصام ،

- تقول لمن يا دكتور؟

فأشار إلى بثقة وطيبة جعلتنى أخجل، ثم أضاف.

هذا رجل كيميائى زميلنا، ولولاه على هذه الصيدلية لأقفلناها.

عادت أم عصام تتأملنى باهتمام أكثر وغابت قليلا فى حسبتها العويصة، ثم هزّت رأسها وهى تبتسم بمَكر فلاحة.

- عشت وشفتك دكتور يا ولد

الآن نتزوج، ليس لأهلك عذر

لم تنتظر العجوز حتى أُعد لها التركيبة، وطلبت منى أن أمر عليها فى بيتها فى البر الشرقى لنشرب الشاى سويا، وقبل أن تمشى أسرت لى

- هناك خير ينتظرك يا غلبان. (ثم انصرفت وهى تضحك)

ظل الدكتور مترددا فاقتحمتُ أنا عليه صمته لأطمئن عليه وسألته.

مالك يادكتور؟

- أريد أن أتكلم، هل تحفظ على سرى يا أخى؟

(فى البدء كان الأمر لا يتعدى إشارات، علامات بسيطة، هل تفهم؟ الآن المسألة صريحة بأكثر مما يحتمل واحد مثلى، أنا ضعيف يا أخى، لست كما يظن الناس، هل تفهم؟ هات يدك، أليست هذه يدك، افهمنى أرجوك).

- أفهم ماذا؟

(ما كنت أراه في الحلم شيء وما يحدث الآن شيء أخر، حقيقي ولا يمكن تجاهله. فأسأل نفسي لماذا أنا بالذات؟ هل أستحق ذلك فعلاً؟)

- يا دكتور، قل ما تريده مباشرةً.

- أنا أحاول أن.

- لا تحاول، تكلم ببساطة.

(أنا عندما أكون في صلاتي، أسمع أسمع، حين أقول السلام عليكم، أسمع).

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مشتْ رعشة بين رقبتي وكتفي، لم يكن الدكتور صالح من قالها، فقط كان يحرك شفتيه، لكن الصوت أتى مباغتا من الخلف، فأدرت رأسي ببطء لأجد الأستاذ عرابي يبتسم عند باب الصيدلية.

* *

الأستاذ عرابي رجل طيب من أهل الله، يتبع نفس الطريقة التي كان عليها الشيخ عطا كريم صالح الصالحين، جدُّ الدكتور صالح لأمه. كان يأتي للصيدلية مرة أو مرتين من كل شهر، يتسلم مظروفًا من الدكتور يضعه في جيبه، ويذكِّره بجده وبطاعة الله. كان الدكتور صالح طوال حياته لا يشارك بالحضور مع أهل الطريقة أتباع جدِّه، ولكن يتركهم ينصبون الخيام على أرضه القريبة من مجمع المواقف، والتي كانت بالملايين لو فكر في بيعها، كان يتركها مثل الوقف لأهل طريقة جده، يستخدمونها لجلسات الذكر في العشر

الأواخر والنصف من شعبان والمولد النبوى، ويشارك الدكتور بسهم كبير فى تكاليف كل ذلك. والأستاذ عرابى هو القائم على مصالح الطريقة فى شبين الكوم، يجمع التبرعات من جهات كثيرة ويوزعها بمعرفته، ينصب خيمة الطريقة فى مولد سيدى خميس وسيدى أبى الغار وينسق مع الحكومة أيام وأماكن التجمع. كانت لصالح وعرابى طريقة فى التحية؛ يقبل كل منهما كف الأخر وجبينه ويرددان (اللهم صل على محمد وآله، عدد علوم الله وكما يليق بجماله) فى ذلك اليوم حين وقف الدكتور صالح للرجل، التقطه عرابى فى حضنه وقبَّل كلتا يديه، دون أن يسمح للدكتور صالح أن يقبل كفَّه.

- لماذا لا تتركنى أقبل يدك؟

- وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.

ولما قدمت لهما اليانسون كعادة كل شهر بدا أنهما يخفيان من حديثهما شيئا، وطلب منى الدكتور أن أنصرف لأنه كان فاترا عن العمل ذلك اليوم، فخلعت البالطو وأنا أشعر بالغيظ من هذا الرجل الذى فضله الدكتور على ليطلعه على سره، وسلَّمت لأنصرف، لكن عرابى أمسك على يدى وارتعش كمن أمسك كهرباء وبدا أنه يتألم.

ما لك يا شيخ عرابى؟

لس، لس، لست أنا، إنها يدك تصرخ.

فى ذلك اليوم عرفت أن الدكتور صالح قد خرج من عالمى بلا

رجعة. ليس عالمي وحدى، وإنما عالمه أيضا ؛ المرضى والدواء والتركيب وحلم التآلف. وفكرتُ أن شبين الكوم أصبحت من البجاحة ما يجعلها تفعل أى شيء، أى شيء، حتى ولو فرطت فى هذا النهر

(الأيام القليلة القادمة ستكون شبين الكوم محط أنظار العالم كله، وأنا لا أريد أن أُفَاجأ أريد أن أسمع شبين وهى تتنفس، وهى تُخرِّف فى نومها ؛ حديث المقاهى والأسواق، كلام المثقفين وشطحاتهم. وكل ذلك مخبوء فى عينك التى تشبه القبر، لماذا تعتبر هذا خيانة؟ على العكس، فأنت لست مخبرا، المخبرون يا صاحبى يأخذون الأمور بمحمل شخصى ويجعلون من أيام المراقبة فترات عداوة بينهم وبين الناس. ليس بالضرورة أن يكون الشخص تحت المراقبة سيئا لكن ربما تورط فى أفكار سيئة له أو لغيره، فلو أقرضتنى عينك سنمنع المصيبة قبل أن يفكر بها أصحابها ومن دون أن نؤذى أحدا)

شبين بلدة صغيرة مغلقة على أفراحها وأتراحها، لا تشارك فى أحداث العالم بقليل ولا كثير، رغم أنها عاصمة المحافظة التى صدَّرت من قراها ومدارسها رئيسين لأكبر دولة عربية وإفريقية، وكثيرا من السياسيين الذين يوصفون بالدهاء لكن ذلك ما لا تعرفه شبين عن نفسها ولا يذكر فى أحاديثها إلا على سبيل التندر أما

الصفة الغالبة على أهلها أنهم مفتونون بعادة السلامة. بذلك لا يمكن أن تدخل شبين فى حسابات السياسة إلا إذا تورطت فيها كنتُ أسأل نفسى لماذا تحتاج بلدة صغيرة كشبين لضابط فى ذكاء فهد الكاشف، يهبط عليها فى وظيفة غير معلنة صراحة؛ فكل ما كان يعرفه الناس عنه أنه يتولى إدارة قسم التحقيقات فى مديرية الأمن، التحقيقات مع موظفى الداخلية فى شأن الغياب المتكرر والانقطاع عن العمل وغير ذلك من الأمور الوظيفية التى لا تُعد مهاما شُرطية بالمعنى المتعارف عليه. لكن هذا الفراغ المُوكل إليه يخدم أهدافا أخرى، كان فهد الكاشف من ثُلَة الضباط المُدربين على صناعة الصمت فى مقدمات الأحداث الكبيرة، وفى تلك الفترة كان من المقدرلشبين الصغيرة أن تصبح بوقًا لحَدثين بالغى الأهمية؛ أولهما زيارة الرئيس لكلية الحقوق فى فبراير من ذلك العام لتعديل مادة من الدستور تجعل الرئاسة بالانتخاب. أنا حضرت ذلك اليوم وأذكر أننى لم أستطع شراء خبز ولا سجائر، شىء واحد تستطيع أن تصف به شبين ذلك اليوم.. الصمت. صحيح أن عساكر الأمن المركزى كانوا أكثر من بلاطات الأرصفة التى يقفون بحذائها، لكن لا تصح نسبة ذلك الصمت إلى عصيهم وبنادقهم، إنما هم نزلوا من الحافلات الكبيرة ليقفوا فى ثبات وملل، وبعد قليل صاروا واحدة من تفاصيل ذلك الصمت المُعد له منذ شهور طويلة، شهدت فيها شبين قدوم ضابط طموح إلى مديرية الأمن اسمه فهد الكاشف. وكانت له طريقته فى تهيئة مائدة الصمت لكبار المسئولين، طريقة

تشبه حفلات الزار التى يقنع المشعوذ الناس فيها بأهمية الفراغ للملتفين حوله فيبدأون بالدوران والرقص. بتلك الطريقة كان فهد الكاشف يحرك إصبعه للصعاليك لينتشروا فى المقاهى والأسواق والمواصلات، يتكلمون ويتكلمون فيحدثون ضوضاء عظيمة، تلك الضوضاء بعد أسابيع تتحول إلى عملاق أخرس يتحاشاه الناس ويتركون له المقاهى التى يجلس عليها حتى ينسحب خارج البلد، وحين يرحل العملاق من شبين يخرج الناس من بيوتهم مطمئنين للمدينة وللصمت الطويل. بذلك الخَدر كُنَّا فى شبين نتابع زيارة الرئيس من التليفزيونات مثل غيرنا ونصفق. كنا نحن الصعاليك قوة فهد الكاشف الحقيقية وذراعه الطويلة، الحبال التى يلقيها بين الناس لتصير ثعابين ثم يجمعها متى يشاء، لذلك لم يكن ليترك أحدنا بعيدا عن رقابته. عشَّم الكثير منا بوظائف وهدد أخرين وضيق عليهم حتى اطمأن لقبضته حول رقابهم. الزيارة الثانية للرئيس، التى رشح نفسه فيها للرئاسة من مدرسة المساعى المشكورة، لم أكن حاضر البلد ساعتها، لكنى حضرت مقدماتها وكنتُ واحدا من طابخى الصمت لكبار الزوار لم يكن الكاشف وثناً عليما ولكن جامع معلومات، لا يقرأ خبايا الصدور ذات مرَّة حدَّثَنى عن جنيّة صاحبة سليم، وعرَّفنى أنه يعرف أنها خرجت من عندى فى وقت متأخر بينما رجلها نائم، وابتسم ابتسامة لها معنى، فابتسمتُ له وأنا سعيد بجهله، وقال مرة أخرى (الظاهر أن المخبول صاحبك - صالح وجد وصفات العطارين لا تُدر مالاً بالقدر

الكافى فقرر توسيع نشاطه، وهو الآن يرقص فى الموالد، عينه على فلوس التبرعات) كان فرحي يزداد كلما تأكدتُ من جهله، ليقيني أنه لم يكن إلا وثنا ضعيفا يخاف من الصمت، فيحرص على أن يتحدث الجميع أمام عينه في فوضى وثنية. عندئذ قررتُ أن تكون لي أسرار لا يعرفها، ذلك سلاحي الوحيد.

لم تكن جلسةَ شاى كما اتفقنا ولكن أعدت غداء فاخرا، لم تنفق أم عصام فى حياتها على مائدة بهذا الطول، فقدرتُ أننى جئت في أوان غير مناسب. كانت قد طلبت منى أن ألبس أحسن ملابسى، وأن أحمل معى لفَة (بسيمة) من (صف صف) وستحاسبنى هى عليها، ففعلت وفى نيتى أن لا أسترد ثمنها، ولم تنته من ترحيبها بى حتى رنَّ جرس البيت ودخل جماعة من الفلاحين يلبسون طواقى عالية، صافحونى وشدوا على يدى بحرارة. جلست معهم إلى المائدة العامرة بأطيب الأطعمة وكانوا ينظرون إلي من فوق أطباقهم كأنما حضروا خصيصا لهذا الغرض.

- أنت دكتور؟
- لا، أنا كيميائى.

(التفت السائل إلى أم عصام وقال)

- قلت إنه دكتور

ولما شرحت أم عصام للرجل ولم يفهم تدخلتُ أنا لأزيل عنها الحرج.

- الناس يسمون الكيميائيين إذا اشتغلوا فى الأدوية دكاترة.
- ولكنك لست دكتورا
- لا

فهز رأسه بغير رضا ودس فى فمه جاروفًا من الأرز، وتبادلوا بينهم نظرات يفهمونها، ثم ساد صمتٌ ملَأته أصوات الملاعق المصطكة بالأطباق والأسنان، ومرت أم عصام عليهم بقطع لحم كبيرة لينشغلوا عنى.

وتكسب من شغلانة الصيدلية هذه؟

كان الرجل صاحب الطاقية الطويلة جلفا بالقدر الذى يجعله يلبس طاقية خضراء ثم لا يخجل من نفسه، ومدبا لا يمرر الكلام على عقله، فلما سألَنى عن دخلى لم أفهم الغرض من سؤاله، ونظرتُ لأم عصام التى كان يبدو عليها الحرج من مظهرى ومن أسئلته الكثيرة، لكنها تبتسم للجميع وتحلف عليهم أن يأكلوا فأجبته مُقتضبا أن دخلى يكفينى.

كم؟

كانت الأكلة ثقيلة فارتبكتْ أمعائى كما توقعت، وزاد من ارتباكى نظراتهم التى لا أفهمها، فوضعت ملعقتى واستأذنت صاحبة البيت لدخول الحمام. لدى عودتى وجدت المائدة قد رُفعت وسمعتُ أصواتهم عالية من حجرة الجلوس كانوا مُلتفين حول رجل وجيه يرحبون به، وبدا أن الجميع قد نسى وجودى فى المنزل أصلا، لأننى حين قلت السلام عليكم التفتوا كلهم وتوقفوا عن الكلام.

بذلك تورطت فى السلام على الرجل الوجيه الذى تأخر فى مد يده، ومن خجلى وجدتُ نفسى أسلم على الجميع مرة أخرى. لاحظت بين النساء سيدة لم تكن معنا على المائدة، جاءت مع الرجل الوجيه الذى يقولون له يا دكتور، ربما هى زوجته، وقريبته أيضا لأن ملامحها قريبة منه. كانت حزينة ويبدو من هيئتها أنها تُمارس حدادا يُكَلفها سهرات طويلة فى البكاء، فلما مددتُ لها يدى ولم تقبلها تضاعف إحراجى وجلست، لماذا جلست؟ لأننا مشدودون لمصائرنا بخيوط قوية. بحثت عن أم عصام بعينى لأنصرف، فغمزت لى وجلسنا فى الحجرة المجاورة.

- أنت ملبوخ ليه؟

؟

- اطمئن، ستتزوجها

من؟

التى لم تُسَلِّم عليك.

السيدة الحزينة.

هى أرملة.

الخلافات قديمة بين العائلتين؛ عائلة أم عصام وأخيها صاحب الطاقية الخضراء، وعائلة الدكتور مصطفى الوجيه الذى جلسوا من حوله. منذ اليوم الذى كان فيه الدكتور مصطفى طفلا ورأى أخته زوجة الرجل صاحب الطاقية - حينئذ - تستغيث بالمسلمين والنصارى من زوجها الجلف الذى لا يرحمها، ولا يرحم بكاء

الصغيرة على كتفها فحمل على زوجها وبطحه بقالب طوب. وتربت شيماء مع خالها الأصغر كأخوين ثم زوجها من أعز أصدقائه. لم تمح السنين هذه الإهانة ولا خففت الحقد بين العائلتين، خاصةً أن مصطفى الطفل صار دكتورا كبير المقام يعمل فى بلاد الخواجات، وبنى فى قريته قصرا لإجازاته السنوية التى يصطحب فيها زوجته (الخواجاية) لتتفرج على الفلاحين وتصورهم بالكاميرا، كل ذلك كان يزيد من أحقاد عائلة الأب عليه. ولكن المصالح وحدها جمعتهم كعائلة واحدة. فى عُرف الفلاحين فإن أرملة مثل شيماء فقدت فى الحزن جمالها وعقلها كانت لتعيش فى بيت واحد من أقاربها تخدم الزوجة والعيال والبهائم، وتأكل من فتات البيت دون أن يعترف لها واحد بالفضل ودون أن يناديها الصغار بيا عمتى أو يا خالتى، هكذا حتى تموت. لكن شيماء ورثت عن زوجها ثروة، وعلى ذلك فإن فوجودها فى بيت أحد الأقارب سببه الوحيد هو الطمع فيها كذلك رفض خالها الدكتور كل عروض الزواج التى جاءت من أبناء العائلتين. فما الحل الذى يجعل الدكتور يسافر وهو مطمئن عليها؟ فلتتزوج، ولكن رجلا ضعيفا، رجلا لا أهل له ولا عزوة حتى يحاسبوه ولا يحاسبهم، رجلا تمرس على الجوع سنوات طويلة حتى يقبل ما يوضع أمامه بلا بترٍ على النعمة التى ما كان يحلم بها، رجلا لا يساوى فى سوق الرجال ملَيما فلا يسأل عن جمالها ولا عقلها ولا يتمنى الولد. هكذا فكرتْ أم عصام ودعتنى لأَمُر عليها فى بيتها فى البر الشرقى. أنا مالى وكل ذلك؟ لن أشارك

فى قتل هذه السيدة ولا قتل نفسى، أنا لم أشتك من الجوع لأحد ولن أفعل. لماذا يتآمر الجميع على حريتى بدعوى أنه يعرف مصلحتى أكثر لن أفعل شيئا كهذا إلا منتحرا شيء ما فى هذه المدينة كان فيما سبق يشعرنى بالقوة. فما الذى تغير؟ لماذا يبدو ضعفى جليا الآن، هل فكر واحد منهم أن حياتى هنا كصعلوك تفضل ما يقترحونه على. سأظل أمشى فى هذه المدينة بقميصى السماوى أمثل وأكتب الشعر الردىء وأصنع الدواء للناس بيدى. فهد الكاشف أستطيع أن أخدعه، فعينه التى يتحدث عن معجزاتها غبية مثل كل من يفكر أن صعلوكا يقايض سعادته بشيء. نحن خُلقنا هكذا، لا نتزوج، ولا ندخر، ولا نخاف من أحد.

انتظرتُه من الثامنة صباحا أمام الصيدلية ثم أذَّن الظهر ولم يأت، فمشيت إلى صيدلية الدكتورة (عزة) فى ميدان شرف. الصيدلية كبيرة وملحق بها مخزن للأدوية، لكن برغم مشاغلها الكثيرة لم تكد ترانى حتى تركت كل شيء وأشارت لى لأدخل إليها

- أين هو؟
- جئتُ أسألك عنه.
- لم أره منذ أيام.

تدخل زوجها الذى لم يكن أقل لهفة على سماع أخبار عنه (إنه لا يعرف كيف يدير أموره بنفسه، ربما هو فى خطر). فسكتُ قليلا ثم أمام أعينهم المتوسلة قررتُ أن أصارحهم.

– هناك من رآه يدور فى الموالد

نظر كلاهما للأخر نظرة ذات معنى، لقد سلك صالح طريق جده كما كان متوقعا، ومنذ تلك اللحظة كان على من يحبه أن يتبعه أو يعتاد على غيابه، حين بكت الدكتورة ربت زوجها عليها وحاول أن يطمئنها

ربما كان خيرا، صدقيني.

أما أنا فلم أر في ذلك خيرا، فصالح شيء وجده شيء أخر، فعلى صالح ألا يتكاسل، عليه أن يفتح معى الصيدلية لنعالج الناس، لنبحث عن التآلف الذى حدثنى عنه. حتى وإن كان قد سمع ملائكة في الصلاة فهم لم يأتوه لأنه رجل صالح ولكن لأنه دكتور صالح الذنب ذنبى، أنا الذى تركت له فراغا يتحرك فيه، منذ الآن سأشغله بالمرضى، هناك في شبين من لا ينامون من الألم وآثار العلاج الكيماوى المُعلَّب، سأقف بهم أمامه حتى يقنع أن الله خلقه لهؤلاء، حتى وإن لم يكونوا من المُصلين ولا من الذاكرين في موالد الأولياء. بحثتُ في شبين قرابة شهر ولم أعثر عليه لكنى لم أيأس فقد كنت على علم باقتراب مولد سيدى خميس وأكيد سأجده في خيمة الطريقة.

* *

حرامٌ شفا سقمى لديها،
رضيت ما به قسمت لى في الهوى، ودمى حل
فحالى وإن ساءت فقد حسُنت به،

وما حطَّ قدرى فى هواها به أعلو

أنوارٌ من أول سوق سيدى خميس، معلَّقةٌ عناقيد النور بين العمائر وحتى محطة القطار التى خيم البعض فى حديقتها، أصوات الغناء الصوفى كانت تنداح من الخيام، فى كل خيمة سُكْرٌ يغرى بالدخول. بحثت بعينى فى الزحام عن خيام الشاذلية حتى وجدتها.

أحبةُ قلبى، والمحبة شافعى
لديكم، إذا شئتم بها اتصل الحبلُ
وما الصد إلا الود، ما لم يكن، قلى
وأصعب شىء غير إعراضكم سهلُ

فتشت بعينى بين الجالسين والواقفين، والذين أرهقهم الطواف حول قلوبهم فسقطوا ثم ركنوا رؤوسهم على عماد الخيمة، فلم أعثر عليه.

وما عثرت عين على أثَرى، ولم تدع لى رسما فى الهوى الأعينُ النُجلُ

وإذا أنا أُطيل الطواف بعينى ناولَنى رجلٌ صينية عليها كؤوس لأمر بها على الناس فى الخيمة، فنظرت للناس فرأيتهم عددا لا تكفيه تلك الكؤوس ولما عدت بعينى لم أجد ذلك الرجل الذى

ناولنى الكؤوس. وقفت حائراً بما فى يدى وأصبحتُ أبحث عن من يحمل عنى هذه الصينية بدلاً من أن أبحث عن صالح. وكلما مشيتُ خطوةً تناولت يدٌ منى كأسا، يرفعه الرجل لفمه ثم يضعه فارغًا ويعود لما كان عليه من الترنُّح. بعد قليل استجبت من تلقاء نفسى لإيقاع المكان، رتابة الترنح فى صفين متقابلين فإذا بى أترنح بينهما؛ أستدير ناحية كل صف لأُقدم الكؤوس ثم أميل للصف الأخر فأجمع الفارغة، وحملنى ضوء الثريات الأبيض من فوقى على الاسترخاء ودفعنى صوت المُنشد على الترديد معه.

وما كنت تدرى، قبل يومك ما جرى بأمْسك، أو ما سوف يجرى بغُدوة
فأصبحت ذا علمٍ بأخبارِ من مضى وأسرار من يأتى، مدلاً بخبرة

لماذا أنا هنا؟ عمن أبحث؟ روحى المُصمتة يخترقها الكلام، ليست هذه أول زياراتى لخيمة الحامدية الشاذلية ولكن هذا الصعود جديد على، جديد. اغتنمت الفرصة بكل كيانى ودرت بالكؤوس كحامل التنور ولم أتعثر، عينى على الثريات البيض التى راحت تتسع كأنها نهرٌ وكأنها سماء وكأنها يدٌ تلَقَّتنى ثم تركتنى بسُكرى ودموعى لأهوى بلا صوت. هل يعقل أن الملائكة التى حدثته فى الصلاة كانت تستدرجنى أنا. حين أفقت وجدت رأسى على عمود الخيمة والكؤوس بين يدى لا هى نقصت ولا فرغت. كانت الخيمة هادئة والناس يجلسون فى جماعات صغيرة يأكلون ويتحدثون، وبعضهم كان يدخن. كم مر من الوقت، وأين صالح؟

خبطت على كتفى أصابع أعرفها والتفت لأجد صالح يبتسم.

- نمت كثيرا

نعم.

لم أحدثه فى شيء مما جئتُ من أجله فقد لمستُ فى نفسى عزوفًا عن كل مواضيع الدنيا، وشيء آخر؛ فالذى جالسنى ليلتها ليس من كنتُ أبحث عنه بل رجلٌ آخر، هو الشيخ صالح حفيد العارف بالله عطا كريم صالح الصالحين. كانت الليلة سالمة مغسولة من الدنيا بالثلج والبرد لولا ما طرأ فجأة وحولها إلى جحيم. دخل عرابى الخيمة وفى وجهِه غضبٌ وأسر لصالح بكلمتين فى أذنه، فانتقل لون عرابى إلى بشرة صالح مع السر الذى حدَّثه به، ووقف الأخير منتصبا كأنه رمح مشتعل.

- ألن ينتهوا؟ ليفعل الله ما يشاء.

قفز صالح بخطوته الواسعة خارج الخيمة ولحق به عرابى ثم تبعتهما بخطوات لَينة لم تُفق من سكرها بعد، ورأيت صالح يخترق زحام المولد دون أن يصطدم بأحد ولا بشيء، وخلفه عرابى يزاحم الناس ليلحق به، وكنت أنا أتمايل يحجزنى الناس كلما تقدمتُ فتركت صوتى يسبقنى.

- انتظرنى يا أخى.

حتى وصلتُ لخيمة جلس فى صدرها رجل سودانى يُقبل الناس نعْلَه الذى تركه على خوانٍ صغير ولم أبحث عن صالح لأنه هو الرجل الذى أزاح الزحام عن السودانى وحمل النعل لا ليقبله وإنما

ليهوى به مرات عديدة على رأس الرجل حتى سقط. استوعب الناس الموقف بعد فترة من الدهشة، ثم هجموا على صالح ليفتكوا به، فرميت بنفسى أنا وعرابى نتلقى عنه قليلا من الضرب.

* * *

لم يكن فهد الكاشف فى المديرية فانتظرتّه عند الباب، لم يعد يسمح لى أن أُتلفن له، ولا يعزم على بسيجارة من الصندوق الذى يضعه على مكتبه للضيوف. فقط كان يأخذ من يدى التقرير ويدسه فى (أجلسيه) بنى. هكذا أمسيت مرشداً كعشرات المرشدين فى مكاتب ضباط الشرطة، لم يؤلمنى ذلك بقدر ما وفَر على كلينا كلاما فى الصداقة والفنون والمعايش، فقط أضع الورقة وأنصرف. جربت فى الأيام الأخيرة أن أدس فى التقارير أخبارا عادية تماما وانتظرتُ أن يحدثنى فيها لكنه لم يفعل، مرة بعد مرة ولم يلتفت للتقارير التى كنتُ أكتبها من خيالى لأسماء لا وجود لها هو الذى علَّمنى كيف أخدع أى شخص عما بداخلى، فكان إذا رشقنى بنظرة شك أبتسم. جاء الباشا يمشى بغرور يستحقه، فهو الرجل الذى أَسْكت شبين الكوم وروض مغامريها وصعاليكها. حين رآنى عند بابه ضيَّق عينيه ليستوعب شأنى الضئيل، وقال أهلا ثم أدخلنى بعد أن انتهى من قهوته، كنت فيما سبق أشرب معه قهوته

عندك أخبار؟

- تمام يا باشا، البلد لا تقول شيئا.

- معك تقرير؟

- لم أنته منه، جئت لغرض أخر

؟

الدكتور، أريد أن أراه.

- ده عيِّل تعبان بدماغه.

(هذا البلد مشاكله لا تنتهي. المصيبة أنني خدعت في ابن المجنونة هذا؛ فكرتُ في البداية أنه يبحث عن التبرعات، لكن تبين لي أنه مجذوب ابن مجاذيب. ادخلْ له وحاول أن تعرف لماذا ضرب الرجل بالجزمة. بلد عجيب) حين دخلت الزنزانة وقعت عيني على مجذوب ملابسه مُقطّعة ومتسخة ببقع التراب والدم، شعر لحيته ورأسه ملفوفٌ كالخواتم، فيما بعض الخصلات نافرة ومُتلبدة. بدا أن صالح لم ينتبه لوجودي أنا والشاويش فقد كان مستغرقًا تماما في عالمه، يحاول أن يكتب شيئا بأظافره على الحائط. تمنيت لو كنا أخطأنا في الزنزانة لكن الشاويش هز رأسه ليؤكد أنه هو، ولم أصدق إلا حين التفت لي صالح وهو يبتسم، وانصرف الشاويش وتركنا كما أمره الباشا

ماذا فعلت بنفسك يا أخي؟

- هو من فعل.

- الشاويش؟

ابتسم صالح بوقار المعرفة ففهمتُ أنه يقصد الله، فكل الضمائر في كلامهم عائدة إليه.

- ماذا كنت تكتب؟

- خاطر

- تكتب من دون مساعدتي.

- أنت لم تغب عن بالي، وكنا نتحدث عنك منذ قليل

- تتحدث مع من؟

مع عرابي وأخرين.

لكن الزيارات ممنوعة عنك، أم تقصد أنهم جاءوا ومشوا ولم يرهم واحد من الجيش الرابض أمام المديرية.

أنت لا تُصدِّق.

سامحني، أنا لا أُكذِّبك، ولكني لا أثق في حواسك المنهكة من الضرب والحبس، وبالمناسبة أحب أن أؤكد أنني دخلت من الباب، إن كنت لاحظت ذلك.

لم يتقبل المزاح مني، وهز رأسه بثقة العارف التي كانت تزيد من حنقي عليه ثم قال.

أبلغوني عنك خبرين، أحدهما حسن والأخر سيئ.

كفاني أخبار سيئة، نبأني بالحسن أرجوك

قالوا إنك ستطرق بابا في العشق لم يطرقه أحد قَبلك.

- إن كنت سأَطْرُقُ فقط فذلك هو الخبر السيئ.

فتحتُ كيس الطعام أمامه ومارستُ إلحاحا شديدا حتى بدأ يمضغ بفتور، لاحظتُ أنه كان ينظر لزجاجة الماء، فلما رفعتها إليه ليشرب ردَّها وفهمت من ذلك أنه كان يريد الوضوء. سكبت الماء على رأسه وأعملتُ أصابعي في شعره المتلبد، ثم سويت شعره بالمشط الصغير

- لماذا ضربت الرجل السوداني؟

- الناس يسعون للشرك أكثر مما يسعون على رزقهم. علمنا من شيوخ الطرائق الأخرى أن السوداني هذا يفتن الناس بالسحر ويقول على الله ما لا يعلم، فذهبنا إليه في نُخبة منا كلمناه وحاججناه لكنه لم يرتجع؛ تخيل أنه يطالب مريديه بمُضاعفة الذكر

وما في ذلك؟

يقول إنه يدخر لهم بعض أذكارهم لأوقات الشدة، فإذا علم أن أحدهم في كَرب يخرج له الذكر من حافظة لم يطَّلع الله عليها، فإذا رأى الله الذكر القديم يخجل أن يطيل البلاء على المكروب، وإذا عصاه واحد من المريدين وانشق عليه، فإن السوداني يهب ذكره الذي في الحافظة للطائعين، ويأخذ من ذنوبهم يلقيها على المنشق. يخبر الناس أن الصلاة لا تصح إلا عند صورته؛ لأن الله قال له كما قال لموسى (وألقيت عليك محبة مني) فإذا رأى الله أن العبد يتشفع بحبيبه السوداني تقَبل منه الصلاة، أما إذا جاءت الملائكة لتكتب الصلاة ولم تجد صورته، يسألون الله ماذا يفعلون، فيقول لهم، سبحانه وتعالى عن ذلك، من جافى حبيبي فقد جافاني ردوا عليه صلاته. لذلك يشترى المريدون الصورة الواحدة بمائة جنيه. ولقد وقف يوم المولد يقول للناس الأعاجيب، لقد ادَّعى النبوة تقريبا.

أستغفر الله العظيم.

- «سبحانه وتعالى عما يصفون».
- لكن يا أخى، الناس لن تتوقف عن عبادة الخرافات، أتعرف ماذا يقولون عنك؟ يمشى فى شبين أنك كَفرت بطريقة جدِّك فَهبلك، سامحنى ذلك ما يقولونه، أقصد أنك لست صبورا كالوعّاظ، وليس عندك فصل الخطاب الذى وهبه الله لجدِّك. ذلك السودانى ما كان ليتكلم بهذه الخرافات لو كان رجلٌ مثل جدِّك يجلس بين الناس، فجدك رحمة الله عليه كان موهوبا بالكلمة ولكن أنت.
- ألا تغضب لله؟

يا صالح، البوليس بعد فعلتك أصبح يحرس خيمة السودانى وهم معذورون، فكلام الصوفيين يحتمل تأويلات كثيرة، كان جدُّك رحمه الله يخبط على صدره ويقول هذا بيت الله الحرام، فكيف يفرق البوليس بين الكلامين؟

- البوليس الذى منع أختى من زيارتى، بينما أدخلك أنت.

ماذا تقصد؟

لا تسألنى، اسأل يدك ماذا ستكتب عنى بعد أن تخرج من هنا؟

- لن أسألها لأننى أسمعها الآن، لا تتعجب يا دكتور فبعضنا يملك قدرات خاصة مثل صاحبك عرابى، ولكنى لن أهرِف مثله بالسريانية. يدى تقول لك إنها حين كانت حرة اختارت أن تكتب لك وصفاتك التى يسميها الناس شعوذة، تقول إنها كانت تعبر بك الطريق لتسمعك وأنت تتحدث عن الدواء

والتآلف والناس. يدى هذه هى التى ما زالت تُطَبب سليم الذى توقفت أنت عن علاجه وأمرته بالصلاة فزعزعت ثقته بالله، سليم يسعل طوال الليل يا دكتور، أنا أسمعه، لكنه لا يعلن ذلك. يخشى أن يعترف لنفسه أن الله تركه. يا أخى أنت اخترت الطريق الأسهل.

استدرت غاضبا لأنادى على الشاويش كى يفتح لى الباب لكن صالح استمهلنى.

- ألا تريد أن تعرف الخبر السيئ؟

؟

- قالوا إننا سنفترق.

مشيت وأنا منهك من البحث عن عمل جديد، فى صيدلية أو فى مقهى، أخذتُ وعودا كثيرة لكن أحداً لم يبتسم فى وجهى. أول ما لمستُ حديد كوبرى عمر انقطع التيار الكهربى عن شبين كلها، وتصاعدت صيحات عالية من المقاهى القريبة والكورنيش. نظرتُ خلفى لأجد شارع السوق مظلما تماما، وعلَّق بعض التجار (كلوبات) الغاز أمام محلاتهم خوفًا من السرقة، لكن الظلمة كانت أشد هيمنة على نقاط الضوء المتناثرة. كانت كشافات السيارات فوق الكوبرى مثل أسئلة كثيرة، ماذا يحدث؟ وحين اختفت ملامح البلد أمسكتنى من قلبى فكرة مجنونة؛ مجنونة حتى إن صالح لن يصدق أننى فعلت ذلك. انحنيت على نفسى ثم أخذت نفسا واسعا

يملأ صدرى وذراعى، ثم أغمضت عينى، أغمضتهما تماما، ومشيت فارداً ذراعى بين السيارات التى تصاعدتْ أبواقها اعتراضا على ما فعلت.

- ولد يا بن المجنونة.

هترقص (باليه) يا روح أمك؟

لا شك أننى أعرف هذا البلد أكثر من أى يوم أخر، فلتتغير التفاصيل أو تنمحى، التفاصيل خيانة. تجاهلت الأصوات المُنكرة واستغرقتُ فى الظلمة والصمت ما جعلنى متصلا بحواسى أكثر، ولمست تلك السعادة التى شعرت بها عندما جلست على مقهى أبى يوسف للمرة الأولى، ثم استدعيتُ الموسيقى التى تناسبها وبدأت أرقص.

كفاية نورك يا قمر

هذا بائع القصب يغازل حميدة بياعة الجرايد غزلاً أَبَديا، لم يتجاوز يوما تلك الكلمات التى تعبر الشارع بينهما ليجعلها تبتسم ثم تشيح بوجهها عنه، الآن فى هذه الظلمة لا بد أنها تنتظر عبارات أخرى تأتنس بها أنا الآن عند ميدان (جلْهوم)، رذاذ النافورة يلمس بشرتى ورائحة اللحم المشوى تصلنى من (كباب الجميل)، عشر سنوات أو أكثر فى شبين الكوم ولم أدخل هذا المحل سوى مرَة يتيمة مع حفنى ونعيمة، كنت لأعرف هذا المكان بدون الرذاذ وبدون رائحة الشواء، فقط من إيقاع المكان الذى احتفظ فى ذاكرته بتلك الليلة، دعك من التفاصيل، التفاصيل خيانة، التفاصيل عمى،

يستطيع الناس أن يرفعوا عمارة هنا أو يضعوا قبراً، وليأتوا بألف ضابط من عينة فهد الكاشف، فكلما مررتُ بهذا المكان سأتعرف عليه. وهذه الشوارع لن تنسى طيبة الأستاذ عاطف، ولن تنسى جمال غادة ومشيتها، وإلا عن أى شيء تتحدث الشوارع فيما بينها حين ننام؟ خطوات وأصلُ إلى ناصية الحارة التى أسكن فى بيت منها مع سليم الطبال وجنيَّة، لا تحسب الخطوات. عندما تصل ستعرف. نعم، وأعرف ما كان صاحب السكن ليحدثنى فيه لو لم ينقطع التيار الكهربى؛ كان سيطلب منى أن أترك حجرتى الواسعة ليضع فيها ثلاثة أو أربعة طلاب، فأجيبه بهدوء أننى لن أترك حجرتى ولن أترك شبين. هكذا بلا سبب، لماذا كل شيء له لون ورائحة وله سبب، كل ذلك من التفاصيل، والتفاصيل خيانة. حين وصلت للحجرة التى أسكنها فتحت عينى وأنا غير مصدق روعة الشعور الذى كنت عليه. رأيت خيطًا واهنا من النور ينسلُّ من باب الحجرة على بلاط الفناء، فقدَّرتُ أنها جنيَّة تشاجرت مع سليم فاختبأت عندى ولَمَّا انقطعت الكهرباء أضاءت لمبة الجاز. سآخُذها من يدها وأصالحها على سليم ونسهر معا هذه الليلة، لا وقت للتفاصيل، التفاصيل عمى. ولكن لدهشتى خرجت جنيَّة من حجرة سليم وفى يدها شمعة.

- من فى الحجرة؟
- حفنى، أعطيته المفتاح.
- يا نهار أسود.

دفعتُ الباب لأجد حفنى يتصفح ورقات التقرير الذى كنت سأقدمه من غدى لفهد الكاشف، رفع حفنى الورق بإصبعين وحركه أمام عينى.

- انتظر يا حفنى، أنت لا تفهم.

- حين نعود من بنى سويف، تكون أنت غادرت شبين، وإلا سأخبر الجميع بحقيقتك.

كانت المهلة التى حددها لى حفنى لأترك شبين لا تكفى لشيء، ولكنى ما كنتُ لأغامر بتحدى صعلوك قديم مثل حفنى، فهو ببساطة يستطيع أن يجعلنى أمشى كالمجزوم بين الناس بلا أصدقاء وبلا سمعة. أمسيت مطرودا من شبين بلا أمل فى العودة، وقد قلت لأم عصام أننى لن أعود لبيتها إلا منتحرا، وقد عدتُ. فى تلك المرة لم تستدعِ أم عصام واحدا من الفلاحين، ولكن استدعت الرجل الوجيه فقط، الدكتور (مصطفى) خال (شيماء)، التى هى زوجتى منذ تلك اللحظة. تمَّ كل شيء بسرعة وبدون منطقٍ تماما مثل هلاوس الحلم. فإذا أنا أجلس فى انتظار العروسة التى ألبسوها فستانا ضيقًا ليبدى مفاتنها الضامرة، ووضعوا على وجهها المساحيق ليخدعونى عن ذلك الحزن الواضح، هذه السيدة مسكينة مثلى. وكما يتطور الحلم فى كل اتجاه جلست تحدثنى عن زوجها المُتوفى، وأنا حدثتُها عن شبين وغادة، وكانوا يراقبوننا فتهيأ لهم أننا فى غاية الانسجام، برغم أن أحدنا لم يسأل الأخر عن اسمه

وكلما دخلت أم عصام (بالجاتوه) والعصاير أفزعتنا بزغاريدها التى كانت تشبه نواح امرأة مجنونة فى حلم. ولم تمض لحظة حتى وجدتُ نفسى فى حجرة أخرى مع الرجل الوجيه، يُكلمنى بعشم زائد كأننا لم نتعارف قبل دقائق (أنا خالك، عليك أن تنادينى بيا خال) دكتور آخر مثل صالح يعمل فى الأدوية ولكنه لا يعرف عن الدواء ما يعرفه صالح، هذا الرجل يعرف الأرقام أكثر، مدير كبير فى شركة دواء عالمية، حين حدثته عن وصفات صالح قال (لا تذكر شيئا من ذلك فى المقابلة التى ستجريها فى فندق شيراتون القاهرة، عليك فقط أن تكون فى غاية الشياكة، أما ما يتعلق بالشغل فسأُعلِّمك بنفسى كل شيء، السلعة الأفضل ليست ما تحتوى على مركبات أفضل من غيرها، ولكن هى التى تستطيع إقناع الناس بها أكثر، أنت تعمل فى صيدلية وتعلم أن أغلب العُلَب تحتوى نفس المركبات تقريبا، ولكن ما الذى يجعل سعر واحدة عشرين دولارا، والأخرى عشرة، الفرق أن العلبة الرخيصة ليس وراءها جيش من مندوبى الدعاية ليقنع الناس بها، أنت لن تصنع الدواء بيديك فهذا هو الجزء الأسهل، ولكنك ستتحدث عنه). وتصاعد الحلم مرَّةً أخرى فإذا الجدار الذى كنتُ أنظر إليها منذ لحظة معلَّق عليه الزينة، والفلاحون أصحاب الطواقى الطويلة يُقبلوننى من صدغى ويقبلون شيماء التى غيرت فستانها وتسريحة شعرها ووضعت على وجهها مساحيق أكثر، دون أن يختفى الحزن. لم أُمسك يدها كنوع من المداعبة، لكنى أردت منها أن تشرح لى ما كان يحدث،

ولكنهم ما إن رأوا ذلك حتى تمادوا فى مزاحهم الفج (انتظر يا عريس)، (مش قدامنا كده)، وزغاريد، زغاريد، ماذا يحدث؟ ومتى يحدث كل ما يحدث؟ الجميع يؤكدون أننى سعيد بذلك وأنه مرت أيام كثيرة منذ أن هددنى حفنى بالفضيحة إن لم أرحل وجاءت اللحظة التى ستفصل بين الحلم والحقيقة، صعدت بنا أم عصام لشقة العرس التى كنت أسكن حجرة منها وأنا طالب، لكن الشقة كانت قد طُليت ووضعوا فيها أثاثًا من النوع الذى يعيش عليه الأغنياء، وجاءت بطعام العرس ثم همست لى (خذها بالراحة، لا تتعجل)، ولم أتعجل لكن المسكينة هى التى أفاقت من الحلم قبلى ولم تكد أم عصام تغلق الباب علينا حتى صرخت شيماء وغابت فى نوبة صرع طويلة. قال مصطفى (ذلك يحدث، صدقنى، المهم أن تُتم أنت أوراقك لكى تسافر، وسنلحق بك) من سيسافر؟ إنه أنا لم يكن شيء من ذلك حُلما، بل حقيقة كابوسية مشيت إليها مرغما كأننى أتحرك بملء إرادتى. أنا النملة فى كيس السكر فى اليوم التالى تسللت من الشقة المليئة بالرياش الفاخرة، وفتحتُ الباب دون أن تشعر بى أم عصام. أول ما لمس الهواء وجهى عطست ثم دمعت عينى وأنا أرى بيوت شبين ونهرها والناس، كم ليلة مرت منذ أن تحدثت مع حفنى؟ لا يهم، لا بد أنهم عادوا من مهرجان المسرح فى بنى سويف وعندهم حكايات جديدة، لا يمكن أن يكون حفنى قد قال شيئا عن التقارير فهو ليس بهذه القسوة، سأعتذر له على جنب وأَعدُه أن ذلك لن يتكرر، وهو لن يتكرر فلو علم فهد الكاشف أن

حفنى قرأ التقارير لن يستخدمنى بعد ذلك، لقد كان ذلك فى صالحى، كم أنا غبى؛ لو كنت أخبرتُ حفنى من البداية كنا سنصنع ذلك كأنها مسرحية صغيرة، كأنه قرأ الورق فى غفلة منى، وبعدها كنا سنضحك على ذلك المغرور الذى فكر أن يسلب واحداً من الصعاليك حريته، لا يمكن أن يقول حفنى شيئا ولا يمكن أن يجبرنى على ترك هذا البلد، لقد كان غاضبا فحسب. لكننى ورطت نفسى فى زيجة وإيصالات أمانة؟ ملعون أبو كل ذلك، بعد أن يسامحنى حفنى ويسامحونى كلهم سأذهب فى نفرٍ منهم لبيت أم عصام، سأترك أحمد الصعيدى يتحدث إليهم، فهو قادر على إقناع الحَجر وبعدها لا شىء سيحول بينى وبين هذا البلد.

* *

كانت الأفكار المتدافعة فى رأسى تجعلنى أُسرع فى مشيى فوصلت إلى مقهى أبى يوسف وأنا بالكاد أبلع أنفاسى. وحين وصلتُ كانت كراسى مقهى أبى يوسف مرصوصة مثل اليوم الذى توفى فيه الأستاذ عاطف. من فعلها؟ قاموا من على كراسيهم واستقبلونى بأحضان تهتز من البكاء، أرجوكم قولوا من تركنا فالتخمين يضاعف المصيبة على قلبى، ونظرت إلى الصورتين اللتين وضع أبو يوسف عليهما شارتى الحداد فوجدتُ إحديهما صورة لحفنى والثانية لأستاذنا (حسنى أبو جويلة) سقطت على أقرب كرسى دون رحمة من وعيى الغليظ، فلم أمت ولم يغش على،

بقسوة بالغة من حواسى المتمسكة بالوعى سمعتُ أحمد عباس وهو يتحدث عن محْرَقَة.

(كان العرض لفرقة من الإسكندرية فاجتمع له ناس كثيرون من محبى المسرح، وكان حفنى يجلس لجانبى، أما الأستاذ حسنى فكان واحدا من أعضاء لجنة التحكيم، وأُطفأتْ أنوار الصالة وبدأ العرض بموسيقى حالمة جعلتنا نسترخى، ومرَّت على خشبة المسرح إضاءات جعلت الممثلين يبدون كالملائكة. فى البداية كان الدخان يتآلف مع الضوء الأزرق فَظَنَّنا أن ذلك كان من تقنيات المُخرج، لكن فجأة وقف المخرج نفسه يعلن فى الصالة أن هناك حريقا، وصرخ الممثلون والناس فى الصالة وتسارعنا فى فوضى إلى أبواب المسرح التى اكتشفنا أنها كانت مغلقة علينا من الخارج. أنا وحفنى كمسرحيين اتجهنا إلى الكواليس لعلمنا بوجود مخرجٍ هناك، ولكنهم كانوا قد أغلقوه علينا أيضا الأمن أغلق علينا الأبواب وتركونا نحترق دون أن يسمعوا لصرخاتنا المتصاعدة من الداخل وطَرقَاتنا المستغيثة على الأبواب، أمسكت النار بكل شىء وصارت هى الحقيقة الوحيدة أمام الناس الذين داسوا على بعضهم من الخوف، وبحثت عن حفنى فلم أجده. لم يكن ثمة إنذار ولا طفايات حريق ولا أحدٌ يسمع، فأتت النار على أكثرنا. حتى جاء واحد من الأمن بالصدفة وسمع الطرقات ففتح الباب الذى خرجتُ أنا منه، وحين أفقت من ذهولى سألتُ عن حفنى وحُسنى، فوجدتُ الأخير يسرع بالخروج وقد

طالتْهُ النار، فالتقطتُهُ وبحثنا عن سيارة تحملنا للمستشفى بين هذه الفوضى فلم نجد، وأسرع هو يتعلَق بسيارة هاربة من ذلك الجحيم، تشبث فيها بذراعه السليم إلى أن سقط. أما حفنى فقد تعرفت على ما تبقى منه)

* *

عند منتصف الليل رفض الجالسون فى المقهى الذهاب لبيوتهم بكل ذلك الحزن، فانتقل الموكب بحزنه إلى منزل محمود السبعاوى، الذى كان قد كتب فى ساعتين نصا مسرحيا يصف الحادثة، وأصر على عرضه ولو فى الشارع. رفض السبعاوى أن يختزل كل ذلك الحزن فى البكاء فقط. وبعد كثير من المُشادات بينه وبين الأصوات التى رفضت القراءة لعدم مراعاة السبعاوى للتوقيت انتصر رأى السبعاوى فى النهاية، وشرع يوزِّع على الجالسين أدوارهم فأعطانى شخصية حفنى لأقرأها كانت تلك هى أول بطولة ألعبها منذ عرفت كل هؤلاء الجالسين، ولكننى رفضت. فقد استقرت عندى قناعة واحدة أننى لن أبقى فى هذه المدينة القاسية بعد الآن. هآنذا مهزوم وبلا أهلٍ أكثر من اليوم الذى أتيت فيه أحمل حقيبتى الفقيرة. لقد أخذتْ شبين كل شيء؛ العمر والحبيبة والأصحاب والكرامة. بعد القراءة انتفخت فكرة العرض المسرحى لتصبح مظَاهرة يشارك فيها كل الناس. واقترح خالد علام أن يشارك فى المظاهرة عمال مصنع الغزل الذين بدأ المالك الجديد فى تسريحهم من العمل، وانتفختْ الفكرة أكثر فصارت مظاهرة

يشارك فيها كل أهل شبين. وعلى ذكر المظاهرات تذكرت فهد الكاشف وبحثتُ عن عيونه المُندسَّة بيننا (محمد غالى)، صعلوكٌ صغير تخرج لتوه من كلية الحقوق. جلس غالى يشارك باقتراحاته فأخذتُه من بين الجالسين إلى الحجرة الخالية من الناس.

- أنت لن تخبره بذلك.

- من؟

- لا تتذاكى، من حق هؤلاء أن يغضبوا

حاول أن يتركنى لكننى شددتُ على ذراعه فلم يستطع التملص من قبضتى، وهددتُه أن أفضحه.

سأخبرهم.

- اللى بيته من قزاز يا صاحبى.

- ليَكُن، سأخبرهم عنى وعنك.

الآن ستنصرف، اعتذر للسبعاوى بأى شيء.

كان من حق هذه الكلمات أن تلمسنى قبل محمد غالى وقبل أى شخص أخر، لكنها لم تفعل، بل إن هذه اللحظة تحديدا هى تاريخ ومحل ميلاد الخيانة التى لم يُجبرنى عليها أحد، هبطت على صدرى كالحكمة الباردة فأطفأت حريق بنى سويف، ووسعت عينى لأنظر للجالسين بين يدى باحتقار. من هؤلاء؟ لماذا يصر السبعاوى على هذه الطاقية التى تجعله كالمهرجين، ومن هذا ومن ذاك، مسرحية! يادى الخيبة. سهرتُ معهم حتى ناموا على كراسيهم، ثم فتحت

الباب عائدا للشقة الفاخرة فى البر الشرقى، حين أحسست بى أم عصام أضاءت لى لَمبة السلم.

- ظننتك هربت

أين الحبوب التى تجعلك تنامين، كثيراً

* * *

فى الليلة السابقة لسفرى جلست وحدى فى الشقة الغالية الأثاث، وأحكمتُ كل النوافذ فلا يأتينى صوتٌ من ورائها، لا أريد أن أعرف عن شبين أى شيء. حقيبتى مملوءة بملابس جديدة وجواز سفرى من فوقها، لا أحد كان يشاركنى ذلك الانتظار؛ وحدها دقات الساعة كانت تجأر فى وجهى (صمت..صمت صمت). عرفت أننى لن أنام فى تلك الليلة فملأتُ كوب شاى كبير وجلستُ أُمرر إصبعى على حلقة الكوب (صمت. صمت..صمت) كثيف ومضجر مرت فى كثافة ذلك الصمت صرخة حادة سقطت أمامى كالنيزك، من كان يصرخ؟ فتحتُ النوافذ لكنى لم أر ولم أسمع أحدا، كانت الصرخة تعود أقوى كلما أغلقتُ النافذة وجلستُ. خطَر لى أن أنزل إلى أم عصام فأوقظها لكن الصرخات المتتابعة لم تُمهِلْنى، وتأكد لى بعد فترة أن شبين لم تكن وراء النافذة، إنها معى فى الداخل ومن حولِنا حوائط سميكة ونوافذ مغلقة والصمت. صمت. لم أصدق صالح حين أخبرنى أنهم ينفذون له من حوائط السجن، وقد كان يتحدث عن رجلين أو ثلاثة على الأكثر، فمن كان ليصدقنى إن قلتُ أسمع وأرى عن كثب كل شيء نعلٌ غليظ يقطع

الحجرة جيئة وذهابا ؛ إنه فهد الكاشف فى مكتبه بالمديرية يكاد يجن من الغيظ ، علم من المرشدين أن هناك تظاهرة ستحدث لكنه لم يعرف الوقت ولا المكان الذى ستحدث فيه ، بل إنه لم يكن يعرف مكان السبعاوى وخالد علام ، فقد اختبأوا فى مكان لا تصل إليه العفاريت . لم يكن فهد الكاشف ليسمح بحدوث ذلك ، ولم يتبق إلا أسابيع قليلة على زيارة السيد الرئيس ليعلن ترشيحه لنفسه من هذا البلد . وقف أمام فهد الكاشف جيش من الصعاليك وأمرهم أن يفتشوا عنهم تحت الأرض لو أمكن ، وضرب بكفه على سطح المكتب ، صمت . صمت . أعرف هذه الظُلمة وتلك القَدم المُتَسللة ؛ هذا فوزى نصار يمشى لباب الحجرة التى كنتُ أسكن فيها عنده ، ويجرب مفاتيح كثيرة تفُض القفل ، لكن صوت أنفاسه والمفاتيح المُصطكة توقظان جنيَّة التى تُوقظ سليم لينظر معها ما يحدث ، فيخرج سليم لفوزى نصار الذى يسقط المفاتيح من يديه ، صمت . .صمت . خالد علام يجلس فى بيت من شبين لم أدخله من قبل ومعه أُناسٌ لا أعرف أكثرهم . هؤلاء هم المسرحيون الذين جاءوا من بلاد كثيرة ليشاركوا فى تظَاهُرة شبين . عرف خالد علام أن أول شىء سيفعله الكاشف أن يضع رؤوس المظاهرة فى حبس المديرية قبل الميعاد بيوم أو يومين حتى تموت الفكرة من تلقاء نفسها فأخفى خالد عن الجميع موعد التظاهرة واستقبل المسرحيين فُرَادى فى بيت يقع وراء الغيطان ، تُرى أين يكون ذلك البيت؟ صمت . .صمت . أقدامٌ نحيلة لا تكاد تلمس الأرض وهى تمشى مثل

أفراخ الماء على النهر إنهم الصعاليك، كانوا يذرعون البلد بحثا عن خالد والسبعاوى، اقتربوا، اقتربوا، اقتربوا، فقط لم يصدقوا أن ذلك المكان المُوحش قد دخله إنسى منذ وقت بعيد. صمت. صمت. تلك الخطوات لم تعد تفتش عن خالد، إنها تفتش عن شخصٍ أخر، تقترب منى. فتحت النافذة فرآنى أحدهم وفَر لن يقنع فهد الكاشف بنصف خيانة، يريد منى خيانة كاملة. خطفتُ جواز السفر والنقود وخرجتُ للشارع كى أختبئ، كلما جريت إلى شارع رأيت عند بابه عيونا تلمع وسمعتُ أنفاسا تقترب.. تقترب. أمسكنى (عبيد) المخبر من ذراعى وابتسم. دخلتُ إلى مكتب فهد الكاشف وأنا أصرخ بجملة واحدة (لن أقول كلمة، لقد أحرقتمونا) أطفأ الباشا التليفزيون، وتقدم ناحيتى ثم قال بسعادة (أنت تكذب)

(منذ شهور، حين أرسلت المخبرين يراقبونك، كنت تُفلت منهم بسهولة، وكانوا يعودون بخيبتهم يحدثوننى أنك تعمل مع رجل صاحب كرامات ويبالغون في تقديرك "إنه يا بيه لا يمشى على الأرض هذا الولد يطير وكنتُ اقتربت من تصديقهم لولا ما عاودنى الحلم ثانية، ورأيت وجهك يقترب. عندئذ صرخت فيهم يا أغبياء لا تراقبوه من الخلف، ابحثوا فى المدينة عن عين ميتة تمشى بين الناس، لم يفهموا كلامى فى البداية، لكن أصبح من اليسير عليهم مراقبتك بعد ذلك، لأنهم حفظوا عاداتك المملة. حينئذ فهموا ما كنتُ أقوله؛ عين ميتة لا تبحث عن جديد وليس

لديها ما تخاف عليه. لكن الآن، انظر لعينيك، أنت تخاف وتكذب. صدقنى يا صاحبى ستخبرنى بكل شيء ولكنك لن تجعل ذلك يأتي من الطريق الأسهل). وأشار للمخبرين الذين طوقونى من كل جهة حتى سقطت من الضرب. فى السادسة صباحا كنت أركب معهم سيارة البوكس وأشير بإصبعى إلى خالد علام الذى سقط من يده الخبز وحاول الفرار دون جدوى.

خاتمة

وقف المحاميان يتنازعان كثيرا وقدم كل منهما أوراقه التى يبدو أن القاضى لم يصدق واحدة منها، وقبل أن يقول بالتأجيل طلب منهما أن يقتربا منه. أين خالد علام؟ كان منذ لحظات يجلس جنبى فى قاعة المحكمة يستمع مثلى ويشد على يدى لأهدأ لو صح ظنى فإن خالد علام الآن فى طريقه لمصنع الغزل ليشارك فى الاعتصام الذى سيقوم به العمال فى ساحة المصنع ضد المستثمر الهندى الذى سرح بعضهم واقتطع من رواتب البعض. ذهب خالد ليؤازرهم كما فعل منذ خمس سنوات قبل أن أشى أنا بالجميع. لماذا ذهب خالد رغم علمه مقدما بفشل ما هو مقدم عليه؟ عندنا فى شبين الكوم السنين والخبرات لا تجعلنا أكثر حذرا، بل على العكس تجعلنا أقل ندما على الأخطاء التى ارتكبناها لنعيش هادئين فى هذا البلد الذى

يستقبل كل الأحداث ببراءة التخمين الأول. أخلينا قاعة المحكمة بعد أن قال القاضى بالتأجيل، وأمسكنى المحامى من ذراعى ليخبرنى أن القاضى طلب منهما تسوية المسألة وديا لصالح الطرفين، لكن المحامى عاد وأخبرنى أنه يستطيع أن يمشى بهذه القضية سنين طويلة دون أن يمَكن أقارب زوجتى من شيء. فقلت من فورى.

أريد أن أنام هذه الليلة.

- إذًا ستغرم آلافًا كثيرة.

هذا كل شيء؟

نعم، ولكنك تتعجل.

- أنا فى انتظار تليفونك، لن أنام قبل أن أعرف أنك أنهيت كل شيء.

تركنى المحامى وتوجه إلى زميله الذى كان يقف مع خصومى، وكان الدكتور مصطفى قد حضر لتوه فوقف يستمع، وحين أخبرهم المحامى بالكلام الذى قلته علت أصواتهم، وأشاحوا بأيديهم ناحيتى. لكنى فى النهاية سمعتُ كلمة أراحتنى، قال الدكتور مصطفى وقد بدا عليه التعب مثلى وأكثر

- لننته من هذا الموضوع الليلة.

خلعت الكرافتة بيد قوية ومشيت إلى الناس الذين جاءوا من أجلى، كلهم يسألون. ماذا حدث؟ ماذا سيحدث؟ فكررتُ كلمة الدكتور مصطفى ومشيت معهم. كنت فى عجلة من أمرى فهناك حدث مهم فى شبين؛ عالية الباشا ماتت عند الفجر وقفت

المسكينة على باب بيتها وهى تلبس واحدا من فساتينها ذات الذيل الطويل، وتنادى على المارة.

- سنسهر سويا يا باشا.

تجاوز عمرها المائة عام، لكن أحدًا لا يعلم عمرها ولا ديانتها، فاحتار الناس حين سقطت فى الشارع ماذا يقرأون عليها، وأين يدفنون جثمانها؟ فى شبين كلها واحد فقط كان يعرف عنها كل شيء، إنه أنا. هرولتُ من باب المحكمة لألحق بالجنازة التى لم يمش فيها سوى نفر قليل. كان حاملو النعش يتوقفون عند أماكن كثيرة من التعب، فجثمان العجوز لم يشأ التوجه إلى المقابر إلا بعد أن داروا بها فى شبين شارعا شارعا، المسكينة أرادت أن ترقص رقصتها الأخيرة للباشا، ليبرم لها شنباته فى إعجاب، أتعبت من يحملونها فجلسوا منهكين عند كوبرى عمر النعش كان يقفل الطريق فصرخت السيارات فى فوضى أزعجت النهر الحق أنه لم تكن السيارات وحدها هى التى صنعت الفوضى، بل وعجائز تخطين الثمانين عاما ممن لهن ثأر عند عالية التى خطفت منهن أزواجا وأبناء، حين علمن بموت عالية الباشا ألقوا من النوافذ زبالة وخراء أطفال على نعشها، فتوقف الذين يشاركون فى الجنازة عن حملها وجلسوا متعبين. ولما لحقت بالجنازة سمعت زغاريد العجائز من النوافذ ورأيت قماشة النعش ملوثة، فتقدمت بثقة ونظفته من القذارة التى عليه، ووضعت الجاكت الذى كنت ألبسه عند رأسها فتوقفت الزغاريد، وسأل الناس من هذا الوجيه الذى؟ فصرخت

فيهم (كل نفس ذائقة الموت .) ، عندئذٍ تقدم العقلاء من كل ناحية وحملوها معى .

من يمشى فى جنازة عالية الباشا ، فتنة شبين القديمة ؟ أنا صعلوك شبين بائع الدواء الذى يعرف الحكاية من بدايتها أمشى فى جنازتها ، وأمشى فى جنازات الصالحين والفاسدين ، اللصوص والغجر ، الطبَّالين والعارفين الذاكرين ، الأفندية وبنات الهوى ، حسابهم عند ربهم وحكاياتهم لى .

المحتوى

- الفصل الأول 7
- الفصل الثانى 21
- الفصل الثالث 35
- الفصل الرابع 55
- الفصل الخامس 87
- الفصل السادس 113
- الفصل السابع 149
- الفصل الثامن 193
الفصل التاسع 239
- الفصل العاشر 285
خاتمة 343

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496

هذه الرواية تشتبك مع قضايا الواقع الراهن
الذي أفضى إلى ثورة 25 يناير، بما فيه من
طموح وقهر واستلاب واغتراب وخيانة. وقد
عرض الكاتب لقضية توريث الحكم التي
كانت مثارة قبل الثورة برهافة فنية شديدة.
كما عرض للعديد من الحوادث المهمة التي
شهدتها هذه الفترة بنفس القدر من الرهافة
والاقتدار الفني. وهي رواية مكان بامتياز،
حيث تعد مدينة الكاتب هي الشخصية الأم
في الرواية، سواء بحضورها في السرد الذاتي أو
بتجليها كمستقبل لصدى الأحداث الكبرى
في الشارع المصري.

الغلاف... د. خالد سرور

الثمن: جنيه واحد

www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com